أحاديث

مُعجِزات الرَّسول ﷺ

التي ظهرت في زماننا

الجزء الثالث

(٣) الفتن

تأليف
الأستاذ الدكتور عبد المهدى عبد القادر عبد الهادى
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٢٠٢

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

قال الله تعالى:

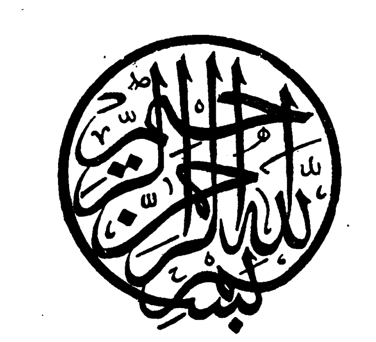
﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

[سورة النساء، آية: ١١٣]

وقال الله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[سورة النور، آية: ٥٦]





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا طيبًا طاهرًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثالث من كتاب «أحاديث معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا» جمعت فيه عددًا آخر من الأحاديث التى أخبر فيها ﷺ عن أمور ستحدث، فظهرت فى زماننا كما أخبر ﷺ.

وكلما عايشت هذا النوع من الأحاديث وجدت فيه توصيفًا عجيبًا لأمور تحدث فى زماننا، أخبر ﷺ عنها، فتقع كما أخبر!!

* إنها أحاديث تشخِّصُ الأمراض التى حلت بالأمة فى هذا الزمان، وتصف الدواء.

* إنها أحاديث تحذر الأمة من أمور تُهْلِك وتُدَمِّر، وتدل الأمة على ما يُصلحها كل الإصلاح.

* إنها نصائح لأهل زماننا، لا من كلام مصلح أو زعيم، وإنما من كلام رسول الله ﷺ الذى قال الله فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]، فكلامه ﷺ من وحى الله سبحانه وتعالى إليه.

وقال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[2] فهو ﷺ دائمًا

(١) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

(٢) سورة النمل، آية: ٧٩.

على الحق الواضح.

وقال الله لنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1] فنحن مأمورون بالاقتداء به ﷺ.

* إنها أحاديث تثبت عظمة الإسلام، وأنه الدين الذى يوجه البشرية إلى الصواب فى كل زمان إلى قيام الساعة.

* إن الله العليم الخبير أعلم رسوله ما يُصلح أمته فى كل زمان ومكان، فأخبرنا ﷺ بذلك، فَحُقَّ علينا أن نتدارس أحاديثه ﷺ عامة، ونتدارس هذا النوع من الأحاديث خاصة، أعنى الأحاديث التى أخبر فيها عن أشياء ستحدث فحدثت فى زماننا كما أخبر ﷺ، وذلك كى ينصلح الحال، ونستقيم على الجادة.

وعلى وتيرة الجزأين السابقين جمعت هذا القدر من الأحاديث، وشرحتها على النحو التالى:

• خرجت الأحاديث وبينت حالها من الصحة والثبوت، وكلها والحمد لله ثابتة مقبولة.

• وشرحت المعانى بأسلوب يتسم بالدقة مع الوضوح.

• وترجمت لراوى الحديث من الصحابة، وراعيت أن تكون الترجمة مفيدة للقارئ ليعرف فضل الصحابة ويقتدى بهم.

• ثم قدمت دراسة موضوعية للحديث، راعيت فيها التوسع للإفادة:

- فجمعت الآيات والأحاديث التى فى موضوعاته، أعزو الآيات لسورها، والأحاديث لمصدرها من كتب السنة النبوية، مع بيان حالها من

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

حيث القبول.

ـ وبينت معانى هذه النصوص مجتمعة، مع جعل كل موضوع مستقلاً بالدراسة، ونظرًا لأهمية هذه الموضوعات فإنى اجتهدت فى دراستها وتقريبها، مع ربطها بالحياة وكيفية تفاعلها مع سلوك الإنسان المعاصر.

ـ وإذا حذرنا رسول الله ﷺ من أمر، فإننى أبين اعتراف العقلاء بخطورته، وإثبات الأحداث بشاعته.

ـ وإذا أمرنا ﷺ بأمر، فإننى أبين اعتراف العقلاء بأهميته، وإثبات الأيام عظمته.

● وبينت وجه إعجاز الحديث، وكيف أنه من أعلام نبوته ﷺ، وكيف أنه دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها، أُلِحُّ على هذا المعنى كى نزداد إيمانًا بقدرة الله تعالى وإحاطة علمه، ورسالة سيدنا محمد وعظيم قدره، وصحة الأحاديث النبوية وعظيم فائدتها.

● وذكرت الدروس التى تستفاد من الحديث، وهذه دراسة موجزة أبين فيها كيف نستفيد بالحديث، ذكرت ما بدا لى، وللقارئ فكره الذى يستبين به هذه الدروس وزيادة.

لقد بذلت فى جمع هذه الأحاديث وشرحها غاية وسعى، وذلك لأهميتها، وأسأل الله الكريم أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يتقبل منا، وأن ينفع به قائله وكاتبه وقارئه.

المعادى فى: جمادى الأولى سنة ١٤٢٦هـ
يونيـــــو سنة ٢٠٠٥م

قاله وكتبه
عبد المهدى

الإخبار بقلة العلم والرجال وكثرة المخدرات والنساء

عن أَنَسِ بْنِ مَالك رضى الله عنه قال: لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يُحَدِّثُكُم به أحدٌ غيرى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، ويَكْثُرَ النِّسَاءُ حتى يكونَ لِخَمْسِين امْرَأَة القَيِّمُ الواحد»[1].

• **المعانى:**

«لأحدثنكم حديثًا» فيه قسم مقدر أى: والله لأحدثنكم حديثًا. وقد صرح بالقسم فى رواية أبى عوانة.

وفى رواية مسلم: «ألا أحدثكم حديثًا» ويبدو أنه قال لهم أولا: ألا أحدثكم حديثًا؟ فقالوا: نعم، فقال: لأحدثنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيرى، أو أحد بعدى.

علم أنس أنه لم يبق أحد ممن سمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ إلا هو، فإنه عَمَّر فمات سنة اثنتين وتسعين وربما لا يحدثكم أى أهل البصرة الذين كان يعيش بينهم، علم أنه لا يوجد فى البصرة من الصحابة أحد حفظ هذا الحديث.

«إن من أشراط الساعة» أشراط جمع شَرَط[2] - بفتح الراء - وهو

(١) أخرجه البخارى فى النكاح، باب: يقل الرجال ويكثر النساء ٩/ ٣٣٠، رقم ٥٢٣١ وهو عنده أيضًا رقم ٨٠، ٨١، ٥٥٧٧، ٦٨٠٨، وأخرجه مسلم رقم ٩/ ٢٦٧١.

(٢) لسان العرب مادة «شرط».

العلامة، والمعنى: إن من علامات الساعة أن يرفع العلم. . الحديث.

والمراد هنا العلامات الصغرى، وهى تحدث قبل قيام القيامة بكثير. أما العلامات الكبرى كطلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة فهذه علامات قريبة من القيامة جداً.

«أن يرفع العلم» فى رواية عند البخارى[1]: «من أشراط الساعة أن يظهر الجهل ويقل العلم» والقلة تطلق بمعنى العدم، وعليه فرفع العلم وقلته بمعنى واحد، وهو ضياعه وزواله. أو القلة أقل خطراً من الرفع. فالقلة أول العلامة، والرفع آخر العلامة من علامات القيامة. وعليه فيقل العلم ثم يرفع.

وقلة العلم بانصراف أكثر الناس عن تعلمه، أو ضعف أهله فى طلبه.

ورفع العلم زواله من الأمة، وذلك لن يكون بالمحو من الصدور وإنما بموت العلماء أو عدم العمل به.

والمراد بالعلم: العلم الشرعى الذى هو القرآن الكريم والسنة النبوية.

«ويكثر الجهل» أى ينتشر الجهل ويشيع، فلا العلماء يُعَلِّمُون، ولا العوام يتعلمون.

«ويكثر الزنا»، وفى رواية[2]: «ويظهر الزنا»، والمعنى أنه يشيع ويشتهر بحيث لا يُتكاتم به لكثرة من يفعله.

«ويكثر شرب الخمر» أى يشتهر تناول المسكرات، وكل مسكر خمر.

«ويقل الرجال ويكثر النساء» وذلك أن الله سبحانه يقدر أن يقل من

(١) ج١٠ ص٣٠ رقم ٥٥٧٧ أول كتاب الأشربة.

(٢) رقم ٨١ عند البخارى.

يولد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث.

أو «يقل الرجال ويكثر النساء» بسبب الحروب، والتى يقتل فيها الرجال كثيراً لأنهم أهل الحرب دون النساء.

«حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» يحتمل أنه يراد بالعدد حقيقته، وأن النساء يكثرن حتى يتبع الرجل خمسون امرأة من قريبات وزوجات، ويحتمل أن يكون العدد مجازاً عن الكثرة، أى أن الرجل يعول الكثيرات من النساء.

و«القيم الواحد» من يقوم بأمر الآخرين وحده، واللام للعهد إشعاراً بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النساء.

• راوى الحديث:

هو أنس بن مالك بن النضر النجارى الأنصارى، تقدمت ترجمته فى شرح الحديث الأول[1].

• شرح الحديث:

علامات القيامة منها السابق عليها، ومنها المقارن لها، وفى هذا الحديث يبين ﷺ ستًا من العلامات السابقة على القيامة، والتى تسمى «العلامات الصغرى» تمييزًا لها عن «العلامات الكبرى» والتى تصاحب القيامة، فيذكر ﷺ أن العلم يقبض وينعدم، وأن الجهل يشيع وينتشر، وأن الزنا والمخدرات يكثران، ويقل الرجال وتكثر النساء، وبذلك يختل نظام الكون، ويفسد المعاش والمعاد.

---

(١) ج١ ص٦٢ حديث: «يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر» باب الإخبار بصعوبة المحافظة على الدين.

إن الحياة تنتظم بخمسة أمور، هى: الحياة، والعقل، والدين، والمال، والنسب. فإن سلمت هذه استقرت الحياة، وبمقدار ما يضيع منها بمقدار ما يضيع من الحياة، فنبه ﷺ على اجتناب ما يدمر هذه الأصول، فحذر من تضييع العلم وكثرة الجهل حتى لا يضيع الدين، وحذر من شرب الخمر الذى يدمر العقل. وحذر من الزنا الذى يخل بالأنساب. وكل هذه الثلاثة تدمر الحياة والأموال.

وأفصل هذا الإجمال:

١ـ رفع العلم: بين ﷺ فى هذا الحديث أن رفع العلم من علامات قيام الساعة، وأنه يؤذن بزوال الدنيا وخراب الحياة، وجاءت أحاديث تبين كيفية قبض العلم:

* فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناسُ رءوسًا جُهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا**»[1].

ففى هذا الحديث بيان أن الله سبحانه لن ينتزع العلم من قلوب العلماء، ولن يأخذه فجأة، وإنما ينصرف الناس عن طلب العلم، ويموت العلماء، فيتخذ الناس أئمتهم من الجهلاء، فيُفتون بأهوائهم، فَيَضِلُّون أنفسهم ويُضِلّون غيرهم. وفى هذا حث على حفظ العلم.

* وعن أبى الدرداء قال: كنا مع النبى ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «**هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شىء**». فقال زياد بن لبيد الأنصارى: كيف يختلس منا وقد قرأنا

---

(١) أخرجه البخارى رقم ١٠٠، ومسلم رقم ١٣/٢٦٧٣، وابن حبان رقم ٤٥٧١.

القرآن، فوالله لنَقرأنَّهُ ولنُقرِئَنَّهُ نساءنا وأبناءنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا زياد إن كنتُ لأعُدُّك من فقهاء أهل المدينة؛ هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم؟»[١].

وفى هذا الحديث تنزيل الذى لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل، وأن العبرة بالعلم إذ يُعمل به، فالعلم فى الإسلام ما قارنه العمل.

وواضح من الحديث الذى نحن بصدد شرحه أن رفع العلم يؤدى للهلاك، وواضح من الحديثين السابقين أن على الأمة أن تحافظ على نشر العلم، وأن تحافظ على العمل به، يجتهدون فى ذلك أفرادًا وجماعات.

إن الإسلام وضع للأمة منهجًا علميًا، حينما اتبعته سادت وعزت، أما حينما تهاونت فكان ما نعانيه الآن من اقتتال وضياع الأموال، والأعراض، والعقل، والدين.

٢- كثرة الجهل: ومن أسباب ضعف الأمة وهلاك البشرية كثرة الجهل، والجهل أقسام أهمها:

أ - عدم تعلم العلم، وهذا الجهل البسيط.

ب - تعلم العلوم الضارة بالدين، وهذا الجهل المركب.

جـ - عدم العمل بالعلم، وهذا جهل العمل.

وكل هذه الأقسام مذمومة شرعًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

(١) أخرجه الترمذى فى العلم باب ما جاء فى ذهاب العلم ٧/ ٤١٢ تحفة الأحوذى، وقال: حسن غريب، وأخرجه ابن حبان رقم ٤٥٧٢، وأخرجه أحمد رقم ٢٣٩٩٠ كلاهما عن عوف بن مالك.

(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

* وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[١].

* وقال سبحانه مخاطبًا نبيه وكل مسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢].

* وقال عز وجل فى وصف الصالحين: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[٣].

* وقال سبحانه: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٤].

* ويقول ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»[٥].

ومعنى هذا أن الدنيا بزهرتها ولذتها تُميل الكثيرين عن عبادة الله تعالى فتُذم لذلك، ويحمد منها ما دل الناس على الله من علم وذكر لله تعالى. وفى هذا بيان أن الجهل مذموم غاية الذم، فإنه يجعل الإنسان بعيدًا عن الله.

* ويقول ﷺ: «إن الله يُبغضُ كل جَعْظَرِىٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بالأسواق، جِيفَةٍ بالليلِ، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[٦].

و(الجعظرى) الفظ الغليظ المتكبر. و(الجَوَّاظ) الذى يجتهد فى جمع المال، ويبخل فلا يعطى المحتاج، وفيه زجر عن الانهماك فى الدنيا وترك الدين، وأن الجاهل بأمور دينه لا خير فيه لنفسه ولا لغيره.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٣.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.
(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله ٦/ ٦١١ وحسنه.
(٦) أخرجه ابن حبان فى صحيحه رقم ٧٢ ج١ ص٢٧٣، ٢٧٤.

* ويقول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]. فالعلم منه قدر ضرورى يحتاجه المسلم فى حياته، لتصح عقيدته، ولتصح عبادته، ولتحسن أخلاقه، وهذا القدر فرض على المسلم أن يتعلمه، وكذلك فرض على المسلمة أن تتعلمه.

* ويقول ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يُرْفع، وقلب لا يخشع، وقول لا يُسْمع»[2]، إنه ﷺ يحذرنا العلوم الضارة، العلوم التى تأخذ المسلم بعيدًا عن الإسلام، كمن يدرس العلمانية، أو الوجودية، على أناس يمجدونها وهو لم يدرس الإسلام، فلربما انبهر بها فأبعدته عن الإسلام الدين الحق، واجب على المسلمين أن يتعلموا الإسلام أولاً وقبل كل دراسة، فدراسته خير فى الدين والدنيا والآخرة، خير لدارسه، وتجعله خيرًا مع كل الناس.

ويقول ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى فى النار، فَتَنْدَلِقُ أقتابه فى النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أى فلان! ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمُرُكُم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[3].

وفى ذلك تحذير من أن يخالف قولُ الإنسان عملَه، فالعلم فى الإسلام يقتضى العمل به، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم ٢٢٤، وابن عبد البر ١/ ٢٣ رقم ١٥، وتكلم محققه عنه كثيرًا فحسنه بشواهده وجمع طرقه، وأقوال الأئمة عليه.

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ١/ ٢٨٤ رقم ٨٣.

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق باب صفة النار ٦/ ٣٣١ رقم ٣٢٦٧، وفى الفتن رقم ٧٠٩٨.

(٤) سورة الصف، آية: ٢، ٣.

ويقول ﷺ: «مثل الذى يعلم الناس الخير، وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه»[١].

وهكذا فالجهل شؤم أيما شؤم، سواء كان لعدم تعلم الدين، أو تعلم ما يضر بالدين، أو عدم اقتران العمل بالعلم، إن الإسلام يوجب على المسلم:

* أن يتعلم ما ينفعه فى دينه.
* أن لا يتعلم ولا يعمل ما يضر بدينه.
* أن يعمل بما تعلمه من دينه.

وعلى حين يأمر الإسلام أن يتعلم المسلم دينه، فإنه يأمر العالم أن يُعَلِّم ويُحَذِّر من كتمان العلم.

٣ - **كثرة الزنا:** لفظ حديث الباب: «ويكثر الزنا»، وفى حديث آخر تصوير لهذه الكثرة:

يقول ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها فى الطريق، فيكون خيارهم من يقول: لو واريتها وراء هذا الحائط»[٢].

ويقول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تتسافدوا فى الطريق تسافد الحمير»[٣].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير كذا قال المنذرى فى الترغيب ١/ ١٤٨، قال: وإسناده حسن إن شاء الله تعالى، وهو فى المجمع ١/ ١٨٤، ١٨٥، وقال: ورجاله موثقون.

(٢) أخرجه أبو يعلى ١١/ ٤٣، ٤٤ رقم ٣٤٣ - ٦١٨٣، وقال محققه: إسناده قوى، وقال البوصيرى فى إتحاف الخيرة ٩/ ٢٤٣، ٢٤٤، رقم ٩٨٩٥، رواه أبو يعلى مرفوعًا ورواته ثقات، وقال فى مجمع الزوائد ٧/ ٣٣١، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان ١٥/ ١٧٠ رقم ٦٧٦٧، وأخرجه البزار كما فى الزوائد ٤/ ١٤٨ رقم ٣٤٠٨، قال فى المجمع ٧/ ٣٢٧ رواه البزار والطبرانى ورجال البزار رجال الصحيح.

وهكذا تصور النصوص كثرة جريمة الزنا، وأنها تصبح أمرًا عاديًا شائعًا يؤذن بخراب الدنيا.

فمن علامات القيامة كثرة الزنا، هذه المعصية الكبيرة القبيحة، التى تدمر الأسر، وتهدم البيوت، وبها تنتهك الأعراض، وتختلط الأنساب، وتضيع الكرامات، جريمة ورد الوعيد الشديد عليها، منه ما هو فى الدنيا وما هو فى الآخرة.

* قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1] نهى سبحانه عن القرب من الزنا، أى عن مقدماته، فلا نظر إلى المرأة التى لا تحل له، ولا ابتسامات، ولا قبلات ثم أطلق على الزنا: ﴿فَاحِشَةً﴾، أى أنه فعل قبيح شرعًا وعقلاً، يستقبحه العقل السليم والطبع المستقيم.

وأطلق عليه: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى وبئس الطريق، فإنه يؤدى إلى مساوئ جمة، ومشاكل لا تنتهى، فلن يرضى أهل الزانية عن الزانى وإنما يتربصون به مدى الحياة، ولو حدث حمل فمن سيربيه، أما الخزى فحدث ولا حرج، وفوق ذلك غضب الله تعالى.

* وقال تعالى فى وصف الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾[2]، مدح سبحانه الصالحين بأنهم يبتعدون عن الشرك والقتل والزنا، وتوعّد سبحانه من يقع فى واحد من هذه الثلاثة بأنه يلقى أثامًا؛ أى نكالاً وذلك بأن يضاعف له العذاب ويكرر، ويغلظ عليه يوم

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٨ ـ ٧٠.

القيامة، ويظل فيه مهانًا حقيرًا ذليلاً.

* وقال ﷺ: «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن:

لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يُعْلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذُوا بالسنين[١] وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم.

ولم يَمْنَعُوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما فى أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[٢].

يبين ﷺ المعصية وشؤمها، ومنها الزنا، وشؤمه شيوع الأمراض التى لم تحدث قبل ذلك، أمراض ستحدث مما يجعل علاجها صعبًا، سماها ﷺ: «الطاعون والأوجاع» مما يفيد أنها فتاكة.

* ويقول ﷺ: «لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا، فيوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب»[٣].

---

(١) القحط.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٩، والحاكم ٤/ ٥٤٠، وصححه ووافقه الذهبى، وراجع أحاديث المعجزات ٢/ ١٥٣، وسيأتى إن شاء الله فى باب مستقل ص١٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤٤/ ٤١٢ رقم ٢٦٨٣٠، وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٤٦٨، وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.

إن كثرة ولد الزنا سببه كثرة الزنا، فالمعنى: لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم الزنا، فإذا كثُر الزنا عَمّهُم الله بعقاب جزاء هذا الذنب.

هكذا تبين الآيات فداحة الزنا، وتبين الأحاديث شؤمه، وأنه شر فى الدنيا والآخرة، والواقع يبين فظاعته ما بين أمراض فتاكة، مثل: السيلان، والزهرى، وضياع جهاز المناعة «الإيدز»، والذى يجعل الجسم أوهن ما يكون، يفتك به أى مرض، ويقتله أى ميكروب!! أما أضراره النفسية والاجتماعية فهى أكثر من أن تذكر، وأشهر من أن تحتاج لتذكير.

ومن هنا بين ﷺ أن كثرة الزنا فيها تدمير الحياة، وأنها من أشراط الساعة، ينادى ﷺ المسلمين أن يحذروا ذلك حتى لا ينزل غضب الله، وحتى تستمر الحياة بعناية الله سبحانه وتعالى.

الزنا الخفى: هناك صور من الزنا تحدث وأهلها لا يشعرون أنهم وقعوا فى هذه الجريمة!! من ذلك:

١ ـ أن يطلق الرجل زوجته ثلاث مرات فتنتهى حياتهما الزوجية، لكنهما يظلان فى عشرة، فيصير ما بينهما من جماع ليس حلالاً وإنما هو زنا!! وما يولد بينهما أولاد زنا!!

ولقد كثر هذا فى زماننا!! فكثر التلفظ بالطلاق، منهم من يجعله قسمًا يؤكد به كلامه، ومنهم من يجعله شرطًا يهدد به، وكل هذا يدمر الأسر، ويجعل الحياة حرامًا.

حدث عبد الله بن مسعود بحديث رسول الله ﷺ: **«إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكثر ولد الزنا»** فقال أحد الحاضرين لعبد الله بن مسعود: وهم مسلمون؟ فقال ابن مسعود: نعم. فقال: والقرآن بين ظهرانيهم؟ قال: نعم. قال: وأنى ذلك؟ قال: يأتى على الناس زمان

يطلق الرجل المرأة طلاقها فتقيم على طلاقها، فهما زانيان ما أقاما[١].

٢ ـ الزواج الباطل، وهذا صوره كثيرة: يتزوج الفتى الفتاة، دون علم أهلها، ودون ولى يزوجها، ودون صداق، وهذا كثير بين الشباب وبخاصة الطلاب.

* ويتزوج الرجل المرأة سرًا فلا تحرر وثيقة للزواج، ولا يُشْهر ذلك بين الناس، وهذا كثير بين النساء اللاتى لهن معاش «مبلغ مالى من زوج متوفى، أو من أب متوفى».

* وتتزوج المرأة وهى فى عصمة زوج!! فأحيانًا تترك المرأة زوجها وتذهب فتتزوج رجلاً غيره، والأول لم يطلقها، وبالتالى فالزواج الثانى باطل، لأنه تم على متزوجة.

وصور الزواج الباطل كثيرة، فكل زواج لم تتوفر فيه شروط صحة الزواج فإنه باطل، والمعاشرة بين الزوجين ليست حلالاً، والأولاد أولاد زنا.

وهذا السبب من أسباب الزنا خطير، لأن الذين يفعلونه يظنون أنهم على حق، وبالتالى فإنهم لا يفكرون فى تركه، وهناك هيئات أو جماعات تشجع عليه، ما بين مستفيدين من هذا ماديًا، وما بين حريصين على تدمير الأمة.

منهج الإسلام في منع الزنا: ونظرًا لفداحة جريمة الزنا لم يقف الإسلام عند حد تحريمها وبيان بشاعتها وشؤمها، وإنما حرم مقدماتها وأسبابها:

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه سيف بن مسكين ضعيف كذا فى المجمع ٧/٣٢٣، وأرى أن سيفًا يقال فيه: ضعيف جدًا. ولا أقبل أن أذكر أحاديث أمثاله فى كتبى، لكنى أردت الموقوف منه.

* فحرم نظر الرجل إلى امرأة لا تحل له، ونظر المرأة إلى رجل لا يحل لها، إن النظر الحلال يكون بين الزوجين ولا يحل النظر لأجنبية ليست زوجة، ولا يحل نظر المرأة لرجل أجنبى - ليس محرمًا لها - وليس زوجًا.

* وحرم لمس الرجل غير زوجته، وكذلك حرم لمس المرأة غير زوجها.

* وحرم ابتسامة الرجل لامرأة غير زوجته، وابتسامة المرأة لرجل غير زوجها.

* وحرم أى علاقة بين الرجل والمرأة، من مكاتبات، ومكالمات، وكل ما يثير كوامن الشهوة، فكل ذلك مقدمات قد تنتهى بالزنا، وهى فى كل أحوالها سيئات.

* وحرم كذلك اختلاط الشباب بالشابات، واختلاط النساء بالرجال.

* وحرم تزين النساء لغير أزواجهن، وتزين الرجال لغير زوجاتهم.

* وحرم أن يخلو رجل بامرأة، وبخاصة أقارب الزوج كأخيه وعمه وخاله، وأقارب الزوجة كابن عمها وابن خالها.

* وحرم الإسلام سفر المرأة بدون محرم.

• **ووضع الإسلام البديل الصالح: ولم يقف الإسلام فى منع الزنا عند حد تحريمه وتحريم مقدماته وأسبابه، وإنما تعدى ذلك إلى وضع المنهج السوى لإشباع رغبات الإنسان، فحث على الزواج، وحث على تيسيره، وبين أنه طاعة، وأن الثواب عليه عظيم، فأشبع بذلك رغبة الإنسان الجنسية، وأشبع فيه غريزة الأبوة والأمومة، وحقق له السعادة الاجتماعية، والاستقرار النفسى، فكان البديل أسمى وأعظم، وأنفع وأكرم.**

٤ ـ ويكثر شرب الخمر: الخمر اسم لكل مسكر، سمى بذلك لأنه يخامر العقل أى يغطيه ويستره[١]، يقول ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»[٢].

وفى الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين ﷺ أن من أشراط الساعة كثرة شرب الخمر، أى كثرة تناول المخدرات، وكثرة المخدرات وشيوعها!!

إن المخدرات حرام بنص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

* يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٣]، والميسر: الألعاب التى تضيع الوقت، و«الأنصاب» الأصنام التى تعبد من دون الله تعالى، و«الأزلام» أشياء يتفاءل بها أو يتشاءم بها عند البدء فى أمر.

تبين الآية أن الخمر والألعاب والأوثان والأشياء التى يُظن أنها تعلم الغيب كل هذه الأشياء رجس ـ أى نجسة نجاسة معنوية تعافها الأذواق وتنفر منها الطباع، وهى ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أى إنكم إنما تفعلونها بعمل الشيطان إذ يزينها لكم ويحسنها فى نظركم.

* «ولما نزلت هذه الآية مشى أصحاب النبى ﷺ بعضهم إلى بعض وقالوا: حُرِّمت الخمر وجُعلت عِدْلاً للشرك»[٤].

---

(١) راجع باب الإخبار عن تسمية الخمر بغير اسمها ج١ ص٢٨٠ من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه مسلم فى الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/١٥٨٧، ح٧٤، ٧٣.

(٣) سورة المائدة، آية ٩٠، ٩١، وتفسير هذه الآية تقدم فى هذا الكتاب ج١ ص٢٨٥.

(٤) أخرجه الحاكم ٤/١٤٤.

* ويقول رسول الله ﷺ: «من لقى الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن»(١).

* وقال ﷺ: «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر»(٢).

ولما نزلت الآية الكريمة بتحريم الخمر، وبيّن رسول الله ﷺ حرمتها امتنع الصحابة عنها فوراً، لم يتمهلوا ولم يُسَوِّفوا، وإنما سارعوا. وسارت الأمة على هذا النهج تبتعد عن المخدرات كل البعد، تبتعد عن صنعها وبيعها وشرائها، والاتجار فيها فضلاً عن تعاطيها، إلا أن رسول الله ﷺ فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين أن الأمة ستنتكس وستعود إلى الجاهلية ومنها كثرة المخدرات التى تفتح باب الشر واسعًا، كم دمرت من شباب وشابات جعلتهم بعد الصحة هلكى، وفى الضياع غرقى!!

وكم دمرت من رجال وأفسدت أسرهم. وكم دمرت من نساء فأصبحن لا خلق ولا عقل فيهن، تعاطين المخدرات فشوهت الأجنة فى بطونهن، إن المخدرات تكلف الدول أموالاً باهظة، وتنخر فى عظام الأمم تدمر وتهلك، حتى أصبح الاقتصاد يئن بسببها، وأصبحت أقوى الوسائل فى حروب الأمم.

ورسول الله ﷺ إذ يبين أنه من علامات الساعة أن يكثر شرب الخمر إنما يحذرنا هذه الآفة وتلك المصيبة، يحذر الأمة والجماعات والأفراد، ويبين أن المخدرات من الآفات التى تدمر المعاش والمعاد، وبها يتم خراب العالم.

ولقد جاءت أحاديث تبين شؤم شيوع الخمر، وأن ذلك شؤم أيما شؤم

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ٧/ ٣٦٧.
(٢) أخرجه الحاكم ٤/ ١٤٥.

على الأمة، من ذلك:

* قوله ﷺ: «يشرب ناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُضرب على رءوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»[1].

* وقوله ﷺ: «فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور»[2].

فإذا كان الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين أن شرب الخمر من أسباب خراب الدنيا، فإن هذه الأحاديث تبين أن شرب الخمر يتبعه المعازف والقينات، و«المعازف» أجهزة الموسيقى، و«القينات» المغنيات، وإذا ظهر ذلك عوقب فاعلوه بثلاثة أشياء هى:

١ ـ **الخسف:** يخسف الله بهم الأرض، فتنشق وتبتلع مجالسهم أو قراهم، وقد حذر الله الخلق هذه العقوبة، فقال سبحانه: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[3]، أى تضطرب.

٢ ـ **المسخ:** يحول الله العصاة من آدميين إلى مخلوقات أخرى، فيجعلهم قردة أو خنازير.

٣ ـ **القذف:** يرسل الله الأحجار والأتربة على أماكن المعاصى، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾[4]، أى

(١) أخرجه ابن حبان ١٥/ ١٦٠.

(٢) أخرجه الترمذى فى الفتن باب بعد باب ما جاء فى أشراط الساعة ٦/ ٤٥٨، وقال: غريب. قلت: يتقوى بشواهده، راجع ج٢ ص٢٥٢ من هذا الكتاب.

(٣) سورة الملك، آية: ١٦.

(٤) سورة الملك، آية: ١٧.

حجارة تسقط على الأشخاص فتؤذيهم، وعلى الممتلكات فتتلفها.

إن شرب الخمر يقود إلى المعاصى، والمعاصى تجلب غضب الله ونقمه، ومن هنا فشيوع المخدرات سبب قوى من أسباب الهلاك، نسأل الله العفو والعافية.

إن الإسلام وهو يبين شؤم المخدرات، فإنه وضع المنهج لإبعادها عن حياة الأمة، فنفر منها وحذر، وجعل عقوبة لمن يتعاطاها، ونصح بتعويد المجتمع على مكارم الأخلاق، وتنشئة الأجيال على الجدية.

وأمر بالبعد عن الضلال والهوى، وحذر من ميوعة الشباب وتخنثه، ومن اللهو والإباحية، مما معه لا يقبل الناس على المخدرات وإنما على الخير والطاعات.

٥، ٦ - ويقل الرجال ويكثر النساء: يبين ﷺ أنه سيأتى زمان يقل فيه الرجال ويكثر النساء، وفى ذلك ما فيه من الخلل والمشاكل، مما يؤذن باقتراب القيامة.

إن الرجل أساس دورة الحياة، تقع عليه مسئولية العمل والكسب بكل أشكالها ومسئولياتها، وهو المسئول عن حماية من معه من نساء وأطفال. والرجل هو الجندى فى المعارك، وهو رجل النجدة فى المصائب. والمرأة دورها فى تهيئة أسباب المعاش، والولادة والتربية، وهى محمولة عليه يقوم على أمرها وأولادهما.

وعليه فبمقدار التقارب العددى بين الشباب والشابات بمقدار اتزان الحياة، أما إذا اختل العدد فهذا يؤدى إلى كثير من المشاكل والمصاعب.

وبجمع النصوص من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية يتضح أنه كلما ابتعدت الأمة عن الله سبحانه كلما وهت، واختل توازنها، ويمكن

إجمال أسباب قلة الرجال وكثرة النساء فيما يلى:

١ ـ **كثرة القتل والحروب**: جاء فى رواية أخرى للحديث الذى أشرحه هنا «ويذهب الرجال ويبقى النساء»[(١)]، وجاء فى حديث آخر: «يتقارب الزمان، ويُقْبَضُ العلمُ، وتظهر الفتن، ويُلْقى الشح، ويكثر الهَرج». قالوا: وما الهرج؟ قال: «القتل»[(٢)]، ومن الحديثين يتضح أن القتل يكثر، القتل بين رجلين أو جماعتين، تكثر الفتن والاختلاف فيكثر القتل فيقل الرجال!!

وتنشأ الحروب بين الدول، سواء بين دولتين أو بين مجموعتين من الدول، وتقتل أعداد من الرجال، وصنعت البشرية أسلحة فى غاية الخطورة، ما بين طائرات حربية ودبابات وغواصات، وقنابل وصواريخ، أسلحة لا يتحمل الإنسان أن يكتب قدرتها التدميرية، وخطرها على حياة البشرية، ويكفى أن يعلن أحد المسئولين أن القرن العشرين كان «قرن الدم» إذ بلغ عدد القتلى فيه ١٨٧ مليون قتيل!!

وهذه الحروب معظم المقتول فيها من الرجال، مما يجعل الرجال يقلون والنساء يكثرن!!

والإسلام يوصى الأمة بعدم الاقتتال، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارًا، يضرب بعضكم

---

(١) عند مسلم فى العلم باب رفع العلم ٤/٢٠٥٦، رقم ٩ ـ ٢٦٧١.

(٢) أخرجه مسلم فى الموطن السابق.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٣.

رقاب بعض»[١].

وهكذا بين الإسلام بشاعة جريمة القتل وأنها فعل الكفار، ولا يصح أن تقع من مسلم، فإن وقعت فعلى القاتل غضب الله، وهو مطرود من رحمة الله، وجزاؤه عذاب عظيم.

أما الحروب فيوصى الإسلام المسلمين أن يكونوا أقوياء من كل ناحية، ففى ذلك ردع عدوهم، وفرض العدل فى الأرض كلها.

* يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[٢].

* ويقول سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٣].

إن قوة المسلمين تجعل الآخرين فى حالة اتزان، وضعف المسلمين يجعل الآخرين فى حالة طغيان، فقوة المسلمين خير لهم ولغيرهم، وهى قوة الذين يخافون الله، ويعدلون فى الأرض.

٢ ـ قلة من يولد من الرجال: وقد تكون قلة الرجال من قلة من يولد من الرجال، فيقدر الله سبحانه أن يقل من يولد من الذكور، وأن يكثر من يولد من الإناث، ويؤيد هذا الرواية التى فى صدر الباب: «ويقل الرجال ويكثر النساء»، فالذرية نعمة يهبها الله من شاء من خلقه، فإن

(١) أخرجه البخارى ١/٢١٧، رقم ١٢١، ومسلم ٦٥/١١٨.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.
(٣) سورة الحج، آية: ٤٠، ٤١.

العباد أطاعوه سبحانه وتعالى وهبهم الذرية على خير حال تَقَرُّ بها عيونهم، ويسعد بها بالهم، فأعداد الذكور تكون متناسبة مع أعداد الإناث، وتكون صحة الأولاد سليمة، والأخلاق كريمة ومن دعاء الصالحين الوارد فى القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(١)، أما إن العباد عصوه فإنه سبحانه يجعل الذرية نكالاً، فالأعداد تكون غير متناسبة، وتشيع الأمراض، وتسوء الأخلاق، وتسقم الطباع.

* يقول الله سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(٢).

* ويقول سبحانه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾(٣).

إن الاستغفار والتوبة يجعل النعم كثيرة، من مياه وزراعات وصناعات وتجارات، والاستغفار والتوبة يزيد الله بهما الأمة قوة على قوة، قوة بكثرة الرجال، وزيادة المال، وصلاح الحال، وبالمقابل فالذنوب تؤدى إلى الحرمان من الأموال والأولاد، وهى سبيل كل ابتلاء من ضعف وذل.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤)، هذه سُنَّةٌ من سنن الله التى تحكم الكون، فمجتمعات الإيمان والعمل الصالح تعمهم

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٤.
(٢) سورة نوح، آية: ١٠ ـ ١٢.
(٣) سورة هود، آية: ٥٢.
(٤) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

بركات الله من كل ناحية، ومجتمعات الضلال والهوى لهم العقاب وعليهم غضب الله!!

إن قلة إنجاب الذكور وكثرة إنجاب الإناث إنما يكون بشؤم الذنوب، ويكون مصدر شقاء للمجتمع بأسره، فأهل الفتاة لا يجدون الفتى الكفء الذى يتزوجها مما يضايقهم، ومما يجعل البنات فى ضيق وقد يتحول إلى شر.

أما الفتى فإنه لقلته يدلل!! ولقلته يكون ضعيفًا، فليس له إخوة، وأقارب من الرجال يتقوى بهم، وبهذا لا يكون قرير العين، ولا يكون قرة عين لأهله، ولا يكون مصدر سعادة لزوجته ولا لأولاده.

٣ ـ كثرة الحوادث: من مستلزمات المدنية الحديثة كثرة الحوادث، فحوادث الحرائق من كهرباء، ومصانع وقود، ومواد مشتعلة، وكيماويات، وحوادث المواصلات باتساعها وزيادة سرعتها، وإقدام الأمم على الكيد لبعضها فى هذه الدائرة، وحوادث المبانى، وحوادث المناجم، ذلك وغيره يودى بحياة كثيرين، ومعظمهم من الرجال مما ينتج عنه قلة الرجال وكثرة النساء.

إن المدنية الحديثة بتعقيداتها جعلت العنصر البشرى أكثر عرضة للخطر من ذى قبل، والرجل هو العنصر القوى فيتعرض لهذه المخاطر أكثر، مما يجعل الرجال يقلون.

نسبة القلة والكثرة: ولقد بين رسول الله ﷺ فى هذا الحديث نسبة القلة والكثرة، فقال: «ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» أى أن قلة الرجال ستكون قلة شديدة، وأن كثرة النساء ستكون كثيرة، حتى إن الرجل الواحد يكون قيمًا على خمسين امرأة.

وقد جاء فى حديث آخر: «إذا عمت الفتنة ميز الله أولياء» حتى يتبع

الرجل خمسون امرأة تقول يا عبد الله استرنى، يا عبد الله آونى»[١].

وفى حديث آخر: «ويُرَى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء»[٢].

ويقول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتبع الرجل قريب من ثلاثين امرأة كل تقول: أنكحنى أنكحنى»[٣].

وواضح من هذه الأحاديث أن النساء يكن كثيرات جدًا، فثلاثون امرأة يعرضن أنفسهن على رجل ترجو كل واحدة منهن أن يتزوجها.

وأربعون امرأة يلجأن إلى رجل طلبًا للحماية.

وخمسون امرأة يتبعن رجلاً واحدًا كل واحدة ترجو أن يسترها وأن يأويها.

إن كل هذا يُصَوِّر مدى قلة الرجال ومدى كثرة النساء، وأن النسبة تكون رجلاً واحدًا مقابل خمسين امرأة.

ومما يصور قلة الرجال وأنها ستصل إلى حد كبير، هذا الحديث:

يقول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله، وحتى تمطر السماء مطرًا ولا تنبت الأرض، وحتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد، وحتى تمر المرأة بالنعل فتقول لقد كان لها مرة رجل»[٤]. إن المرأة

---

(١) أخرجه على بن معبد فى الطاعة والمعصية من حديث حذيفة. ذكره الحافظ فى الفتح ٩/ ٣٣٠، شرح حديث ٥٢٣١.

(٢) أخرجه البخارى ٣/ ٢٨١ رقم ١٤١٤.

(٣) أخرجه الحارث بن أبى أسامة كذا فى بغية الحارث رقم ٧٩٤، وإتحاف الخيرة للبوصيرى ١٠/ ٢٦١ رقم ٩٩٣٢.

(٤) أخرجه البزار كشف الأستار ٤/ ١٥٠، ١٥١ رقم ٣٤١٨، وقال فى المجمع ٧/ ٣٣١: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

تتشمم رائحة الرجل حتى إنها ترى نعله على أنه أثر رجل. يُذكِّر برجل. مما يفيد أن الرجل سيكون فى غاية الندرة!!

• وجه الإعجاز فى الحديث:

أرسل الله رسوله محمداً ﷺ يرشد الأمة إلى كل خير، ويحذرها كل شر.

* قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[1]، هكذا هو ﷺ بما يوحيه الله إليه يأخذ بيد البشرية إلى الطريق القويم، الذى به يرضى الله عن البشرية.

* ويقول ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدى عنها إلا هالك»[2].

* ويقول ﷺ: «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه»[3].

لقد بين ﷺ طريق الهداية، ورسم الصراط المستقيم على خير وجه، وتعلم الصحابة منه واقتدوا به بكل دقة واحتياط، فابتعدوا عن الذنوب والآثام كل البعد، واجتهدوا فى الطاعة والعبادة كل الاجتهاد، فأنعم الله عليهم بصنوف النعم، أعزهم ونصرهم، ووسع أرزاقهم ويسر أمورهم، ثم إنه ﷺ بما علَّمه الله سبحانه وتعالى علِمَ أن ذنوبًا ستُرتكب!! وأن

---

(١) سورة الشورى، آية ٥٢، ٥٣.

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/٦٦، رقم ٤٨ وحسنه المنذرى فى الترغيب ١/٨٦.

(٣) أخرجه الحاكم ٢/٤.

معاصى ستكون، وسيتبع ذلك مصائب ومصاعب تتعب الأمة وتشقيها معاصى يجب على الأمة أن تحذرها، وفى الإمكان البعد عنها، منها:

١، ٢ ـ قلة العلم وكثرة الجهل: حث الإسلام على طلب العلم، وأعلى قدر العلماء، وفهم الصحابة ذلك فاجتهدوا فى طلب العلم، وعملوا بما علموا، إلا أن رسول الله ﷺ يخبر أنه سيأتى زمان يقل فيه العلم ويكثر الجهل!! ويتحقق ذلك فى زماننا، فنرى ذلك واقعًا ملموسًا، فالمقارنة بين علماء اليوم[1] ومشايخنا تفيد أن العلم نقص كثيرًا، أما المقارنة بين علماء اليوم وعلماء القرن التاسع الهجرى مثلاً، أمثال: الحافظ العراقى، والحافظ الزيلعى، والحافظ ابن حجر، فالفارق كبير جدًا.

أما الجهل فكثر وفاض، ما بين أناس لا يتعلمون الإسلام، وأناس لا يتعلمون الإسلام ويتعلمون غيره، وأناس يتعلمون الإسلام لكن على غير أسس صحيحة، وأناس يَعْلَمُون لكن لا يعملون.

إن الأحاديث تفيد أن العلم لن يقل بأن يرفعه الله من الصدور، وإنما بتكاسل الناس عن طلبه وانصرافهم عن العمل به، والشر يأتى من هنا، والعلاج أمر ميسور، فليحرص الناس على طلب العلم، وعلى العمل بالعلم ننجُ من المهالك والشرور، ونصل إلى السعادة والسرور.

ولن يكثر الجهل بأن تغلق العقول عن الفهم والقلوب عن الاستيعاب، لا، وإنما بانصراف الناس عن العلم يكثر الجهل، ولو أن الناس انتبهوا لهذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه والأحاديث التى فى موضوعه فحرصوا على العلم ما قبض العلم ولا كثر الجهل.

(١) عام ١٤٢٥ هجرى ويوافقه ٢٠٠٤ ميلادى.

إنه ﷺ يخبرنا بأنه سيقل العلم وسيكثر الجهل، يحذرنا ذلك، وقد ظهر هذا فى زماننا، والمطلوب أن نستفيد ونحذر قلة العلم وكثرة الجهل، وذلك بطلب العلم وتهيئة أسبابه، وتيسير التعليم الشرعى وفق المناهج السليمة، والمقررات التى ترسى على أسس علمية.

٣ ـ كثرة الزنا: يحذر ﷺ هذه الفعلة الخبيثة، وأن على المسلم أن يحذرها، فشؤمها خطير، سواء كانت هذه الجريمة سرًا كأنواع الزواج الباطل، أو جهرًا كما يفعله الفجار، إنه ﷺ يحذر ذلك كله، وتفاديه أمر ممكن، فلنحذره كما أمر الله، فلا خلوة، ولا خلاعة، وإنما الورع والحشمة، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم، ولا تخرج إلا لمصلحة، وتُرَاعَى كل شروط الأدب والوقار، مما يحافظ على الأعراض والأنساب، ويبعد الزنا عن الشابات والشباب.

لقد أخبر ﷺ أن الزنا سيكثر فتحقق ما أخبر به! وكثر الزنا! وكثر أولاد الزنا، وظهر شؤم هذا الذنب الخطير، والأحاديث لا زالت تذكرنا بالصراط السوى، فعلى الأمة أن تجتهد فى إبعاد هذه الفعلة الخسيسة عن أبنائها، وخير علاج لذلك هو اتباع الأخلاق الإسلامية مع العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة.

٤ ـ كثرة المخدرات: يحذرنا ﷺ آفة المخدرات، هذه التى تدمر العقل والأخلاق، إنها فعلة خبيثة حَرّمها الله فى كتابه الكريم، ونص رسول الله ﷺ على خطورتها وبشاعتها، وتحريم القليل منها والكثير، وفى الحديث الذى أشرحه هنا يبين أنه إن كثرت المخدرات وشاعت فإنها تدمر الأمة، وتكون علامة على انتهاء الحياة، ومن ثمّ فعلى الأمة أن تحافظ على أفرادها من المخدرات، والأفراد عليهم أن يتعاونوا على دفع هذه الآفة،

وأن يربئوا بأنفسهم عن هذا الذنب الذى يوقع فى كل الذنوب.

إن الإسلام يحرم المخدرات ويعمل للقضاء عليها قضاء تامًا، ومن هنا حرّم تعاطيها، وحرّم إنتاجها، وحرّم الاتجار فيها، وحرّم نقلها من مكان لآخر، وحرم كل ما يتسبب فيها سواء كان السبب بعيدًا أو قريبًا، قويًا أو ضعيفًا.

إن المخدرات قبل زماننا كانت تغيب عقل الإنسان بعض الوقت ثم يفيق، أما فى زماننا فأصبحت مواد مدمرة لمن يتعاطاها من أول مرة، إنها تدمر أهلها صحيًا وفكريًا، وتجعل منه شخصية فى غاية الإضرار بأمته وبنفسه، إنهم يسمونها «مخدرات» أو «مكيفات» خداعًا للناس، ويسمونها «منشطات» خداعًا للشباب بخاصة، وفى حقيقة الأمر هى سموم فى غاية الخطورة، وعلى الرغم من ادعاء البعض التقدم والتحضر إلا أن الأمم يحارب بعضها بعضًا بهذه الآفة، تدمر الأمم شباب واقتصاد بعضها بالمخدرات!!

وعلى الرغم من خطورة المخدرات الشديدة، والتى جعلت البعض ينادى بإبعادها عن الناس إلا أن الطائفة المستفيدة منها راحت تضغط ليُسْمح بترويجها!! وراحت تنشر ما يجعل الكثيرين يحرصون عليها، من ملابس مثيرة، وحركات خليعة، وأفلام الجنس، والزنا، والموسيقى!! وأهملت الدروس الدينية، وعمل كثيرون على التهوين من شأنها، وكثر الاستهزاء بصاحب الأخلاق، وصوّره كثيرون على أنه جامد متأخر، بينما صوّروا المدمن على أنه المتنور المتطور، وكل ذلك ساعد على كثرة المخدرات.

إن رسول الله ﷺ يخبر فى هذا الحديث وغيره أن المخدرات ستكثر، تؤذن بزوال الدنيا وخراب العالم، وفى هذا تحذير للأمة من هذه الفعلة

الشنعاء، ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فشاعت المخدرات وكثرت، وأضرت وأفسدت!! والعلاج سهل ميسور، فعودة الأمة إلى الإسلام كفيل بإبعادها عن المخدرات وغيرها، فلنوقف كل ما من شأنه الإضرار بالأخلاق والدين، ولنحرص على كل ما من شأنه طاعة الله سبحانه وتعالى، فحينما كان الصحابة على الطاعة، وجاء النهى عن الخمر تركوها تمامًا، وما كان يُتصور أن يحدث هذا اللهم إلا أن الطاعة قدرتهم على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2].

٥، ٦ - قلة الرجال وكثرة النساء: ويبين ﷺ أن الرجال سيقلون، والنساء سيكثرن حتى إن الرجل سيكون قيِّمًا على خمسين امرأة!! إن الله سبحانه يجعل الحياة على خير حال إذا استقامت الأمة أما إذا انحرفوا فإنه يضيق عليهم، ورسول الله ﷺ إذ يحذر الأمة هذا الاختلال إنما يدعونا إلى تلافى أسبابه وذلك بالبعد عن الاقتتال والحروب والبعد عن الذنوب والآثام، والاجتهاد فى الطاعة، فبذلك يرضى ربنا ويُصلح أحوالنا.

إنه ﷺ يخبر أن قلة الرجال ستكون وكثرة النساء ستحدث، ويتحقق ذلك فى زماننا، فلقد كثر النساء، وقل الزواج، وأصبحت الفتاة وأهلها يبحثون عن الرجل فلا يجدونه!! وكثرت الفتيات اللاتى تأخر زواجهن، أو انتهى عمر الزواج دون زواج، وكثرت بينهن الأمراض الخبيثة، والإسلام ينادى أن هذا جد خطير يؤذن بانتهاء الحياة، فلنتق الله ولنعد

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٩.

إلى الصراط السوى.

ومجمل القول: إن هذه الأمور من قلة العلم، وكثرة الجهل، وكثرة الزنا، وكثرة المخدرات، وقلة الرجال، وكثرة النساء، كل هذه أمور خطيرة، واختلال فى حياة الأمة، يخبر ﷺ أنها ستحدث فى آخر الزمان، وها هى قد بدأت فى الظهور، كما أخبر ﷺ!! وهو ﷺ إذ يخبر بذلك فإنما يحذرنا هذه الآفات، ويدعو الأمة لتركها والبعد عنها، ومن فضل الله تعالى أن تلافى هذه المخاطر ممكن، والسلامة منها ميسورة، وذلك بالالتزام بالإسلام.

● الدروس المستفادة:

* سعة علم رسول الله ﷺ الذى أنعم الله به عليه، فلقد أخبر عن أشياء ستحدث فحدثت كما أخبر.

* وجوب الحرص على تعلم العلم من قرآن وسنة، مع العلوم الأخرى الموصلة للفقه فى الدين.

* البعد عن الانحرافات بكل أشكالها، فنبتعد عن الجهل، وعن الزنا ومقدماته وأسبابه، وعن المخدرات وما يؤدى إليها، يبتعد الأفراد والجماعات والأمة، فهذا سبيل سعادة الأمة وسلامة الحياة.

* البعد عن الاقتتال والحروب والذنوب وكل ما من شأنه أن يقلل الرجال، فهذا أمر خطير على حياة الأمة يخل بتركيبتها الاجتماعية.

* السنة النبوية علم يراقب الأمة ويرشدها فى طول عمرها، أعلم اللهُ رسولَه ما سيكون، وأخبرنا ﷺ بما أوحاه الله إليه، وتحقق ما أخبرنا ﷺ به وفق ما أخبر، مما يعلم بثبوت السنة النبوية وصحتها.

* * *

الإخبار عن وجود محبى رسول الله ﷺ حبًا كحب الصحابة له أو أزيد

عن أبى هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتى لى حُبًا، نَاسٌ يَكُونُون بَعْدِى، يَودُّ أحَدُهُم لَوَ رآنى بِأهْلِه وماله»[1].

● **المعانى:**

«من أشد أمتى لى حبًا» أى إن كثيرين من أمته ﷺ يحبونه أشد الحب.

و«من أشد.....» خبر والمبتدأ «ناس» و«من» فى قوله ﷺ: «من أشد أمتى» «مِنْ» هذه للتبعيض، أى إن الذين يحبونه حبًا شديدًا بعضهم يحب رؤيته ﷺ أكثر من حبه أهله وماله.

«أمتى» أى أمة الإجابة، وهم الذين آمنوا به واتبعوه ﷺ، أما أمة الدعوة فهم كل البشرية منذ بعثته ﷺ إلى قيام الساعة.. وواضح أن أمة الإجابة جزء من أمة الدعوة.

«حُبًا» الحب: ميل القلب إلى المحبوب، وهو مراتب، فكلما اشتد ميل القلب اشتد الحب، وحب رسول الله ﷺ ميل القلب والإقبال على شخصه والدين الذى جاء به، والاعتزاز بذلك، والحرص على التزامه ونصرته. وهذا أصل حبه ﷺ، وهو عند كل المسلمين لكنه يزيد عند البعض فيصل إلى أعلى درجات الحب، وذلك بأن تصل هذه الصفات

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة باب فيمن يود رؤية النبى ﷺ بأهله وماله ٤/٢١٧٨، رقم ٢٨٣٢.

إلى الكمال، فيقبل المسلم على شخصه ﷺ ورسالته كل الإقبال، ويعتز برسول الله ﷺ وبالإسلام كل الاعتزاز، ويلتزم بهديه كل الالتزام، وينصر سنته ودينه كل النصرة.

«ناس» أى جماعات من الأمة، ثم وصفهم بصفتين:

١ ـ «يكونون بعدى» أى يوجدون بعد زمانه ﷺ.

٢ ـ «يود أحدهم لو رآنى بأهله وماله» أى إن الواحد منهم يحب رؤية رسول الله ﷺ بحيث لو استطاع تحصيل رؤيته ﷺ والثمن غالٍ جدًا حتى إنه يساوى ثمنًا لأهله وماله لقبل أن يدفع هذا الثمن وأنه يراه ﷺ كما جاء فى رواية الحاكم[1]: «إن ناسًا من أمتى يأتون بعدى يود أحدهم لو اشترى رؤيتى بأهله وماله».

وكما فى حديث أبى ذر: «أشد أمتى لى حبًا قوم يكونون ـ أو يخرجون ـ بعدى، يودُّ أحدهم أنه أَعْطَى أهلَه وماله وإنه يرانى»[2].

● راوى الحديث:

راوى الحديث عن رسول الله ﷺ هو أبو هريرة الصحابى الجليل، وترجمته تقدمت فى هذا الكتاب، فى باب: «الإخبار بغربة الإسلام»[3].

● الشرح:

وجوب محبته ﷺ:

أمة الإسلام تحب رسول الله إليها محمدًا ﷺ أعلى درجات الحب،

---

(١) فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة، باب فى ذكر فضائل التابعين ٤/ ٨٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥/٣٠٨، رقم ٢١٣٨٥، وقال محققه: حسن لغيره.

(٣) ج١ ص٧٤.

ذلك أن الله تبارك وتعالى جمع لرسوله ﷺ كل موجبات الحب:

* من كمال الخَلْق وعظمته.
* ونُبْل المعنى ونفاسته.
* وحُسْن الفعل واستقامته.
* ثم اصطفاه سبحانه نبيًا رسولاً، أوحى إليه الإسلام فبلغه أُمته.

فكان بذلك أجمل الخَلْق صورة، وأزكاهم نفسًا، وأرشدهم طريقًا، كان الدليل على كل خير، والداعى إلى كل معروف، يأخذ بيد البشرية إلى الكمال الإنسانى، ويعرفهم دين الله الإسلام الذى به السعادة كل السعادة.

ولقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تبين قدره، وتأمر بطاعته، وتوجب حبه:

* قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[1].

تبين الآيتان أن اتباعه ﷺ طريق حب الله ومغفرته سبحانه، ومن باب أولى فالله يحبه ﷺ كل الحب، وتدل الآيتان على أن طاعته من طاعة الله سبحانه، من أطاعه اهتدى، ومن أعرض عن طاعته كفر، وغضب الله عليه.

* ويقول سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٧.

يبين سبحانه أن من آمن بمحمد ﷺ ووقّره ونصره واتبع الإسلام الذى جاء به فهو من الفائزين. وهذا دليل على أن على الجميع أن يؤمن به، وأن يعرف قدره، وأن ينصر دينه.

* ويقول سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

إن مناط الهداية والرشاد إنما هو فى اتباعه ﷺ، فى الإيمان بالله واتباع شرع الله.

* ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[2].

* ويقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

تفيد الآيتان أن الهداية والرحمة فى طاعته ﷺ.

وهكذا تفيد الآيات أن الإيمان به ﷺ واتباعه فيما جاء به عن الله وطاعته ونصرة دينه هذا سبيل حب الله ورضوانه ورحمته، وطريق الهداية والرشاد، ومن هنا كان حبه، يحبه الإنسان لما عليه ﷺ من الهدى، ويحبه لحب الله له، وإعلاء الله سبحانه وتعالى قدره ﷺ.

* ويقول ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى»[4].

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٨.

(٢) سورة النور، من الآية: ٥٤.

(٣) سورة النور، من الآية: ٥٦.

(٤) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب أهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف ٣/ ١٥٠، وصححه =

إنه يجب علينا أن نحب الله سبحانه وتعالى لعظمته سبحانه، ولكثير نعمه علينا سبحانه، ولما كان الله تعالى يحبه ﷺ فوجب علينا أن نُحبه لحب الله، وأن نحب أهل بيته لحبه.

* ويقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

* ويقول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[2].

* وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى. فقال النبى ﷺ: «لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى. فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر»[3].

هكذا تفيد النصوص أن حبه ﷺ واجب، وأنه يكون أحب من كل شىء، حتى يكون أحب إلى المسلم من نفسه وأعزته.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

= ووافقه الذهبى، وأخرجه الترمذى فى المناقب، باب مناقب أهل بيت النبى ﷺ ١٠/٢٩٢، وقال: حسن غريب، وضعفه الألبانى بعبد الله بن سليمان النوفلى فى تخريجه فقه السيرة للغزالى، ولست معه فى هذا.

(١) أخرجه البخارى رقم ١٥، ومسلم رقم ٧٠.

(٢) أخرجه البخارى رقم ١٦، ومسلم رقم ٦٧، ٦٨.

(٣) أخرجه البخارى فى الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبى ﷺ ١١/٥٢٣، رقم ٦٦٣٢.

وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

وفى هذا حَضٌّ وتنبيه ودلالة وحجة على إلزام محبته ﷺ، ووجوب فرضها، وعظم قدرها، واستحقاقه ﷺ لها، إنه سبحانه وتعالى يوبِّخ من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله، ويتوعدهم سبحانه بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، أى فانتظروا عقاب الله فإنه آتٍ لا محالة، ثم بيّن سبحانه أن من فعل هذا - أحب شيئًا أكثر من الله ورسوله ونصرة الإسلام - فهو فاسق ضال محروم من الهداية، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وهكذا تبين النصوص أنه ﷺ الدالُّ على كل الخير، والهادى إلى الصراط المستقيم، وأن على الأمة أن تطيعه ليرحمها الله، ولتهتدى إلى دين الله، وأن تحب الله سبحانه وتعالى وتحب رسول الله، فهذا طريق الإيمان والرضوان، ومن حرم هذه المحبة حرم رضوان الله.

تبين النصوص أنه ﷺ يُحَبُّ لأن الله يُحِبُّه، ويُحَبُّ أعلى درجات الحب.

ومن هنا أحبه ﷺ أصحابه حبًا لم يحبه أحدٌ لأحدٍ.

• صور من حب الصحابة له ﷺ:

• أبو بكر الصديق:

كان أبو بكر الصديق يفدى رسول الله ﷺ بنفسه وماله، وضحى فى سبيل ذلك بكل شىء.

عن أسماء بنت أبى بكر أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعدوا فى المسجد

(١) سورة التوبة، آية: ٢٤.

يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول فى آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوا عن شىء صَدَّقهم فقالوا: ألست تقول كذا وكذا؟ فقال: «بلى» فتشبثوا به بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبى بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ قال: فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبى بكر فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[1].

رضى الله عن أبى بكر يفدى رسول الله ﷺ بنفسه، ويقف فى مواجهة المشركين وحده!!

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال: أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين. قال: أما إنى ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبرونى بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر رضى الله عنه، إنه كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس. فقال على: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجؤه[2]، وهذا يُتَلْتِلُه[3] وهم يقولون: أنت الذى جعلت

---

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده ج١ ص١٥٥ رقم ٣٢٤، وذكره فى المجمع ٦/١٦ عن أبى يعلى. وذكره فى الفتح عن البزار وأبى يعلى بإسناد حسن «الفتح» ٧/١٦٩، شرح حديث رقم ٣٨٥٦.

(٢) يطعنه.

(٣) يجذبه بعنف.

الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ثم رفع علىٌّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوننى؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل كتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[1].

هكذا حب أبى بكر لرسول الله ﷺ يقف وحده يحرسه من جيش الأعداء، وقبل ذلك يقف أمام المشركين جميعًا يدفعهم عنه ﷺ، إنه الحب الذى جعله يدفع نفسه فداء لرسول الله ﷺ.

وعن محمد بن سيرين قال: ذكر[2] رجال على عهد عمر رضى الله عنه فكأنهم فضلوا عمر على أبى بكر رضى الله عنهما، قال: فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه، فقال: والله لليلة من أبى بكر خيره من آل عمر وليوم من أبى بكر خير من آل عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى؟ فقال: يا رسول الله أذكر الطلب[3] فأمشى خلفك، ثم أذكر الرَّصَد[4] فأمشى بين يديك. فقال: يا أبا بكر لو كان شىء أحببتَ أن يكون بك دونى؟ قال: نعم، والذى بعثك بالحق ما كانت

---

(١) أخرجه البزار كشف الأستار ٣/ ١٦١، ٢٤٨١، وذكره فى الفتح فى الموطن السابق.
(٢) تحدث.
(٣) سعى المشركين خلفك لقتلك.
(٤) انتظار المشركين فى الطريق لقتلك.

لتكون من مُلِمَّة[1] إلا أن تكون بى دونك. فلما انتهيا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبراه، حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة. فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الحجرة، فدخل واستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل. فقال عمر: والذى نفسى بيده لتلك الليلة خير من آل عمر[2].

وهذه صورة أخرى لحب أبى بكر رسول الله ﷺ، يفديه بنفسه، يرقب الطريق خلفه وأمامه.

وينزل الغار قبله خشية أن يكون فيه وحش يؤذى رسول الله، يقدم أبو بكر نفسه فداء لرسول الله ﷺ.

ولقد بيّن رسول الله ﷺ هذه الميزة لأبى بكر الصديق، فقال ﷺ: «إن أَمَنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر»[3].

• عمر بن الخطاب:

وكان عمر بن الخطاب من المحبين لرسول الله ﷺ عظيم الحب، دافع عنه كثيراً، وحمى حماه طويلاً، وعن عبد الله بن هشام، قال: كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبُّ إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى، فقال النبى ﷺ: «لا، والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر:

(١) نازلة من نوازل الدنيا.

(٢) أخرجه الحاكم فى الهجرة باب ذكر عمر بعض فضائل أبى بكر ٦/٣، وهو صحيح مرسل. وذكره الحافظ فى الفتح فى شرح حديث رقم ٣٩٠٥ ج٧ ص٢٣٧، نقلاً عن البيهقى فى دلائل النبوة.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٤٤٦.

فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى. فقال النبى ﷺ: «الآن يا عمر»[1].

أجاب عمر أولاً بحسب الطبع، فالإنسان يحب نفسه بالطبع، أما حب الغير فبالاختيار بتوسط الأسباب فلما بين رسول الله ﷺ أنه لا بد من أن يحب رسول الله أكثر من نفسه، فكّر عمر فعرف أن النبى ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب فى نجاتها من المهلكات فى الدنيا والآخرة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال ﷺ: «الآن يا عمر» الآن عرفت حقيقة أمرك، وأنك تحب رسول الله أكثر من نفسك، وهذا هو الإيمان.

• **عمرو بن العاص:** تحدث عن نفسه فقال: ما كان أحد أحبَّ إلىَّ من رسول الله ﷺ[2].

• **على بن أبى طالب:** قيل له: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ[3].

• **عجوز تتوق إلى رؤيته ﷺ:** عن زيد بن أسلم، قال: خرج عمر رضى الله عنه ليلة يحرس الناس، فرأى مصباحًا فى بيت، وإذا عجوز تنفش صوفًا، وتقول:

على محمـــد صلاة الأبرار ... صلى عليـه الطيبون الأخيار

قد كنتَ قَوّامًا بُكًا بالأسحار ... يا ليت شعرى والمنايا أطوار

هــل تجمعنِّى وحبيبى الدار

(1) أخرجه البخارى 11/523، رقم 6632.

(2) أخرجه مسلم.

(3) الشفا ج2 ص568.

تعنى بالحبيب النبى ﷺ، فجلس عمر رضى الله عنه يبكى[١].

● **المرأة الدينارية**: ولم يكن حب رسول الله ﷺ خاصًا بالرجال، وإنما شاركهم النساء، فلقد مرّ ﷺ يوم أحد بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل. أى صغيرة[٢].

● **امرأة أخرى**: وجاءت امرأة إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وقالت لها اكشفى لى قبر رسول الله ﷺ، فكشفته لها، فبكت حتى ماتت[٣].

● **بلال بن رباح**: لما حضرته الوفاة نادت امرأته: واحزناه. فقال: واطرباه[٤] غدًا ألقى الأحبة محمدًا وحزبه[٥]. أى وصحابته.

● **زيد بن الدَّثِنَة**: غدر المشركون من أهل عضل والقارة به وبمن معه من الصحابة، وباعوه لصفوان بن أمية بمكة، اشتراه ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذى قتل فى بدر، ولما خرجوا بزيد من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه،

(١) الشفا ج٢ ص٥٦٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٩٩ عن ابن إسحاق بإسناده، ومن طريقه أخرجه البيهقى فى الدلائل ٣/٣٠٢.

(٣) الشفا ٢/ ٥٧٠.

(٤) الطرب: خفة تعترى الإنسان لحزن أو سرور، والمراد هنا الثانى.

(٥) الشفا ٢/٥٦٩.

وأنك فى أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً(١).

هذه صور من حب الصحابة رسول الله ﷺ يتضح منها أنهم أحبوه أكثر من أنفسهم ومن كل شىء.

ولقد استمر الحب فيهم بعد وفاته ﷺ، كما فى قصة الصحابية التى طلبت من أم المؤمنين عائشة أن تكشف لها عن قبره فبكت حتى ماتت، وكما فى قصة بلال وهو يحتضر ويردد: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه، وهذا مروى عن بلال وغيره.

ومن هنا يقول ﷺ: «ليأتين على أحدكم زمان لأن يرانى أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله»(٢). يبين ﷺ حال الصحابة بعده وأنهم سوف يشتد بهم الشوق إلى رؤيته بعد موته، حتى إن أحدهم يود رؤيته بمثل أهله وماله.

ولقد كان هـذا الحـال من شدة حبهم معلومًا لديهم، فشكوه إلى رسول الله ﷺ فى حياته، فنزل الوحى يطمئنهم، وأن الله سبحانه سيمن عليهم برفقته فى الجنة:

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إلىَّ من نفسى وإنك لأحب إلى من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك فعرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وأنى إذا

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ١٧٢، ودلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٣٢٦.
(٢) أخرجه البخارى ٦/ ٦٠٤، رقم ٣٥٨٩.

دخلت الجنة خشيتُ أن لا أراك، فلم يرد عليه النبىُّ ﷺ شيئًا حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[1].

• دوام حبه ﷺ فى الأمة:

وإذا كانت الأمور السابقة تفيد عظيم حب الصحابة له ﷺ، فإن النصوص والواقع تفيد دوام حبه ﷺ فى الأمة، وأن هذا الحب الشديد سيكون فى كل أجيال الأمة، وشاهد ذلك:

* الحديث الذى نحن بصدد شرحه:

«مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِى لِى حُبًّا نَاسٌ يكُونُون بَعْدِى، يَوَدُّ أحَدُهُم لَوْ رآنى بِأهْلِه وماله».

إنه ﷺ يبين أن حبه مستمر فى أمته، وأن من الأجيال التى تأتى بعده ناسًا يحبونه أشد الحب، حتى إن الواحد منهم يود رؤيته بأغلى الأشياء عنده.

* وحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أمتى مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أولُه خير أو آخره»[2] أى إن الخير فى كل أجيال الأمة،

---

(١) الآية من سورة النساء رقم ٦٩، والحديث أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط، قال فى مجمع الزوائد ٧/٧: ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدى وهو ثقة، وأخرجه فى المختارة، وفى الحلية كذا فى الدر ٢/ ١٨٢.

(٢) أخرجه أحمد ١٩/ ٤٤٥ رقم ١٢٤٦١، وتقدم ١٩/ ٣٣٤ رقم ١٢٣٢٧، بلفظ: «إن مثل أمتى..» وقال محققه: حديث قوى بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، وأخرجه الترمذى فى الأمثال باب بعد باب مثل الصلوات الخمس ٨/ ١٧٠، وقال: حسن غريب، ونقل شارحه أن الحافظ ابن حجر، قال: حديث حسن له طرق قد يرتقى بها إلى الصحة، وهو كذلك فى الفتح ٦/٧ شرح حديث رقم ٣٦٥٠.

فلئن كان فى السابقين علم وكثير عبادة، ففى المعاصرين علم وعبادة ومقاومة للفتن، وكل جيل يخدم الدين حسب مقتضيات وقته، ومصدر ذلك حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ.

* وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أناسًا من أمتى يأتون بعدى، يود أحدهم لو اشترى رؤيتى بأهله وماله»[1].

تفيد هذه الأحاديث ـ وغيرها كثير ـ: أن حب رسول الله موجود فى كل أجيال الأمة، وأنه عند الكثيرين على أشد ما يكون، أولئك الذين ساروا على سنته، واقتفوا أثره، وتأدبوا بأدب الوحى من قرآن وسنة، أولئك قد يكون حبهم كحب عوام الصحابة أو أكثر، حتى إن ابن حبان يضع عنوان الحديث الذى نحن بصدد شرحه هكذا:

«ذكر البيان بأن من قد آمن بالمصطفى ولم يره قد يكون أشد حبًا له من أقوام رأوه وصحبوه»[2].

إن طائفة من الأمة اجتهدت فى تعلم الإسلام، والعمل به، واجتهدت فى نصرته، وتفانت فى تبليغه، يحبون الحق فيحبون الله ورسوله ودينه، هؤلاء يحبون رسول الله أكثر من كل شىء، رضى الله عنهم وأرضاهم، وهؤلاء بحمد الله فى كل جيل.

وحب رسول الله ﷺ صفة تعم المسلمين من الإنس والجن، ويزيد أن بعض غير المسلمين يحبونه أيضًا وسجلت النصوص أن المخلوقات تحبه، فحن الجذع إليه لما فارقه، واشتكت إليه البهائم، وأطاعته الوحوش، وكلمه الحجر، وهذا باب لو فتحته طال البحث، فحسبى هذه الإشارة.

(١) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب فى ذكر فضائل التابعين ٤/ ٨٥ وصححه.
(٢) صحيح ابن حبان ١٦/ ٢١٤.

• طريق محبته ﷺ:

طريق محبة رسول الله ﷺ التفكر فى صفاته ﷺ الخَلْقية والخُلُقية، وما ساق الله على يديه من خير للبشرية.

* فمن تفكر فى جمال ذاته ﷺ وأن الله سبحانه وتعالى جَمّله، وكمّله، فكان أجمل الناس فى طوله، وأجمل الناس فى لونه، وأقوى الناس فى بدنه، وأقوى الناس فى حواسه، وأطيب الطيب عرقه.

* ومن تفكر فى جمال معناه وأنه أفصح الفصحاء لسانًا، وأبلغ الخلق بيانًا، وأنه أشجع الناس، وأكرم الناس، وأنه أسد الناس رأيًا، وأنبلهم فكرًا، وأرجحهم عقلاً، وأوفرهم علمًا، علمه الله من لدنه، وأرسله بالدين العظيم، كان بأمته رءوفًا رحيمًا، وبالناس حليمًا كريمًا، أقوى الخلق يقينًا بالله، وأقوى الناس توكلاً على الله، جَمّله الله بكل زين، وعصمه من كل شين، جاء بالإسلام فكان أقوى الأمة به التزامًا، وجاء بالقرآن فكان أعظم الناس به قيامًا، لم يرد الدنيا ومتاعها، وإنما نُصب له هدف فهو يسعى إليه، ألا وهو رضوان الله وطاعته.

* ومن تفكر فيما أسدى إلى البشرية من إحسان، وأنه أخرج البشرية من ظلمات الكفر والعماية إلى نور التوحيد والعناية، عَرّفَنا توحيد الله وكيف نعبد الله، عَرّفنا الأخلاق الكريمة، والفعال العظيمة، به عَرَفْنا الدين القويم، والصراط المستقيم، عَرَفْنا طريق رضوان الله فى الدنيا والآخرة.

• إن من فكر فى هذه الأمور أحب رسول الله ﷺ كل الحب، فهو الجميل فى ذاته ومبناه، وفى صفاته ومعناه، ساق الله على يديه الكثير من الخيرات، وأرسله رحمة لكل المخلوقات، إن من عرف شمائله

وهديه، وفضائله، وتفكر فى ذلك طويلاً أحبه أعظم الحب وأشده، وأقواه وأسده، فاتبعه بصدق، ونصر دينه بحق، فكان عليه من الله الرضوان.

• مستلزمات حبه ﷺ:

المسلمون يحبون رسول الله من قلوبهم، لكن عليهم أن يعلموا أن هذا الحب له أمور تلزمه، إذا وُجدت هذه الأمور كان الحب صادقًا ومثمرًا، وهذه الأمور هى:

١ـ حب الإسلام: الذى بعث الله به رسوله ﷺ، وقال الله فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1]، وحب الإسلام يكون بتعلمه، وتفهم عظمته، والعمل به، ودعوة الناس إليه، والاجتهاد فى ذلك وسع الطاعة، وأيضًا بنصرة هذا الدين مهما كلف ذلك المسلم.

٢ـ حب القرآن الكريم: الكتاب الذى أوحاه الله إلى رسوله، والذى هو أساس الإسلام ومصدره. فمن حب الله تعالى وحب رسول الله ﷺ أن نحب القرآن الذى مَنَّ الله به علينا، وأرسل محمدًا ﷺ به، وحب القرآن يكون بتعلمه، وفهمه، والعمل به، وتعليمه، يجتهد فى ذلك المسلم كل الاجتهاد.

٣ـ الاقتداء به ﷺ: فمن أحب رسول الله ﷺ بعاطفته، فمال قلبه إليه، عليه أن يتبعه ﷺ فى كل ما جاء به، فيتعلم سنته، ويعمل بها محترزًا من مخالفتها، محتاطًا من الابتداع، ويعلمها الناس، يبذل فى ذلك جهده ما استطاع.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢].

وآيات كثيرة تأمر باتباع سنته ﷺ[٣]، وأيضًا أحاديث كثيرة، ولقد فهم السلف ذلك، فساروا عليه:

* يقول أبو بكر الصديق: لستُ تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ[٤].

* ويقول ابن شهاب الزهرى[٥]: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضًا سريعًا، فنعش العلم[٦] ثبات الدين والدنيا، وفى ذهاب العلم ذهاب ذلك كله[٧].

* ويقول الإمام أحمد بن حنبل: كنت يومًا مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء[٨]، فاستعملت الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»[٩] ولم أتجرد، فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لى: يا أحمد

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) راجع كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» ص٧٧، باب: وجوب العمل بالسنة النبوية.

(٤) أخرجه البخارى فى فرض الخمس الباب الأول منه ٦/١٩٧ رقم ٣٠٩٣ ضمن حديث طويل.

(٥) عاش فى الفترة من ٥١هـ إلى ١٢٤هـ، وهو من كبار علماء الإسلام.

(٦) إشاعته وإذاعته.

(٧) أخرجه الدارمى فى مقدمة سننه باب اتباع السنة ١/٤٤ رقم ٩٧.

(٨) أى الحمام الذى هو بيت الماء الساخن، يدخلونه لعلاج بعض الأمراض.

(٩) أخرجه الترمذى فى الأدب، باب ما جاء فى دخول الحمام ٨/٨٥، وحسنه، والحاكم فى الأدب باب: لا تجلسوا على مائدة يدار عليها الخمر ٤/٢٨٨، وصححه ووافقه الذهبى.

أبشر، فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة، وجعلك إمامًا يُقتدى بك، قلت: من أنت؟ قال: جبريل[١].

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم، قال الله عز وجل: ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟

فقال إبراهيم: من أجل خمسة أشياء.

قال الرجل: وما هى؟

قال إبراهيم: عرفتم الله فلم تؤدوا حقه.

وقرأتم القرآن فلم تعملوا به.

وقلتم نحب رسول الله وتركتم سنته.

وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه.

والخامسة: تركتم عيوبكم، وأخذتم فى عيوب الناس[٢].

إن الاقتداء به هو المسلك المتبع عند أجيال الأمة المحبين.

يقول أنس بن مالك: إنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلانًا وفلانًا، إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمت الخمر. قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها، ولا راجعوها بعد خبر الرجل[٣].

ويقول أبو أسيد الأنصارى: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج

---

(١) إحياء السنة لابن فودى ص٦١.

(٢) ذكره ابن عبد البر فى جامع بيان العلم، باب: جامع القول فى العمل بالعلم ٦٩١/١ رقم ١٢٢٠، وراجع «المدخل إلى السنة النبوية»، باب هدى السلف فى اتباع السنة ص٢٣٥.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٤٦١٧.

من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق فقال رسول الله ﷺ: «اسْتأخِرْن فإنه ليس لَكُنَّ أن تَحْقُقْنَ الطريق، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطريق، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به»(١).

إنه ما أن جاء الوحى بتحريم الخمر إلا امتثلوا، وما أن طُلب من النساء ألا يزاحمن الرجال فى الطريق إلا ابتعدن، وسرن فى حافة الطريق، وهكذا كان السمع والطاعة والاقتداء.

٤ـ الدفاع عن الشريعة: فمن أحب رسول الله ﷺ لزمه:

الدفاع عن الإسلام وعن القرآن وعن السنة، وعن أى حكم من أحكام هذا الدين، يدافع عن علم لا عن جهل، يقيم الحجة ليقتنع طلاب الحق، ويُفنِّد الشبهة ليردع المعادين والمعاندين، ولتظل الساحة بيضاء أمام المنصفين.

*** إن أحباب رسول الله ﷺ عليهم أن يحافظوا على سيرته ﷺ فيعلنوها، ويدفعوا الافتراء عليها، وعليهم أن يعملوا على معرفة فضائله ﷺ وما مَنَّ الله به عليه، وإشاعة ذلك، فهذا من مستلزمات حبه ﷺ.**

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾(٢).

٥ ـ إيثار هديه على هوى الشخص: فالمسلم يقدم هَدْى رسول الله ﷺ فيتبعه، يقدمه على هوى نفسه، ويمعن فى ذلك حتى يصبح هواه هو ما

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب باب مشى النساء مع الرجال فى الطريق ١٤/ ١٩٠.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٠، ٤١.

جاء به المصطفى ﷺ.

* يقول الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١) كلفنا ربنا سبحانه أن نبحث عن حكمه ﷺ وأن نرضى به كل الرضا.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾(٢). ليس لنا إلا أن نتبع هديه ﷺ، وليس لنا أن نعصاه فالمعصية ضلال واضح.

ويقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٣).

٦ـ **معرفة قدره ﷺ**: وذلك يكون بدراسة آيات القرآن التى وردت فى حقه، ودراسة السنة والسيرة، ليعرف المنزلة التى أنزله الله إياها، فإذا عرف:

* أن الله تعالى لم يخاطبه ﷺ باسمه، وإنما باللقب، فليس فى القرآن: «يا محمد»، وإنما فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات. وقد صححه النووى فى آخر الأربعين. هكذا قال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٢٨٩/١٣. شرح حديث رقم ٧٣٠٨. وذكره النووى فى الأربعين وقال: حسن صحيح رُوِّيناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح (حديث رقم ٤١) قلت ـ عبد المهدى ـ: الحديث الذى أخرجه الحسن بن سفيان وقواه ابن حجر حديث أبى هريرة. أما الحديث الذى ذكره النووى عن الحجة فعن عبد الله بن عمرو أخرجه فى الحجة ١/٢٦٩ رقم ١٠٣ وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/٤٦ رقم ١٥ وفيه كثير من تخريجه وكذا فى جامع العلوم تحقيق د/ الأحمدى أبو النور ٣/ ١١٤٥.

* وأقسم سبحانه وتعالى بحياته ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[1]، ولم يقسم سبحانه بحياة أحد من خلقه سواه ﷺ.

* وغفر سبحانه وتعالى له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وليس ذلك لغيره ﷺ، حتى إن الأنبياء يوم القيامة يُحيلون الشفاعة عليه بسبب هذه المغفرة.

* قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[2].

* وزكاه ربنا سبحانه فى كثير من آياته:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[3]، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[4]، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[5]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[6]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[7].

* وأيده ربنا سبحانه بالعديد من المعجزات، وأعظمها القرآن الكريم، الذى تكفل سبحانه بجمعه فى صدره، وبيانه له: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[8]، وقال ﷺ: «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى

---

(١) سورة الحجر، آية: ٧٢.
(٢) سورة الفتح، آية: ١ ـ ٣.
(٣) سورة النجم، آية: ٣، ٤.
(٤) سورة النجم، آية: ١١.
(٥) سورة النجم، آية: ١٧.
(٦) سورة القلم، آية: ٤.
(٧) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.
(٨) سورة القيامة، آية: ١٧ ـ ١٩.

أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[١].

* وقدمه ربنا على سائر النبيين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[٢]، فبدأ به ﷺ.

* وأكرمه الله فى شخصه وفى أمته فقال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٤]، وعسى من الله للتحقيق.

* وعصمه الله من أعدائه، فلم يَخْلُص إليه أحد بعد ذلك بأذى، وحفظ أمته فلا تهلك بما أهلكت به الأمم السابقة من غرق، أو حرق، أو قحط، أو عدو، وعصمها فى دينها فلا تنقلب إلى الكفر بالكلية، ولا تجتمع على ضلالة، وإنما ستظل فى مجموعها على الحق، منصورة مؤيدة من الله إلى قيام الساعة[٥].

وهذا قليل من كثير، فهذا موضوع تكتب فيه مجلدات، أردت أن أشير فقط، ومن أحبه درس سيرته وسنته فعرف قدره فازداد له حبًا.

٧- كثرة الصلاة والتسليم عليه ﷺ: فَرْضٌ على المسلم أن يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمدًا رسول الله، وفَرْضٌ عليه أن يصلى ويسلم على رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٦]، فالله تبارك وتعالى يصلى عليه،

(١) أخرجه البخارى ج٩ ص٣، رقم ٤٩٨١.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧.
(٣) سورة الضحى، آية: ٥.
(٤) سورة الإسراء، آية: ٧٩.
(٥) للقاضى عياض كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ» وهو عظيم الفائدة فى هذا الباب.
(٦) سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

أى يزيد فى قدره ويعليه، والملائكة يصلون عليه، أى يسألون الله له مزيدًا من الرفعة والإكرام، والمسلمون يصلون عليه أى يسألون الله له ﷺ المزيد من الرفعة والإكرام.

وفى الحديث: «سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»[1].

إن الله يأمرنا بالصلاة والسلام عليه ﷺ، مبينًا أنه سبحانه وتعالى يصلى عليه والملائكة أيضًا يصلون عليه، فحق على المسلمين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليمًا، وشرف وكرامة لهم أن يصلوا على رسول الله الذى يصلى عليه الله سبحانه وتعالى.

والصلاة على رسول الله ﷺ يقصد بها تأدية شىء من حق رسول الله علينا، ويُتَقَرّب بها إلى الله تعالى، إذ نمتثل أمره سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وحينما يقول المسلم: «اللهم صَلِّ على رسولك» فهى بدل قوله: «أصلى على رسول الله» ذلك أن المسلم ليس بوسعه أن يزيد رسول الله رفعة وإعظامًا، وإنما الله هو سبحانه القادر على ذلك، فأرشدنا الله ـ لما علم من عجزنا عن ذلك ـ أن نسأل الله أن يصلى عليه، أى يزيده ثناء عليه وإكرامًا[2]، فنقول: «اللهم صلِّ عليه»، يعنى يا رب زده رفعة وكمالاً.

والله يصلى عليه كما فى الآية، وإنما المسلم يطلب المزيد له ﷺ،

---

(١) أخرجه مسلم فى الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن ١/٢٨٨ رقم ١١/ ٣٨٤، وسيأتى بتمامه إن شاء الله تعالى.

(٢) نقله فى فتح البارى ١١/١٦٨ فى شرح حديث ٦٣٥٨.

ويمتثل الأمر الوارد فى الآية.

وصِيَغُ الصلاة والسلام عليه ﷺ كثيرة، فكل ما أفاد الصلاة عليه فهو مشروع، فمن قال: اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه. فهو مثاب.

ومن قال: اللهم صلِّ عليه. فهو مثاب.

ومن قالها بصيغة الخبر: «صلى الله على نبيه» أو «الصلاة على رسول الله» فهو مثاب.

وكلما كان فى الصيغة لفظ الجلالة «الله» أو «اللهم» وفيها تلقيبه ﷺ بـ «النبى» أو «الرسول» أو «رسول الله» كلما كانت هكذا فهى أفضل، فبدل أن تقول «الصلاة والسلام على محمد»، قل: «اللهم صلِّ وسلم على رسول الله»، أو «اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد».

وكل لفظ فيه الصلاة عليه فهو عبادة، وقائله مثاب، إلا أنه كلما كان أجمع كان أنفع.

ولقد اجتهد السلف فى ذلك، فأكثروا من الصلاة والسلام عليه ﷺ بصيغ أخذوها من الآيات والأحاديث[1].

وأفضلها ما علمه ﷺ أصحابه:

فعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: لقينى كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدى لك هدية؟ إن النبى ﷺ خرج علينا فقلنا: يا رسول الله! قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد،

(١) راجع القول البديع ص١٢٥.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[١]. وهذه صيغة الصلاة عليه فى الصلاة، وذلك لأنها أفضلها، أما صيغة السلام عليه فهى معروفة فى التشهد: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته».

وقد جاءت أحاديث تبين فضل الصلاة والسلام عليه ﷺ، منها:

* حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلَّى علىَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»[٢].

* وحديث أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علىَّ»، قالوا: وكيف تُعْرَض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: «إن الله جل وعلا حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا»[٣] و«أرمت» أى تحللت.

* وحديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علىَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا»[٤].

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات، باب الصلاة على النبى ﷺ ١١/ ١٥٢ رقم ٦٣٥٧، وأخرجه مسلم فى الصلاة باب الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد ١/ ٣٠٥، رقم ٦٦/ ٤٠٦.

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن ١/ ٢٨٨ رقم ١١/ ٣٨٤، وتقدم بعضه.

(٣) أخرجه ابن حبان ٣/ ١٩٠، ١٩١ رقم ٩١٠، وفيه تخريجه من كثير من المصادر.

(٤) أخرجه مسلم فى الصلاة باب الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد ١/ ٣٠٦ رقم ٧٠/ ٤٠٨.

* وحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحُطَّت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات»[١].

* وحديث أبى طلحة الأنصارى أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى تُرى فى وجهه، فقلنا: يا رسول الله! إنا لنرى البشرى فى وجهك، فقال: «إنه أتانى الملك فقال: يا محمد إن ربك يقول أما ترضى ما أحد من أمتك صلى عليك إلا صليت عليه عشر صلوات، ولا سلم عليك أحد من أمتك إلا رددت عليه عشر مرات؟ فقلت: بلى»[٢].

* وحديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»[٣]، وأفاد ابن حبان فى صحيحه أن المعنى أن من أكثر من الصلاة على رسول الله فى الدنيا كان أقرب الناس إليه ﷺ فى القيامة، وطلاب الحديث أكثر الناس عليه صلاة فهنيئًا لهم.

* وحديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل فى دعائه: اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك، وصل على المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، فإنها زكاة»[٤].

---

(١) أخرجه النسائى فى السهو باب الفضل فى الصلاة على النبى ﷺ ٣/ ٤٣، قال الحافظ فى «الفتح» ١١/ ١٦٧، شرح حديث ٦٣٥٨: رواته ثقات، وقال محقق جامع الأصول ٤/ ٤٠٥ رقم ٢٤٧٤: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الحاكم فى التفسير باب فضائل الصلاة على النبى ﷺ ٢/ ٤٢٠، وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه ابن حبان ٣/ ١٩٢ رقم ٩١١.

(٤) أخرجه ابن حبان ٣/ ١٨٥ رقم ٩٠٣ وصححه، وحسنه الترمذى، وحسنه الهيثمى من مسند أبى يعلى ٢/ ٥٢٩ رقم ١٣٩٧، كذا فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٧.

* وحديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام»(١).

وواضح من هذه الأحاديث أن الصلاة والسلام عليه عظيمة البركة:

- يصلى الله على قائلها أى يرحمه ويرضى عنه، يصلى عليه مرات!! وأعظم بهذه فائدة وخيراً.

- وتعرض على رسول الله ﷺ، فيرضى بذلك، فيشفع لقائلها، ويدعو له.

- ويبلغها الملك إلى رسول الله ﷺ مما يدل على عظمتها.

- وقائلها أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ فى القيامة، فيشرب ويسعد.

- وهى تقوم مقام الصدقة، فعليها العظيم من الأجر، وهى خير على قائلها فى دنياه وأخراه.

وجاءت أحاديث أخرى تحذر من ترك الصلاة والسلام عليه ﷺ، منها:

* حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم فى مجلس، فتفرقوا من غير ذكر الله والصلاة على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»(٢).

* وحديث الحسين بن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ قال: «إن البخيل من ذُكِرْتُ عنده فَلَم يُصَلِّ عَلَيَّ»(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان ٣/ ١٩٥ رقم ٩١٤، والحاكم ٢/ ٤٢١.

(٢) أخرجه ابن حبان ٢/ ٣٥١ رقم ٥٩٠، وأخرجه الحاكم ١/ ٤٩١ وصححه، وأخرجه أحمد ٢/ ٥٢٧ وغيرهم كما فى ابن حبان.

(٣) أخرجه ابن حبان ٣/ ١٨٩، ١٩٠ رقم ٩٠٩، وأخرجه الترمذى عن الحسين بن على عن أبيه على بن أبى طالب، وقال: حسن غريب صحيح.

* وحديث أبى هريرة أن النبى ﷺ صعد المنبر فقال: آمين، آمين، آمين. قيل: يا رسول الله إنك حين صعدت المنبر قلت: آمين، آمين، آمين. قال: «إن جبريل أتانى فقال: مَنْ أدرك شهر رمضان ولم يُغْفَر له فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين. فقلت: آمين. ومَنْ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين. فقلت: آمين. ومَنْ ذُكِرْتَ عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين»[1].

* وحديث أبى هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنْفُ رَجُلٍ[2] ذُكِرْتُ عنده فلم يصل علىَّ. ورغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر فلم يُدخلاه الجنة، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له»[3].

تفيد هذه الأحاديث أن الصلاة عليه ﷺ واجبة فى كل مجلس، وواجبة على مَنْ سمع اسمه، أو ذكر اسمه أو لقبه ﷺ، ومن لم يفعل فقد حرم نفسه خيرًا كثيرًا، يتحسر عليه عندما تعرض عليه أعماله، وأمر آخر وهو عجيب جدًا وهو أن من ترك الصلاة والسلام عليه ﷺ فقد عرض نفسه لاحتمال أن يكون من أهل النار، ومن أهل الضلال، نعوذ بالله من النار ومن الضلال، ونسأل الله أن يجعلنا من عباده الصالحين، المقتدين به ﷺ، والمكثرين من الصلاة والسلام عليه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

---

(١) أخرجه ابن حبان ٣/١٨٨ رقم ٩٠٧.

(٢) أى لصق أنفه بالرغام وهو التراب، والمراد: وقع فى الذل، وعجز عن الاستقامة.

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ٣/١٨٩ رقم ٩٠٨، وأخرجه الترمذى فى الدعوات باب رقم ١٠٠ حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى ٩/ ٥٣٠.

٨ـ **تعظيمه ﷺ**: فمن مستلزمات حبه ﷺ أن يعظمه المسلم، فتعظيمه ﷺ واجب على كل مسلم، سواء ذلك فى حياته ﷺ أو بعد موته، قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)] ومعنى ﴿عَزَّرُوهُ﴾ وقروه وأجلوه، يقول أبو إبراهيم التُّجيبى: واجب على كل مؤمن متى ذَكَره، أو ذُكِر عنده أن يخضع ويخشع، ويظهر الوقار والسكينة والإجلال كما لو كان بين يديه ﷺ[(٢)].

وحدثت مناظرة بين الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور وبين الإمام مالك، فقال الإمام مالك للخليفة: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد:

فإن الله تعالى أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[(٣)].

* ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)].

* وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(٥)].

وإن حرمته ـ أى مكانته ـ ميتًا كحرمته حيًا.

فخضع الخليفة المنصور لمقالة مالك[(٦)].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.
(٢) الشفا ص٥٩٥ بتصرف.
(٣) سورة الحجرات، آية: ٢.
(٤) سورة الحجرات، آية: ٣.
(٥) سورة الحجرات، آية: ٤.
(٦) الشفا ص٥٩٥، ٥٩٦.

وكان أيوب السختيانى إذا سمع اسم النبى ﷺ بكى حتى يُشْفِق عليه الحاضرون.

وجاء رجل إلى سعيد بن المسيب فسأله عن حديث وهو مضطجع فجلس وحدثه، فقال له الرجل: وددت لو أنك لم تتكلف الجلوس، فقال: إنى كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وقال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغته عقرب، فظل يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما فرغ من المجلس، قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجبًا، قال: نعم، لدغتنى عقرب ست عشرة مرة، وأنا صابر فى جميع ذلك، وإنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

إن من يحب رسول الله ﷺ يجب عليه أن يعظمه بالتأدب عند ذكر اسمه، وسماع حديثه، يتأدب بما أدبنا الله فى كتابه، وبما أدبنا رسول الله ﷺ فى سنته، وبما تأدب به السلف الصالح معه فى حياته، وبعد مماته، ومع حديثه وسنته، ومع أهل بيته وسيرته.

٩ ـ النصح له ﷺ وللأمة: من مستلزمات محبته ﷺ أن يكون المسلم مخلصًا صادقًا مع رسول الله ﷺ، ومع الدين الذى جاء به، ومع أمته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٩١.

أى لا إثم على الضعفاء والمرضى والفقراء إذا لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ لنصرة دين الله، لا إثم عليهم إذا نصحوا لله ورسوله، أى إذا أخلصوا الإيمان بالله وبرسوله، وأخلصوا القول والعمل، وهم بالنصح محسنون لا إثم عليهم بل لهم الأجر.

ويقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

وعن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ علىٰ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[2].

وهكذا فالنصح واجب على كل مسلم لله ولكتاب الله، ولرسول الله، ولأئمة المسلمين، ولعامة المسلمين.

أما النصيحة لله سبحانه وتعالى فتكون بصحة الاعتقاد بوحدانيته سبحانه، ووصفه بما هو أهله، مما جاء فى القرآن والسنة، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة فى طاعته، والبعد عن معصيته، والصدق فى عبادته، ونصرة دينه. إنها تكون بدراسة العقيدة؛ بسماع دروس فيها، وقراءة كتبها.

والنصيحة لكتاب الله «القرآن الكريم» تكون بالإيمان به، وأنه كلام الله، وأنه الكفيل بإسعاد الأمة فى الدنيا والآخرة، وبتلاوته على الوجه الثابت عن العلماء، وتفهمه حسب أصول التفسير، وما ثبت عن رسول الله ﷺ فى بيانه، وما ورد عن أئمة الأمة، والعمل به، وتعليمه، ودراسة علوم القرآن.

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ٧٤ رقم ٩٥/ ٥٥.

(٢) أخرجه مسلم فى الموطن السابق ص٧٥، رقم ٩٧/ ٥٦.

والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بالتصديق بنبوته، والاقتداء به فيما فعل فنفعل، وفيما ترك فنترك، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والدفاع عنها ونشرها والعمل بها، وذلك يكون بدراسة السنة والسيرة، وكتبهما كثيرة والحمد لله.

قال أبو بكر الآجرّى وغيره: النصح له يقتضى نصحين: نصحًا فى حياته، ونصحًا بعد مماته؛ ففى حياته نُصْح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه، كما قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [١] فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ [٢] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ [٣] وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٥].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة[٦] على تعلم سنته، والتفقه فى شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك[٧].

وهذه الأمور والتى هى أصول النصح له ﷺ وردت فى كتاب تعظيم

(١) عاهدوا الله على بذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل نصرة دين الله.
(٢) مات فى سبيل الله.
(٣) ينتظر أن يموت فى سبيل الله.
(٤) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.
(٥) سورة الحشر، آية: ٨.
(٦) المداومة.
(٧) نقله من الشفا للقاضى عياض ص٥٨٤، ٥٨٥.

قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزى[١] أيضًا، وأرى أن النصح له ﷺ بعد مماته يقتضى مناصرته والدفاع عنه أيضًا، ذلك أن الكفر يحرص على تشويه سيرته، ويحرص على تحطيم قبلته «الكعبة» ويحرص على تدمير مدينته وقبره وإهانة جسمه!! ولست أريد أن أكتب أفعال الكفر ضده ﷺ حتى لا أعكر صفو هذا البحث والذى فى حبه ﷺ، فمن أراد معرفة شىء من هذا فهناك مؤلفات فى هذا[٢].

والنصيحة لأئمة المسلمين، أى النصح وتقديم ما يسدد رأيهم سواء الإمام العام - حاكم الدولة أو الإمام الخاص من وزراء ومدراء، يجب على المسلم أن ينصح لهم بطاعتهم فى الحق، ومعونتهم فيه، ولفت نظرهم إلى ما يُصلح، لكن برفق، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه لكن بأدب، وتوصيل الرأى السديد لهم يتولى ذلك من يليق، فالإمام العام - حاكم الدولة - ينصحه كبار العلماء، وأهل الخبرة والمركز المرموق، والإمام الخاص كالقاضى ينصحه كبار الشخصيات ومتوسطوهم مع الخبرة والدراية، والمدير ينصحه رفقاؤه ومن معه فى العمل وهكذا.

والنصيحة لعامة المسلمين تكون بإرشادهم إلى ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم، من التزام بالدين عقيدة وشريعة، ومن العمل والجدية والإتقان، وتوجيههم إلى الأخلاق الكريمة، والأخذ بالأسباب حتى تتبوأ الأمة مكانًا عاليًا بين الأمم.

---

(١) ونقله عنه ابن رجب فى شرح هذا الحديث فى جامع العلوم والحكم ٢٢٩/١، ونقل أيضًا عن ابن الصلاح وغيرهما.

(٢) راجع كتابى «الإرهاب العالمى من يصنعه ومن يمنعه» بحث «اليهود والنصارى يرهبون رسول الله محمدًا ﷺ» ص١٤٩، وراجع كتاب «صراع حول البيت العتيق»، وكتاب «الطريق إلى الكعبة».

١٠ ـ **توقير أصحابه ﷺ**: ومن مستلزمات حبه ﷺ أن نُجلّ أصحابه رضوان الله عليهم، وأن نذكرهم بخير، فقد ذكرهم ربنا بخير، وذكرهم نبينا بخير، إنه يجب علينا أن نعرف لهم حقهم، وأن لا نقبل قول المبتدعين والمنافقين فيهم، إنهم الذين أثنى عليهم ربنا فلا نقبل كلام مخلوق يعارض كلام الله تعالى:

* قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

* وقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

* وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[3].

ثناء من الله سبحانه وتعالى على الصحابة عمومًا بفعل الصالحات: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وتقبل الله منهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وبلوغهم فى الإيمان أتمه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

* يجب أن نعرف لهم قدرهم الوارد فى هذه الآيات وغيرها، وأنهم

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

أحبوا الله أكثر من أنفسهم وأحبوا رسول الله لحب الله، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[1].

وأطاعوا الله ورسوله كل الطاعة قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2].

ويمدحهم رسول الله ﷺ فيقول: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... الحديث»[3].

* ويقول ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[4]. و«المد» نوع من المكاييل، مقدار ملء كفى الرجل، و«نصيفه» أى نصف المد، والمعنى: أن أعمالهم عظيمة الأجر للصدق فيها والتفانى.

* ويقول ﷺ: «إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لى من أصحابى أربعة - يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا رحمهم الله - فجعلهم أصحابى، وقال فى أصحابى كلهم خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون القرن الأول والثانى والثالث والرابع»[5].

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٢) سورة النور، آية: ٥١، ٥٢.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٣٦٥١، ومسلم ٢٥٣٣.

(٤) أخرجه البخارى رقم ٣٦٧٣، ومسلم رقم ٢٥٤١.

(٥) أخرجه البزار ٣/٢٨٨ رقم ٢٧٦٣، كشف الأستار، قال فى مجمع الزوائد (١٠/١٦): رواه البزار ورجاله ثقات وفى بعضهم خلاف.

إن من حب رسول الله ﷺ أن نعرف لأصحابه قدرهم، هؤلاء الذين أثنى عليهم ربنا، ومدحهم نبينا، وجاهدوا فى الله حق جهاده، فجادوا بأموالهم وأنفسهم فى نصرة دين الله.

إن حبنا لرسول الله ﷺ يجعلنا نوقر صحابته، لا نقبل أقوال الضلال فيهم، وما يحكى من مواقف سيئة عنهم فإن الدراسة تثبت أن هذه حكايات ملفقة وأخبار كاذبة[1].

١١- بُغضُ أعدائه ﷺ: فمن أحب رسول الله أحب أحبابه ﷺ، وأبغض أعداءه، والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة، فأهل الحق يحبون الحق وأهله، ويبغضون الباطل وحزبه، يوالون أهل التوحيد، ويتبرءون من أهل الشرك والنفاق ومن أعدائه ﷺ وأعداء دينه وسنته.

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾[2].

فنهى سبحانه عن موالاة أهل الكتاب والكافرين، وبين سبحانه وتعالى فى آية سابقة على ذلك أن ولاءنا إنما هو للمسلمين، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي**

---

(١) راجع كتاب تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٧، ٥٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٥، ٥٦.

قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وهكذا تفيد الآيات أن المسلم إنما وُدُّه وحبُّه لأهل الإيمان، أما الكفرة فلا وُدّ ولا ولاء بينه وبينهم مهما كانت قرابتهم.

ولقد ابتعد عدد من الصحابة عن آبائهم الذين بقوا على الكفر، وحاربوا أقاربهم الكفار ممن جاءوا محاربين لرسول الله والمسلمين، وتبرءوا تمامًا من الكافرين، هؤلاء الذين لم يقبلوا الإيمان، وأصروا على الكفر.

إن الكافرين والمنافقين عادوا رسول الله بكل صنوف العداء، وكادوا للمسلمين بكل أنواع الكيد، وهم على ذلك إلى الآن، وإلى قيام الساعة، ومن هنا فلا يليق بالمسلم أن يقيم أى مودة معهم، وإنما يبغضهم فى الله، وإن وجد تعامل فإنما هو فى حدود ذلك[2]، لكى يبقى البغض فى الله.

ويبقى الاعتزاز بالإسلام، وعدم الخوف من الكفار، وعدم الخوف من الحاجة إليهم، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[3].

* ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة المجادلة الآية الأخيرة، رقم ٢٢.

(٢) هناك مؤلفات فى التعامل مع غير المسلمين منها كتاب «أحكام أهل الذمة» لابن القيم.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٦.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

* ويقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾(١).

* ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

تمنى رؤيته ﷺ: وإذا كانت النصوص السابقة قد بينت «حبه ﷺ» وجوبه وطريقته ومستلزماته، فإنه يُلْمَحُ أنها تشير أيضًا إلى تمنى رؤيته ﷺ، وأن الأمة فى كل أجيالها سيكون فيها من يود رؤيته ﷺ ولو كلفه ذلك الكثير والكثير، حتى إن أحدهم يود لو رآه ﷺ بأهله وماله، وذلك من شدة حب المسلمين له، ومن مزيد شوقهم إليه، ومعرفتهم بالأثر العظيم لوجوده ﷺ، فرؤيته ﷺ يحصل بها الخير الكثير للرائى، ووجوده فيه الخير الكثير للأمة وللبشرية جمعاء.

يقول ﷺ: «وليأتين على أحدكم زمان لأن يرانى أحبُّ إليه من أن يكون له مِثْلُ أهله وماله»(٣).

ويقول ﷺ: «إن أناسًا من أمتى يأتون بعدى يود أحدهم لو اشترى رؤيتى بأهله وماله»(٤).

ويقول ﷺ: «أشد أمتى لى حبًا قوم يكونون - أو يخرجون - بعدى يود أحدهم أنه أعطى أهلَه ومالَه وإنه رآنى»(٥).

وغير هذا كثير، وكل هذه الأحاديث تعلمنا أن علينا أن نجتهد فى

---

(١) سورة محمد، آية: ١١.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب، باب: علامات النبوة فى الإسلام ٦/ ٦٠٤، رقم ٣٥٨٩.

(٤) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب ذكر فضائل التابعين ٤/ ٨٥، وصححه وأقره الذهبى.

(٥) أخرجه أحمد ٣٠٨/٣٥ رقم ٢١٣٨٥، وص ٣٨٩ رقم ٢١٤٩٤، وهو حديث حسن لغيره.

دراسة هديه، ومعرفة ما كان عليه ﷺ، وذلك حتى نستطيع تصور ما ينبغى أن نكون عليه كأننا نراه ونعايشه ﷺ.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يخبر ﷺ أن الكثيرين من أمته من أجيال تالية سيكون حبهم له ﷺ شديدًا، وأنهم سيودون رؤيته، مما يجعلهم يقتدون به، ويتعاطون أسباب نصرة دينه وإحياء سنته، يفكرون فى أحواله فيزيدهم ذلك حبًا، ويتمنون رؤيته فيزدادون بذلك إيمانًا.

يخبر ﷺ أن ذلك سيحدث، على الرغم من:

* الفتن التى بيّن أنها ستعصف بدين البعض، فتجعل الرجل يصبح مؤمنًا ويمسى كافرًا!! فتن كقطع الليل المظلم، يتبارى فيها المنافق والكافر فى صرف المسلم عن دينه.

* يشككونه فى الإسلام، كدعوى أحدهم أن الإسلام لا يستطيع استقبال الحضارة الحديثة!! والعاقل يثق أن حضارة الإسلام هى الحضارة، وأما ما عندهم فزيف وهمجية وقسوة.

* يشككون فى حجية السنة النبوية، ويتضح للدارس أن كلامهم فى هذا محض هراء، وأن السنة قد خدمت بكل صنوف الخدمة، ووفر الله لها كل أسباب البقاء والسلامة.

* يشككون المسلمة فى احتشامها، وربما وصل الأمر إلى استعمال القانون فى محاربة الحشمة، وتضييع حكم من أحكام الإسلام.

* يوقعون المسلمين فى الربا، أو فى المخدرات، أو الزنا، أو فى أى مخالفة شرعية.

على الرغم من هذا الباب الواسع من الفتن يخبر ﷺ أنه سيظل من

أمته من هم مقيمون على حبه، والالتزام بهديه ونصرة دينه ﷺ.

* وأمر آخر هو طول الزمان، هذا الذى يؤثر على التزام الناس بالإسلام، والذى نعاه الله على أمم سابقة فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

إن طول الزمان مدعاة لاغترار الناس بالدنيا، وفرصة للهوى والنفس يضلان الناس، والعلم يقل والجهل يكثر، وكل ذلك يبعد الإنسان عن الله ورسوله!! إلا أنه ﷺ يخبر أنه على الرغم من ذلك سيظل من أمته من يتمسك بحبه، ويود رؤيته.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فأحبابه من الأمة كثيرون، ويود الواحد منهم رؤيته ﷺ مهما كلفه ذلك، ومظاهر ذلك كثيرة واضحة:

* فالكثيرون من الأمة تهوى قلوبهم الحج والعمرة، وزيارة المدينة التى هاجر إليها وخرجت الدعوة فاتحة منها، يجدون فى ذلك استعادة ذكراه ﷺ.

* والكثيرون من الأمة يحرصون على نصرة الإسلام، الدين الذى بعثه الله سبحانه وتعالى به.

* وكثير من الأمة يحرص على نصرة سنته ﷺ، يقيمون مشاريع ضخمة، وأعمالاً علمية جليلة، كل ذلك نصرة لدين الله، ونصرة لسنة رسول الله ﷺ، من منطلق حب الله ورسوله.

* إن الفتن قد كثرت، والزمن بيننا وبينه ﷺ قد طال، لكنه ﷺ يخبر

(١) سورة الحديد، آية: ١٦.

باستمرار وجود المحبين له، الذين يودون رؤيته، وهاهم والحمد لله موجودون، يحبونه حبًا عمليًا، مما يوضح أن هذا الحديث من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا.

• **الدروس المستفادة:**

١ ـ استمرار الخير فى أمة الإسلام، والكثير منهم يحب الله ورسوله حبًا تامًا، مما يدفعهم إلى نصرة الإسلام بكل ما أوتوا.

٢ ـ هؤلاء المحبون لله ولرسوله يودون رؤية رسول الله مهما كلفهم ذلك، مما يدفعهم لدراسة سيرته وشمائله ومعجزاته ودراسة سنته، مما يمكنهم من اتباعه بكل دقة.

٣ ـ وفى الحديث درس فى العقيدة، يقوى إيماننا بأن علم الله محيط، علم سبحانه وتعالى ما ستكون عليه الأمة بعد مئات السنين، فأخبرنا على لسان رسوله ﷺ فكان الأمر كما أعلمنا سبحانه وتعالى.

٤ ـ صدق ما أخبر به ﷺ، فلقد أخبر بالأمر فتحقق كما أخبر، وفيه دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها.

٥ ـ وفى الحديث معجزة ظاهرة له ﷺ، فلقد تحقق الأمر كما أخبر ﷺ، فعلى الرغم من كثرة الفتن وطول الزمان لا يزال الكثيرون على شديد الحب له ﷺ، وعلى تمنى رؤيته مهما كلفهم ذلك.

٦ ـ على كل مسلم أن يدرس باب حب الله وحب رسوله فهذا باب فى غاية الأهمية، ينفعنا فى ديننا ودنيانا وآخرتنا.

* * *

الإخبار بقدوم طلاب العلم

عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: «مَرْحبًا بوَصِيَّةِ رسول الله ﷺ. كان رسول الله ﷺ يُوصينا بكم»[1].

وعن أبى هارون العبدى قال: كنا إذا جئنا أبا سعيد الخدرى يَبْسُط لنا رِدَاءَه، فيقول: اجلسوا على هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيأتيكم أقوام من أقْطار الأرض يَتَفَقَّهُون فى الدين، ويطلبون حديثى، فإذا جاءوكم فأكرِمُوهم»[2].

وفى رواية: «يأتيكم رجال من قِبَل المشرق يتعلمون، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[3].

وعن أبى هارون العبدى وشهر بن حوشب قالا: كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول: «مَرْحبًا بوصية رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «ستُفْتَح لكم الأرض، ويأتيكم قومٌ - أو قال غِلْمَان - حَدِيثَةٌ أسنانهم، يطلبون العلم، ويَتَفَقَّهون فى الدين، ويتعلمون منكم، فإذا جاءوكم فَعَلِّمُوهم والْطِفُوهم، ووسعُوا لهم فى المجلس، وفَهِّمُوهم الحديث» فكان أبو سعيد يقول لنا: مرحبًا بوصية رسول الله، أَمَرَنَا

(١) أخرجه الحاكم فى العلم باب فضل طلاب الحديث ١/٨٨ وصححه. وأخرجه تمام فى فوائده ١/ ١٥٠. وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٦/ ٥٤٠. وأخرجه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل باب ثبوت السنة ٢/ ١٢.

(٢) أخرجه الخطيب فى الجامع ١/٣٤٨ رقم ٨٠١. وأخرجه الترمذى فى العلم باب ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ٧/٤٠٩ رقم ٢٧٨٨، وذكر أن أبا هارون منهم من ضعَّفه ومنهم من قَبِلَه.

(٣) عند الترمذى فى الموطن السابق.

رسولُ الله أن نوسِّع لكم فى المجلس، وأن نُفَهِّمَكُم الحديث»[١].

• المعانى:

«مرحبًا» يقال: رَحُب الشىء وأرحب بمعنى اتسع، و«مرحبًا» فيه فعل مقدر أى: نزلت مرحبًا، أى نزلت واسعًا، وهى كلمة تأنيس، تقال للقادم تأنيسًا له، فكأن المقيم يقول لمن نزل عليه، نزلت واسعًا من مكاننا لا ضيقًا، فنحن نسعد بك، وصدورنا تتسع لك.

ولقد استعملت كلمة «مرحبًا» كثيرًا فى السنة، فقال رسول الله ﷺ لوفد عبد القيس مرحبًا بالقوم[٢] وقال لأم هانئ: «مرحبًا بأم هانئ»، وقال لعكرمة بن أبى جهل: «مرحبًا بالراكب المهاجر»، وقال لفاطمة: «مرحبًا بابنتى»، وقالها رسل الله لرسول الله محمد ﷺ فى رحلة المعراج[٣].

وفى هذا الحديث يقول أبو سعيد الخدرى لطلاب العلم الذين جاءوا يسمعون منه: «مرحبًا» أى: نزلتم واسعًا فاطمئنوا، إن صدورنا واسعة نستقبلكم بكل سعادة.

«بوصية رسول الله» الوصية: أن يتقدم الإنسان إلى الغير بأمر يعمله فيما بعد، وغالبًا ما يقترن بنصح ووعظ، من «أوصيت فلانًا بوالده» إذا عهدت إليه بذلك وأكدت عليه به، و«أوصى فلان بربع ماله للمسجد» أى عهد إلى أولاده أن يضعوا ربع ماله بعد موته للمسجد.

وعليه فقول أبى سعيد: «مرحبًا بوصية رسول الله» أى مرحبًا بمن عَهِد إلينا رسول الله بإكرامهم، إنكم نزلتم فى سعة من المكان والنفس.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٥٧٨/١، رقم ٩٩١، وقال محققه: حديث حسن.

(٢) حديث رقم ٥٣ فى البخارى.

(٣) حديث رقم ٣٤٩ فى البخارى.

«يوصينا بكم» يؤكد علينا أن نقوم بحقوقكم علينا، كما جاء فى رواية أخرى: «فأكرموهم»، وفى رواية: «فعلموهم»، وفى رواية: «فاستوصوا بهم خيرًا».

وفى ذلك أمر منه ﷺ للأمة بإكرام طلاب العلم الوافدين من أماكن بعيدة، يكرمهم العلماء بتعليمهم، ويكرمهم أهل البلاد بالتعاون معهم والقيام بما يحتاجون.

«يبسط لنا رداءه» بَسَطَ يَبْسُطُ بَسْطًا: نشر وفرش والرِّدَاءُ: ما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة. وأيضًا هو: الثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الإزار، وجمعه أردية، والمعنى: إن أبا سعيد كان يفرش ما أمكنه من ملابسه لطلاب العلم إكرامًا لهم، عملاً بوصية رسول الله ﷺ.

«سيأتيكم» السين إذا سبقت الفعل المضارع أفادت أنه سيحدث بعد فترة، وهذا يفيد أن مجىء طلاب العلم إلى البلاد العامرة بالعلم إنما يكون بعد فترة من زمانه ﷺ، وسيكون من خارج بلاد العرب بدليل: «ستفتح لكم الأرض ويأتيكم قوم..».

«أقوام» جمع قوم. والقوم: الجماعة من الناس تجمعهم غاية يقومون بها.

«أقطار الأرض» جمع قُطْر. والقطر: الناحية، أو مجموعة البلاد والنواحى تتميز باسم خاص، وعليه فالمعنى: ستأتيكم جماعات من نواحى الأرض لطلب العلم.

«يتفقهون فى الدين» فَقِه فلان الأمرَ يَفْقَهُ فَقَهًا وفقْهًا: أحسن إدراكه.

وفَقُه يَفْقُه فقاهة: صار فقيهًا.

وتَفَقَّه: صار فقيهًا. وتَفَقَّه الأمر: تَفَهَّمَهُ وتفطنه.

والفقه: الفهم والفطنة والعلم، وغلب على علوم الشريعة، وعلوم أصول الدين التى هى العقيدة.

والمعنى: يتعلمون قواعد الإسلام وفروعه بفهم عميق.

«ويطلبون حديثى» ويحرصون على تعلم الحديث النبوى.

«ستفتح لكم الأرض» أى سيفتح الله عليكم الكثير من البلاد، وينتشر الإسلام فى ربوع الأرض.

«حديثة أسنانهم» أسنان جمع سِنّ. وفلان سِنُّ فلان، أى قريب منه فى وقت الولادة فهم متقاربون فى السن، وفى سن الشباب.

«وألطفوهم» ألطفه: أتحفه. وألطفته: أتحفته، والاسم: اللَّطَفُ وهو: البِرُّ والتَّكْرِمةُ. أى أتحفوهم وأهدوا لهم، كما جاء فى الرواية الأولى: «فأكرموهم»، وفى الثانية: «فاستوصوا بهم خيرًا».

• **راوى الحديث:**

أبو سعيد الخدرى أحد الصحابة الأجلاء، مفتى المدينة، تقدمت ترجمته[1].

• **الشرح:**

يخبرنا رسول الله ﷺ برحلة طلاب العلم من مكان إلى مكان كما قال: «إنه سيأتيكم أقوام من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ويطلبون حديثى»، وفى رواية: «إنه سيأتيكم قوم من أقطار الأرض يسألونكم

---

(١) فى الجزء الأول ص٢٥٠ فى باب الإخبار بكثرة الفتن وطريق النجاة، شرح حديث: «يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم».

العلم»[١] ويكلفنا ﷺ أن نكرم هذه الطائفة من الأمة، والمقام يقتضى دراسة النقاط الآتية:

١- تعريف العلم:

العلم إذا أُطلق وعُرِّف فالمراد به العلم الشرعى الذى يفيد الإنسان فى عقيدته وعبادته ومعاملاته وأخلاقه.

إنه العلم بالله سبحانه وتعالى، مما يجعل العبد يؤمن بتوحيده سبحانه، وأنه متصف بكل الكمالات اللائقة به سبحانه، وأنه منزه عن كل نقص. إنه معرفة الإنسان ما يجب عليه نحو خالقه سبحانه وتعالى من إيمان راسخ، وكيف أن أهل الإيمان على مراتب أعلاها مرتبة الأنبياء، ثم الصديقون، ثم السابقون، ثم أصحاب اليمين، فعلى العاقل أن يريد أعلاها، ويجتهد فى ذلك.

إنه العلم بأحكام الشريعة وأسرارها، حتى يدرك الدقائق والأسرار، ويتحول ذلك إلى عمل.

إنه العلم بالأخلاق الكريمة، ومعرفة معاليها، وامتثال أعلى مراتبها.

ومدار ذلك على ثلاثة علوم هى: علم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه، يدرك الدارس أغوار هذه العلوم، ويعمل بما فيها، حاملاً نفسه على أعلى المراتب.

* إن العلم فى الإسلام هو الذى يصاحبه العمل، فمن قرأ فى صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٢] عليه أن يدرس أسباب

---

(١) أخرجه تمام ١/١٤٨، رقم ٨٦.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٢.

الخشوع فى الصلاة، ويأخذ نفسه بذلك حتى يخشع فى الصلاة.

وكذلك من عرف قول الله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) عليه أن يلاحظ صلاته، وأثرها فى حياته، حتى تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فإن وصل لذلك فقد آتى العلم ثماره.

يقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٢).

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

يقول ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»(٤).

ويقول ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(٥).

وعن جبير بن نفير عن أبى الدرداء، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء، قال: فقال زياد بن لبيد الأنصارى: يا رسول الله وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، آية: ٢، ٣.

(٤) أخرجه مسلم فى الزهد باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ٤/ ٢٢٩٠ رقم ٢٩٨٩.

(٥) أخرجه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ٤/٢٠٨٨، رقم ٢٧٢٢.

نساءنا وأبناءنا؟ فقال: «ثكلتك أمك يا زياد إنى كنت لأعُدُّك من فقهاء أهل المدينة؛ هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغنى عنهم؟» قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت فقلت له: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء وأخبرته بالذى قال. قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»(١).

٢- وجوب طلب العلم:

طلب العلم الشرعى واجب على كل مسلم ومسلمة، ذلك أن المسلم يعبد الله وفق ما شرع، فليتعلم دين الله ليعرف كيف يعبد الله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢) هذا حث على ارتحال عدد من كل مجموعة يطلبون العلم ويعودون إلى قومهم ليعلموهم الخير ويحذروهم الشر.

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٣) وما دام لا يعقلها إلا العلماء فيجب أن يكون فى كل مجموعة علماء يبصرونهم بدين الله تعالى.

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم ١/٩٩ وصححه ووافقه الذهبى، وله شاهد فى مسند أحمد رقم ٢٣٩٩٠، وجامع بيان العلم رقم ١٠٢٠، وابن حبان ١٠/٤٣٣، رقم ٤٥٧٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى أول جامع بيان العلم، رقم ١/٢٣ رقم ١٥ ونقل محققه ص٥١ عن الزركشى أن المزى حسنه ووافقه صاحب الدرر المنثورة «الزركشى»، وقال العراقى: إن بعض الأئمة صححه، وقواه السخاوى فى المقاصد، وصححه السيوطى فى جزء جمع فيه طرقه.

قال ابن عبد البر: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيِّن على كل امرئ فى خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع(١).

فأما العلم الذى هو متعين فمعرفة عقيدة التوحيد، فالله واحد لا شريك له ولا مثيل له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، هو المعبود، ولا عبادة توجه لغيره، وكذلك عقيدة رسالة سيدنا محمد ﷺ، يشهد المؤمن ويوقن أن محمدًا رسول الله، خاتم النبيين والمرسلين، وهو القدوة الحسنة، ولا نقتدى بغيره فى أى شىء.

والإيمان بأن الله خلق عددًا كبيرًا من الملائكة، وهم أجسام نورانية، وأصحاب مهام خلقوا لها.

والإيمان بأن الله أنزل كتبًا على رسله، أوحى لهم دينه وشرعه، وختام هذه الكتب القرآن الكريم، والمؤمن يؤمن بأن القرآن كله من عند الله.

والإيمان باليوم الآخر، فكل الخلق يموتون، وبعد الموت فالناس فى قبورهم إما فى روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ويحيى الله الخلائق بعد الموت، ويحاسبون على أعمالهم ونهايتهم إما إلى جنة وإما إلى نار.

وكل الأمور قدرها الله، فليوقن المؤمن بذلك.

ومن العلم المتعين على كل مسلم ومسلمة معرفة العبادات وأحكامها من طهارة وصلاة وصيام.

---

(١) جامع بيان العلم ١/٥٦.

وعلى الأغنياء معرفة الزكاة والحج.

وعلى التجار معرفة فقه المعاملات، كما قال عمر بن الخطاب: «لا يتجر فى سوقنا إلا الفقهاء».

وعلى المزارعين معرفة أحكام الزراعة من فقه الرى، والمزارعة، والسلم، وزكاة الزروع والثمار.

ومن العلم الذى هو فرض عين على كل مسلم: تحريم الزنا، وتحريم الخمر، وتحريم لحم الميتة والخنزير والأنجاس كلها، وتحريم السرقة والربا والغصب والرشوة، وأكل أموال الناس بالباطل وتحريم شهادة الزور، وتحريم الظلم كله، وتحريم قتل النفس بغير حق.

ومن العلم المتعين أن يتعلم مريد الزواج أحكام الزواج وكيفية تعامل الزوج مع الزوجة، وتعامل الزوجة مع الزوج.

ومن العلم المتعين معرفة حقوق المجتمع على المسلم، مثل بر الوالدين، وصلة الرحم، وحقوق الجار، وحق الضعيف، ونصرة الأمة إذا اعتدى عليها.

وأيضًا معرفة مكارم الأخلاق من رد السلام وتشميت العاطس، وزيارة المريض، والقيام على الميت بغسله وتكفينه ودفنه.

هذا هو القدر الواجب على كل مسلم ومسلمة معرفته، وهناك علم ليس واجبًا على كل مسلم، كعلم الفرائض، وعلوم اللغة بالتعمق فيها، وعلوم القرآن والتفسير، وعلوم السنة، وعلم الحديث دراية، وعلم أصول الفقه، فهذه وغيرها فرض كفاية، يجب أن يكون فى كل مجتمع من يتقن هذه العلوم بعمق، فإذا ضعف علم من هذه العلوم فى مجتمع من المجتمعات فعلى بعضه أن يرتحلوا لتحصيله ثم العودة لإشاعته فى

مجتمعهم، وهذا ما تضمنته الآية: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١]، وهذا أيضًا ما تضمنه الحديث الذى معنا، والذى يحث العلماء وأهل البلاد العامرة بالعلم أن يُعَلِّموا ويكرموا من ارتحل إليهم يطلب العلم، وهو أيضًا يحث أهل البلاد الفقيرة من العلم أن يرحل بعضهم طلبًا للعلم.

وقص علينا ربنا سبحانه قصة موسى ورحلته فى طلب العلم عند العبد الذى قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٢]، والقصة فى كتب السنة بكل توضيح، راجع صحيح البخارى كتاب العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أى الناس أعلم فيكل العلم إلى الله[٣].

ولقد ارتحل كثير من الصحابة فمن بعدهم، منهم من ارتحل إلى رسول الله ﷺ، وهؤلاء كثيرون حتى سُمِّىَ أحد أعوام حياته ﷺ «عام الوفود»، ومن ذلك وفد عبد القيس «وسؤالهم رسول الله ﷺ أن يأمرهم بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة»[٤].

ولقد ذكر ابن سعد فى كتابه الطبقات الكبرى بابًا جمع فيه كثيرًا من الوفود التى قدمت المدينة على رسول الله ﷺ بلغ بها أربعة وسبعين وفدًا[٥].

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

(٢) سورة الكهف، آية: ٦٥، ٦٦، والقصة بكاملها من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٢.

(٣) ج١ ص٢١٧ رقم ١٢٢، وسبق عنده رقم ٧٤.

(٤) صحيح البخارى ١/ ١٨٣ رقم ٨٧.

(٥) الطبقات الكبرى ج١ ص٢٩١ إلى ص٣٥٩.

وجمع الخطيب البغدادى عددًا ممن ارتحل من علماء الأمة من أجل حديث واحد، وذلك فى كتابه: «الرحلة فى طلب الحديث».

وبفضل الله تعالى لا زالت الرحلة قائمة فى الأمة، يرتحل الكثيرون من الطلاب من أجل دراسة الدين، وهؤلاء قد جاءت الآيات والأحاديث بذكرهم ورضوان الله عليهم، والحديث الذى نحن بصدد شرحه يوصى بهؤلاء خيرًا.

• رحلة ورحلة:

إن الحديث الذى معنا يرسم صورة للتكامل العلمى بين المجتمعات الإسلامية، إذ يبين أن رحلة طلاب العلم إنما تكون من أى مكان إلى علماء الإسلام من أجل العلم الشرعى، والدول التى ضعف فيها علم تساعد على إيفاد من يدرسه ثم يعود ليعلم أبناء بلده، والدول التى قوى فيها العلم تستقبل الطلاب من الدول الأخرى، وتساعد على تأهيلهم علميًا، لقد هاجر الصحابة إلى رسول الله ﷺ أينما كان مكانه، هاجروا إليه فى مكة، وهاجروا إليه فى المدينة، وبعضهم جاء المدينة فوجده خارجها فذهب إليه حيث كان، وظلت الرحلة قوية إلى المدينة حيث الجو العلمى العظيم، ولما قويت المراكز العلمية فى مدن أخرى مثل مكة، ودمشق، وبغداد، ومصر، بدأت الرحلة إلى هذه المدارس. ينظم طلب العلم والرحلة المنهج الإسلامى، يلتزمه العلماء والطلاب والأمراء والعامة.

تتبارى المدارس والبلدان، ويتبارى الأمراء، ويتبارى الوجهاء، يتبارى هؤلاء فى خدمة العلم والحرص على التقدم فيه، والعمل به، ويتعلم الطلاب ويعودون بأخلاق وسلوكيات إسلامية، ينقلون العلوم الإسلامية

العظيمة، مع الأخلاق الكريمة.

وهكذا كانت الرحلة عملاً إيجابيًا من كل ناحية.

ولما ضعفت الأمة الإسلامية وقويت الأمم الأخرى، عملت الأمم الأخرى على غزو أمة الإسلام فكريًا، فراحوا يشيعون أفكارهم وثقافتهم فى المجتمعات الإسلامية، وأقاموا مدارس وجامعات فى بلادهم وبلاد المسلمين لتعليم المسلمين!! وبالغوا فى هذا حتى إن عندهم مراكز علمية تعطى أعلى الدرجات العلمية فى اللغة العربية وعلوم الإسلام!! ويرسلون بالكثير من المنح الدراسية لبلاد المسلمين ليأخذوا أبناء المسلمين يقيمون فى هذه البلاد، ويدرسون، ويأخذون الشهادات.

إنه لمن أعجب العجب أن ترسل الدول الإسلامية شبابها للحصول على شهادات من الخارج فى اللغة العربية والعلوم الشرعية!! ومن العجب أن يُرْسَل شباب الدول الإسلامية للحصول على شهادات فى العلوم النظرية كالتاريخ والاجتماع والفلسفة، بل إنه من العجب أيضًا أن نرسل شبابنا لدراسة العلوم التجريبية فى الخارج، فكم من شبابنا أرسل إلى هناك مرات كثيرة، وأعداد وفيرة، وما استطاعوا أن يفيدوا دولهم بشىء، بل إن كل الذين أرسلوا إلى الخارج جاءوا بأخلاق سقيمة، وطباع لئيمة، فليتنا نفكر ونعقل، فالفارق بين الرحلة الإسلامية، والرحلة الإفرنجية فارق عجيب، بل لا يمكن المقارنة بين الرحلتين.

• نماذج من الرحلة فى طلب العلم:

أخرج ابن سعد عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلُمّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير، قال: فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك،

وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟ قال: فتركت ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغنى الحديثُ عن الرجل، فآتى بابه وهو قائل[1]، فأتوسّد ردائى[2] على بابه، تسفى الريح علىّ التراب، فيخرج فيرانى فيقول لى: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلىّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى ليسألونى فيقول: هذا الفتى كان أعقل منى[3].

وأخرج البخارى عن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ فى المسجد دخل رجل على جمل، فأناخه فى المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد - والنبى ﷺ متكئ بين ظهرانيهم -؟ فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب[4]. فقال له النبى ﷺ: «قد أجبتك». فقال الرجل للنبى ﷺ: إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد علىّ فى نفسك. فقال: «سل عما بدا لك». فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم». قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبى ﷺ: «اللهم نعم». فقال الرجل: آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسول من

(١) مستريح وقت القيلولة، أى حر الظهيرة.

(٢) أى يجعل رداءه وسادة يضعها تحت رأسه.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/٣٦٧، ٣٦٨.

(٤) حذف حرف النداء، وقد جاء مصرحًا به فى رواية: «يا ابن عبد المطلب».

ورائى من قومى، وأنا ضِمَامُ بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر(١).

إن ضمام بن ثعلبة من بنى سعد بن بكر الذين استرضع فيهم رسول الله ﷺ، وديار بنى سعد قريبة من مكة، ارتحل ضمام من ضواحى مكة إلى المدينة ليستوثق من رسول الله ﷺ.

وعن عطاء بن أبى رباح قال: خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصارى وهو أمير مصر، فأخبر به، فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله. قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة به، فعجل فخرج إليه، فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك فى ستر المؤمن. قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنًا فى الدنيا على خُرْبة ستره الله يوم القيامة». فقال له أبو أيوب: صدقت.

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر(٢).

هكذا ارتحل الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى من المدينة إلى مصر من أجل أن يتذاكر حديثًا مع عقبة بن عامر، علم أبو أيوب أن هذا الحديث لم يبق من رواته عن رسول الله ﷺ إلا هو وعقبة، فسافر إليه

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم الباب السادس ١/١٤٨ رقم ٦٣.

(٢) أخرجه الخطيب فى كتابه «الرحلة فى طلب الحديث» ص١١٨ رقم ٣٤، أخرجه بإسناده عن الحميدى، وهو فى مسند الحميدى ١/١٨٩ رقم ٣٨٤.

والتقى به وتذاكرا الحديث. وهكذا كانوا يعرفون الرحلة فى طلب العلم، ويعرفون رواة كل حديث، ويعرفون أصول الطلب، وأن حياة العلم مذاكرته.

ورحلة أخرى قام بها أحد علماء الأمة، لا من أجل استزادة علمية، وإنما لتحقيق مسألة:

فقد أخرج الرامهرمزى بإسناده عن نصر بن حماد قال: كنا بباب شعبة نتذاكر الحديث، فقلت: ثنا[1] إسرائيل عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر قال: كنا فى عهد رسول الله ﷺ نتناوب رعاية الإبل، فرحت ذات يوم ورسول الله ﷺ جالس وحوله أصحابه فسمعته يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم دخل المسجد فصلى ركعتين واستغفر الله غفر الله له»، قال: فما ملكت نفسى أن قلت بخ[2] بخ، قال: فجذبنى رجل من خلفى فالتفتُّ فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا ابن عامر، الذى قال قبل أن تجىء أحسن. قلتُ: ما قال فداك أبى وأمى؟ قال: قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فتحت له ثمانية أبواب من الجنة من أيها شاء دخل». قال: فسمعنى شعبة فخرج إلىَّ فلطمنى لطمة ثم دخل، ثم خرج فقال: ما له يبكى؟ فقال عبد الله بن إدريس: لقد أسأت إليه. فقال: أما تسمع ما يحدث عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر، وأنا قلت لأبى إسحاق: أسمع عبدُ الله بن عطاء من عقبة بن عامر؟ قال:

---

(١) اختصار (حدثنا).

(٢) كلمة تقال عند مدح الشىء والرضا به، استعظم هذا الحديث وأن الله سبحانه يغفر لمن توضأ فأحسن الوضوء ودخل فصلى ركعتين واستغفر الله يقال «بَخْ» وتكرر للمبالغة «بَخْ بَخْ» وإذا وصلت الكلام فاخفض ونون «بَخٍ بَخٍ».

لا، وغضب، وكان مِسْعر بن كدام حاضرًا، فقال لى مسعر: أغضبتَ الشيخ. فقلت: ما له؟ ليُصَحِّحَنَّ لى هذا الحديث أو لأُسقطَنَّ حديثه! فقال مسعر: عبد الله بن عطاء بمكة، فرحلت إليه لم أُرِدِ الحج، إنما أردت الحديث فلقيت عبد الله بن عطاء فسألته، فقال: سعد بن إبراهيم حدثنى، فقال لى مالك بن أنس: سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحج العام، فدخلتُ المدينة، فلقيتُ سعد بن إبراهيم فسألته فقال: الحديث من عندكم زياد بن مخراق حدثنى، فقلتُ: أى شىء هذا الحديث؟ بينا هو كوفى صار مكيًا، صار مدنيًا، صار بصريًا!! فدخلتُ البصرة فلقيت زياد ابن مخراق فسألته فقال: ليس هذا من بابتك[1]. قلت: بلى. قال: لا تريده، قلت: أريده، قال: شهر بن حوشب حدثنى عن أبى ريحانة عن عقبة بن عامر. قال: فلما ذكر لى شهرًا قلت: دمر على هذا الحديث، لو صح لى هذا الحديث كان أحب إلىَّ من أهلى ومن مالى ومن الدنيا كلها[2].

لقد ارتحل شعبة بن الحجاج أحد علماء الحديث الأفذاذ المتوفى سنة ستين ومائة (١٦٠هـ) ارتحل بحثًا عن إسناد معين لهذا الحديث[3]، وكم كان شعبة هذا طويل النفس فى رحلته بحثًا عن إسناد حديث، لقد ارتحل من الكوفة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى البصرة، ولم تكن الرحلة بوسائل النقل السريعة مثل المعاصرة، وإنما كان يركب فرسه أو ناقته ويرتحل، يقطع آلاف الأميال صابرًا، ثم يقول: لو صح لى هذا

---

(١) اى لا يصلح لك.

(٢) قصة شعبة مع هذا الحديث أخرجها الرامهرمزى فى المحدث الفاصل بين الرَّاوِى والواعى ص٣١٣ ـ ٣١٥، والخطيب فى الكفاية ص٥٦٦، وفى الرحلة ص١٤٨ رقم ٥٩.

(٣) وقد صح الحديث من طريق آخَرَ أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء ١/٢٠٩، رقم ١٧/٢٣٤.

الحديث كان أحب إلىَّ من أهلى ومن مالى ومن الدنيا كلها، مما يدل على فهم الرجل لقدر حديث رسول الله ﷺ.

وهكذا يتضح أن طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة، كُلٌّ يتعلم ما يصح به دينه من عقيدة وعبادة، وأخلاق، يتعلم من التفسير والحديث والفقه ما يُمكّنه من ذلك، ثم بعدَ ذلك من وجد من نفسه كفاءة لدراسة الدين فليتخصص فيما يرى نفسه مقبلاً عليه، ومن لم يجد من نفسه كفاءة فليتجه لعلوم الحياة وفنونها، ناهجًا فيها ما يفرضه عليه القدر الذى حصله من علوم الإسلام، ليكون الطبيب المخلص، والمهندس الصادق، والأجير الأمين، وهكذا تكون الأمة على خلق كريم.

كلٌّ يطلب العلم من بلده إذا وجد، أو من أقرب البلاد إذا لم يجد فى بلده، يرتحل من أجل تعلم الدين، وهو إذ يرتحل إنما يسير وفق أصول للتعلم سوف أذكرها فى النقاط الآتية إن شاء الله تعالى.

٢ـ الواجب على الطلاب:

واضح من روايات الحديث الذى معنا أن رسول الله ﷺ يحدد مهام المرتحل فى طلب العلم إذ يقول ﷺ: «إنه سيأتيكم أقوام من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، ويطلبون حديثى»، وفى رواية أخرى: «يسألونكم عن العلم» ومن هنا يتضح الواجب على طلاب العلم، والذى يتلخص فيما يلى:

أ ـ الاجتهاد فى الطلب: ذلك أن التفقه لا يكون إلا بعد التعلم والتعمق، فالفقه خلاصة النصوص مجتمعة. قال الله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1] يأمر ربنا سبحانه يحيى بن زكريا عليهما السلام أن

(١) سورة مريم، آية: ١٢.

يتعلم الكتاب الذى هو التوراة بقوة، أى بجدٍّ وحرص واجتهاد ثم يقول سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1]، أى آتاه الله فهم النص والعمل به وهو صبى. وهكذا تفيد الآية أن على طالب العلم أن يجتهد فى طلب العلم كل الاجتهاد، ومن الاجتهاد أن يطلبه من صباه، كما جاء فى إحدى روايات هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه: «ستفتح لكم الأرض، ويأتيكم غلمان حديثة أسنانهم يطلبون العلم ويتفقهون فى الدين ويتعلمون منكم...»[2] ويقول رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان، منهوم فى علم لا يشبع، ومنهوم فى دنيا لا يشبع»[3] يبين ﷺ أن من أقبل على العلم فمن الواجب أن يجتهد، ثم يلوح له بأمر وهو إذا كان طلاب الدنيا لا يشبعون منها فاللائق بطلاب العلم أن يكونوا أكثر نهمًا وأشد حرصًا، فبمقدار ميل الأمة عن الجادة بمقدار ما يجب على طلاب العلم من جد، رجاء أن يستطيعوا الاعتدال بالأمة.

إن الله تبارك وتعالى وصف الجادين فى الطلب فقال: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾[4] أى: يقرءون القرآن طوال الليل، ومن باب أولى طوال النهار، فهم فى طلب دائم يقرءون ويتدبرون، ويعملون، وهذا يفيد تمام الجدية وكامل الإقبال على القرآن الكريم الذى هو أصل علوم الإسلام، والإقبال عليه إقبال عليها كلها.

ويقول ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه

---

(١) سورة مريم، آية: ١٢.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/٥٧٨.

(٣) أخرجه الحاكم فى العلم باب منهومان لا يشبعان ١/٩٢ وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم باب الحض على استدامة الطلب ١/٤٠٦ رقم ٥٨٤، وأخرجه عن ابن عباس ١/٤٠٤ رقم ٥٨٣.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٣.

آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[١]. والحسد فى أصل معناه تمنى زوال النعمة عن المحسود، وهذا مذموم شرعًا، وعلى من وجد من نفسه ذلك أن يرفضه، وأن لا يسعى فى إزالة النعمة، وعليه أن يُذَكِّر نفسه بأن الأمور بقضاء الله، والحسد المذكور فى الحديث الذى هنا ليس بهذا المعنى، وإنما معناه «الغبطة» وهى تمنى مثل ما عند الغير دون زوالها عن الغير وإذا زادت أصبحت منافسة، والمنافسة فى الخير محمودة شرعًا، فمعنى الحديث: لا غبطة أعظم وأفضل من الغبطة فى هذين الأمرين أى لا تتمنى ما عند الغير إلا فى خصلتين، الاجتهاد فى تلاوة القرآن وفهمه والعمل به، وإنفاق المال فى وجوه الخير.

والحديث يوضح أن الأصل فى طلاب العلم الاجتهاد فى طلبه، حتى يصبح المستغرق لوقتهم، شاملاً ساعات الليل والنهار.

ولما جمع الإمام مسلم طرق حديث عبد الله بن عمرو فى مواقيت الصلاة، سرّ بما بذله فى ذلك فأخرج عن يحيى بن أبى كثير أنه قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد[٢].

وأخرج الأئمة عن سعيد بن المسيب قال: إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد[٣].

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد باب قول النبى ﷺ: رجل آتاه الله القرآن... ١٣/ ٥٠٢، رقم ٧٥٢٩.

(٢) أخرجه مسلم فى المساجد باب أوقات الصلوات الخمس ١/ ٤٢٨ رقم ١٧٥، قبل ١٧٦/ ٦١٣، وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم باب حمد السؤال والإلحاح فى طلب العلم ١/ ٣٨٤، رقم ٥٥٣ من أكثر من طريق.

(٣) أخرجه الرامهرمزى، وابن عبد البر باب ذكر الرحلة فى طلب العلم ١/ ٣٩٥.

إن كل مسلم طالب علم وعليه أن يجتهد فى الطلب وفى المذاكرة، يُحَصِّل العلم ويداوم على مذاكرته وإلا ضاع ما حصله، يقول رسول الله ﷺ: «واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النَّعَم»[١]، ويقول على بن أبى طالب رضى الله عنه: تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث، فإنكم إن لم تفعلوا يدرس علمكم[٢]. ويقول أبو سعيد الخدرى: تذاكروا هذا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث[٣].

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها، فقلنا: أمللناك يا أم الدرداء، فقالت: ما أمللتمونى، لقد طلبت العبادة فى كل شىء، فما وجدت شيئًا أشفى لنفسى من مذاكرة العلم[٤].

ب ـ طلب العلوم الشرعية متكاملة: فمن قوله ﷺ فى الحديث الذى معنا يصف الجماعة التى ترتحل فى طلب العلم «يطلبون العلم» و«يتفقهون فى الدين» يُعْلَم أنه من واجب المسلم أن يطلب من العلوم ما يصور له دينه صورة كاملة صحيحة، فيتعلم العلوم الإسلامية: من أخذ القرآن الكريم عن شيخ له إسناده، ويأخذ علم التجويد ليعرف أسرار القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، والأكمل أن يأخذ علم القراءات، ويأخذ علم تفسير القرآن الكريم، ويأخذ علوم القرآن الكريم، ويأخذ علم الحديث النبوى رواية ودراية، ويأخذ علم الفقه وأصوله، وعلوم اللغة العربية، وعلم السيرة والتاريخ الإسلامى، وكل علم من هؤلاء له تفريعاته العديدة، وحتى يكون الطالب سالكًا طريق العلماء والفقهاء لا بد أن

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن، باب استذكار القرآن ٩/٧٩، رقم ٥٠٣٢.
(٢) أخرجه فى جامع بيان العلم ١/٤٢٢ رقم ٦٢٣، ٦٢٤، وفيه تخريجه.
(٣) أخرجه فى جامع بيان العلم ١/٤٥١ رقم ٧٠٦.
(٤) أخرجه فى جامع بيان العلم ١/٤٢٨ رقم ٦٤٠.

يأخذ كل هذه العلوم.

* إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

* وقال رسول الله ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه»[2]، فدل ذلك على أن الهدى والخير فى الكتاب والسنة، إلا أن فهم الكتاب والسنة يحتاج إلى عدة علوم حتى يفهما على الوجه الصحيح، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

* وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تعلمون القرآن[3]، قالوا: اللحن معرفة وجوه الكلام وتصرفه والحجة به.

* وعن سفيان الثورى قال: تفسير الحديث خير من سماعه[4].

• ومن قول عمر والثورى يتضح أنه لا بد من العلوم المساعدة على فهم الكتاب والسنة كالفقه واللغة وتفسير الحديث.

إن دراسة القرآن والسنة والعلوم التى تدور فى فلكهما أمر واجب على من أراد أن يكون عالمًا، أما المسلم العامى فيكفيه ما يحفظ عليه دينه، أى يصحح عقيدته وعبادته.

جـ - أخذ العلم عن المشايخ: واضح من الحديث الذى معنا أن العلم يؤخذ عن المشايخ، ففى رواية صدر الباب: «إنه سيأتيكم ناس يتفققهون

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٢) أخرجه الحاكم ١/٩٣، والبيهقى ١٠/١١٤ فى الكبرى عن ابن عباس وأبى هريرة.

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم رقم ١٤٥٣، ١٩٢٠ - ١٩٢٢.

(٤) أخرجه ابن عبد البر رقم ٢٢٥٣.

ويتعلمون فعلموهم»، وفى رواية: «يسألونكم العلم» وفى رواية: «ويتعلمون منكم فعلموهم» وهذا يدل على أن العلم يؤخذ عن المشايخ، سواء بالسماع منهم، أو بسماع من يقرأ عليهم، أو بالقراءة عليهم، أو بسؤالهم، وسواء كان الشيخ فى بلد الطالب، أو يرحل الطالب إليه، أو جاء الشيخ زائرًا بلد الطالب، وكفى دليلاً على ذلك أن القرآن لا يؤخذ إلا على شيخ، وإلا أخطأ الطالب كثيرًا، فالأخذ من الكتاب ليس سليمًا، وإنما يخطئ الطالب فيه.

إن الأخذ من المشايخ له فوائد عديدة، منها:

سلامة المعلومات: فسواء قرأ الشيخ وسمع الطلاب، أو قرأ أحد الطلاب وسمع الشيخ - كل ذلك - ستكون المعلومة سليمة، فالشيخ قد حقق ودقق، وأخذ عن الشيوخ، وسمع منه الطلاب، ومنهم من يمكنه تصويب الخطأ، ومستوى الشيخ العلمى عالٍ، ومن هنا تكون المعلومة سليمة، أما لو أخذ الطالب من كتاب فإنه يمكن أن يحدث الخطأ، يخطئ فى القراءة، مما يترتب عليه الخطأ فى الفهم، وهذا أمر يخشاه العلماء كثيرًا، حتى قال الشافعى: من تفقه من بطون الكتب ضيّع الأحكام[1].

وقال غيره: من أعظم البلية تَشيُّخ الصَّحَفِيَّة، أى الذين تعلموا من الصحف[2]. ولقد اهتم العلماء كثيرًا بهذا الأمر، وحذروا من الخطأ فى القراءة عند الأخذ من الكتاب، حتى جمع أحدهم تصحيفات من علم بهم، وأفرد المحدثون نوعًا من أنواع مصطلح الحديث فى هذا سموه «المُصَحَّف والمُحَرَّف»، والتصحيف: التغيير فى النقط مثل «زنج» تقرأ

(١، ٢) تذكرة السامع ص٨٧.

«ريح» خطأ. والتحريف: التغيير فى الشكل، مثل «حُجْر» تقرأ «حَجَر» خطأ، ولقد جمع أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى كتابًا جمع فيه تصحيفات أهل العلم جميعًا، ثم أفرد «تصحيفات المحدثين» وفيه كثير من المعلومات سواء فى التصحيف أو التحريف ينبغى أن يقرأها طالب الحديث ليحذر ذلك.

أخرج العسكرى هذا بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى، قال: كان يقال: لا تحملوا العلم عن صَحَفِىٍّ، ولا تأخذوا القرآن من مُصْحَفِىٍّ[1].

ومن أمثلة التصحيف ما أخرجه الخطيب بإسناده عن يحيى بن بُكير قال: جاء رجل إلى الليث بن سعد فقال: كيف حدثك نافع عن النبى ﷺ فى الذى نُشِرَتْ فى أبيه القصة؟ فقال الليث: ويحك، إنما هو فى الذى يَشْرَبُ فى آنية الفضة يجرجر فى بطنه نار جهنم[2]. صحّف الرجل «يَشْرَب» فقرأها: «نُشِرَت» وصَحَّف وحَرّف «آنية» فقرأها «أبيه»، وصحّف «الفضة» فقرأها «القصة».

ومثال آخر أخرجه العسكرى بإسناده عن الأصمعى[3]، قال: كنت فى مجلس شعبة[4] فقال[5]: فيسمعون جَرْش طير الجنة، فقلت - أى الأصمعى - جَرْسَ. فنظر إلىّ فقال: خذوها عنه، فإنه أعلم بهذا منا[6].

(1) تصحيفات المحدثين 1/7.
(2) الجامع لأخلاق الرّاوى 1/293، 294 رقم 624.
(3) عبد الملك بن قريب الباهلى، أديب محدث فقيه، توفى 216هـ هامش تصحيفات المحدثين.
(4) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى أبو بسطام، أمير المؤمنين فى الحديث توفى 160هـ.
(5) أى شعبة فى ضمن حديث كان يحدث به.
(6) تصحيفات المحدثين 1/31 - 33.

إن صوت الطيور عند الأكل رقيق فيقال له «جرس» أما أصوات البهائم عند أكل الشيء الخشن فيقال له «جرش»[1] فلما روى شعبة الحديث بالشين تعقبه الأصمعى وهو اللغوى الذى يعتنى باللفظ فنبهه، وكان شعبة على قدر عالٍ من أدب العلماء، فسلم للأصمعى.

إن الأخذ عن الشيوخ، ومجالسة طلاب العلم يجعل الطالب بمنأى عن هذا التصحيف والتحريف.

* وفضلاً عن ذلك فالأخذ عن الشيوخ سبيل الفهم، فإن الطالب إذا سمع من الشيخ، فمرت به عبارة لم يفهمها فإنه يسأل الشيخ، فيشرحها له فيفهم، أما الكتاب فليس كذلك.

* وأيضًا فالأخذ عن الشيخ سبيل تفاعل العلوم، فيقدم الفائدة ومعها الكثير من العلوم، فلربما كانت الفائدة فقهية، فيجمع معها شيئًا من الأصول، وربما اللغة، وربما الآية أو الحديث، مما يجعل الدرس مفيدًا للطلاب غاية الفائدة.

* ويأخذ الطالب عن الشيخ يستفيد فى طريقة التعلم، فالشيخ يُعَرِّفُه نبلاء الشيوخ فى كل علم، فيعرفه بأقوى علماء الفقه، بمعنى أكثرهم جمعًا، وأدقهم فهمًا، ويعرفه أنسب الكتب له، ويعرفه المنهج المناسب لِسنِّه وفَهْمِه.

د ـ التحلى بالأخلاق الحميدة: الأخلاق الكريمة أصل من أصول الإسلام تكاد تجمعه لتصبح هى الإسلام، حث عليها الإسلام وأمر بها.

* قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

(1) النهاية فى غريب الحديث ١/ ٢٦٠، ٢٦١.

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١]، قال العلماء: هذه أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق.

* وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

* وقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

* وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٤].

* ويقول رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٥]، وفى رواية: «مكارم الأخلاق».

ومن هذه الآيات وغيرها يتضح أن على كل مسلم أن يلتزم مكارم الأخلاق ومحاسنها، وأولى الناس التزامًا بذلك طلاب العلم والعلماء.

فعلى طلاب العلم أن يتحلى الواحد منهم بمكارم الأخلاق، وبخاصة مع شيوخه وتلامذته، وجيرانه، وأركز على النقاط الآتية:

* **طاعة العلماء:** فعلى الطالب أن يحمل نفسه على طاعة العلماء وتبجيلهم؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٦]، قال ابن عباس: أولو الأمر منكم

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤، ١٠٥.
(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.
(٤) سورة التوبة، آية: ١١٩.
(٥) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ١٠/٣٥٢، رقم ٧٦٠٩، وأحمد ١٤/٥١٢ رقم ٨٩٥٢، ومالك فى الموطأ بلاغًا ٢/٩٠٤، والحاكم فى المستدرك ٢/٦١٣ وصححه ووافقه الذهبى.
(٦) سورة النساء، آية: ٥٩.

يعنى أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معالم دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله طاعتهم[١].

وقال مجاهد: أولو الأمر: الفقهاء والعلماء[٢]، فأمرنا سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر الذين هم ورثة العلم عن رسول الله الذى اصطفاه الله وعلمه.

وقال ﷺ: «ليس من أمتى من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[٣].

وعن طاوس بن كيسان قال: من السنة أن يوقَّر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد[٤].

* **معرفة قدرهم:** فالعلماء جاءت الآيات صريحة فأنزلتهم المنزلة العالية، وكفاهم شرفًا:

أن الله سبحانه جمعهم معه فى الشهادة بوحدانيته، قال تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[٥].

وأخبر سبحانه أنهم المُيَسَّر لهم العلم، يشرح سبحانه صدورهم ويلهمهم الصواب.

---

(١) أخرجه الحاكم فى العلم باب: ليس منا من لم يجل كبيرنا ١/ ١٢٢، ١٢٣.
(٢) أخلاق حملة القرآن ص٦٨.
(٣) أخرجه الآجرى فى أخلاق حملة القرآن ص٦٨ رقم ٤٦، والحاكم ١/ ١٢٢، وأحمد ٣٧/ ٤١٦ رقم ٢٢٧٥٥.
(٤) أخرجه عبد الرزاق فى الجامع باب من يوقر ١١/ ١٣٧ رقم ٢٠١٣٣.
(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1]، يخبر سبحانه أن المنافقين إذا سمعوا أمرًا يتعلق بأمن أو خوف المسلمين أذاعوه على نحو يرضى حقدهم وضغينتهم مما يشوش على المسلمين، وبيّن ربنا أنهم لو ردوا هذا الأمر إلى رسول الله، وإلى العلماء المخلصين الذين يفسرون الأمور تفسيرًا صحيحًا لاتضحت الأمور على الوجه الصحيح، وهكذا تفيد الآية أن العلماء يستطيعون استنباط النتائج الدقيقة وتفسير الوقائع على الوجه الصواب.

ويقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[2].

وهكذا تفيد الآيات أن العلماء أناس نوّر الله بصيرتهم، وألهمهم الرشد وعلمهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3]، يسر سبحانه للعلماء العلم فمن يتعلم؟! يقول ابن عباس فى تفسير هذه الآية: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل، وقال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه[4].

ويقول ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»[5] إن الله رزق العلماء العلم والفقه، فعلى طلاب العلم وكل المسلمين أن يعرفوا ذلك لهم.

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

(٣) سورة القمر، آية: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٤) ذكرهما ابن كثير فى تفسير هذه الآية ٧/٤٧٨.

(٥) أخرجه البخارى رقم ٧١، ومسلم رقم ١٠٣٧، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/٩١.

ولقد علم السلف ـ الصحابة فمن بعدهم ـ ذلك للعلماء، فعرفوا لهم قدرهم، وأنزلوهم المنزلة اللائقة.

أخرج الخطيب وغيره بإسنادهم عن الشعبى قال: صلّى زيد بن ثابت[١] على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال له زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا يُفْعل بالعلماء والكبراء.

زاد بعضهم فى هذا الحديث: إن زيد بن ثابت كافأ ابن عباس على أخذه بركابه أن قبّل يده، وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ. وهذه الزيادة من أهل العلم من ينكرها.

والجنازة كانت جنازة أم زيد بن ثابت، صلى عليها زيد وكبر أربعًا، وأخذ ابن عباس بركابه يومئذ[٢].

ويقول عمر بن الخطاب: تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يُقَوِّم جهلكم بعلمكم[٣].

ويقول شعبة بن الحجاج ـ أحد أعلام مدرسة الإسلام وبخاصة فى

---

(١) أحد الصحابة، تقدم فى حفظ القرآن والفتوى والفرائض حتى كان أعلم الصحابة بذلك، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠.

(٢) ذكره ابن عبد البر فى جامع بيان العلم باب آداب العالم والمتعلم ١/ ٥١٤ وأخرجه الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوِى ١/١٨٨ فقرة ٣٠٧، ٣٠٨، والحاكم ٣/ ٤٢٣، وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/ ٥٤٢ رقم ٨٩٣ من قول عمر هكذا. وقال محققه: حسن، وكان تقدم عنده مرفوعًا ١/ ٥٠١ رقم ٨٠٣، ونقل محققه أنه لم يصح مرفوعًا، وإنما هو من كلام عمر.

الحديث ـ: كل من سمعت منه حديثًا فأنا له عبد[١].

إن توقير العالم أمر غرسه الإسلام وأكّد عليه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

إن الله تبارك وتعالى أدب الأمة بهذه الآداب فى مجلس رسول الله ﷺ ومعه، وهو تأديب مع كل العلماء، فسارت الأمة على ذلك.

يقول الإمام الشافعى: كنت أتصفح الورقة بين يدى مالك صفحًا رفيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها[٣].

ويقول الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبة له[٤].

ويقول المغيرة بن مِقسم الضبى ـ علم من أعلام الحديث والفقه ـ: كنا نهاب إبراهيم كما يُهاب الأمير[٥].

ويقول أيوب السختيانى: كان الرجل يجلس إلى الحسن ثلاث سنين فلا يسأله عن شىء هيبة له[٦].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/٥١٢، وأخرجه الخطيب فى الجامع ١/١٩١ رقم ٣١٨، ٣١٩.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١ ـ ٣.

(٣، ٤) تذكرة السامع ص٨٨.

(٥، ٦) أخرجه الخطيب فى الجامع ١/١٨٣، ١٨٤، فقرة رقم ٢٩٣، ٢٩٤.

ويقول إسحاق الشهيدى: كنت أرى يحيى القطان يصلى العصر ثم يستند إلى أصل منارة مسجده، فيقف بين يديه على بن المدينى، والشاذكونى[1]، وعمرو بن على[2]، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وغيرهم، يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم إلى أن تحين صلاة المغرب، لا يقول لواحد منهم: اجلس، ولا يجلسون، هيبة وإعظامًا[3].

وعوتب الشافعى على تواضعه للعلماء فقال:

أهين لهم نفسى فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التى لا تهينها[4]

هكذا تبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قدر العلماء، وهكذا كان السلف فى فهم أقدار العلماء، فالواجب على طلاب العلم أن يدركوا ذلك.

*** مراعاة حرمة مجالسهم:** مجالس العلم مقدسة، وعلى المسلم أن يراعى آدابها، وعلى طلاب العلم خاصة أن يجتهدوا فى احترامها، علمنا ربنا ذلك.

فنهى سبحانه عن رفع الصوت فى مجلس رسول الله ﷺ، والذى تدرس فيه نصوص دينه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[5].

---

(١) سليمان بن داود بن بشر المنقرى البصرى الشاذكونى المتوفى ٢٣٤ ترجمته فى سير أعلام النبلاء ١٠/٦٧٩.

(٢) الدارقطنى صاحب السنن والعلل المتوفى ٣٨٥هـ ترجمته فى تذكرة الحفاظ ٣/٩٩١.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى ١/١٨٥ فقرة رقم ٢٩٩.

(٤) تذكرة السامع ص٨٧، والجامع ١/٣٤٩ فقرة رقم ٨٠٣.

(٥) سورة الحجرات، آية: ٢.

ومدح سبحانه من تأدب بذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وعلمنا رسول الله ﷺ ذلك فقال: «من أخلاق المؤمن حسن الحديث إذا حَدّث وحُسْن الاستماع إذا حُدِّثَ، وحُسْن البِشْر إذا لقِى، ووفاء الوعد إذا وعد»[٢].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[٣].

وقال الضحاك بن مزاحم: أول باب من العلم: الصَّمْتُ، والثانى: استماعه، والثالث: العمل به، والرابع: نَشرُه وتعليمه[٤].

ولقد عرف الصحابة ذلك، فكانوا فى مجلسه ﷺ غاية فى الهدوء والصمت، وصفهم من رآهم بذلك:

فعن أبى سعيد الخدرى قال: «كنا جلوسًا فى المسجد إذ خرج رسول الله ﷺ فجلس إلينا، فكأنّ على رءوسنا الطير لا يتكلم أحد منا»[٥].

وعن أسامة بن شريك قال: «رأيت النبى ﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير»[٦].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٣.

(٢) أخرجه الخطيب فى الجامع ١/ ١٩٤، عن أنس، وهو فى مسند الفردوس للديلمى ٢/ ٣١٢ رقم ٦٤١٥.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٦٠١٨، ٦٠١٩، وأخرجه مسلم.

(٤) الجامع لأخلاق الراوى ١/ ١٩٤.

(٥، ٦) الجامع ١/ ١٩٢ وخرجهما محققه.

*** وعلى الدرب سار الأجيال:**

فعن حماد بن زيد قال: كنا عند أيوب فسمع لغطًا فقال: ما هذا اللغط؟ أما بلغهم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ كرفع الصوت عليه فى حياته(١)؟!!

وقال حماد فى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، قال: أرى رفع الصوت عليه بعد موته كرفع الصوت عليه فى حياته، إذا قُرِئَ حديثٌ وجب عليك أن تُنصت له كما تنصت للقرآن(٢).

وسبق قول عمر رضى الله عنه: تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة.

وقال على بن أبى طالب: من حق العالم عليك أن تُسَلِّم على القوم عامة، وتخصه دونهم بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تُشيرَنّ عنده بيدك، ولا تَغْمِزَنّ بعينيك، ولا تقولنّ: قال فلان، خلافًا لقوله، ولا تَغْتَابنّ عنده أحدًا، ولا تُسَارّ فى مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلِحّ عليه إذا كَسِل، ولا تُعْرِض من طول صُحْبته، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء.

وإن المؤمن العالم لأعظم أجرًا من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله، وإذا مات العالم انثلمت فى الإسلام ثُلْمة، لا يَسُدُّها شىء إلى يوم القيامة(٣).

---

(١) الجامع ١/ ١٩٥.
(٢) الجامع ١/١٩٦.
(٣) الجامع ١/١٩٩، وذكره فى التذكرة ص١٠٠.

إن مجالس العلم يُنْزِلُ الله على أهلها الطمأنينة والرحمة، ببركة ما هم فيه، فعلى أهلها أن يلتزموا بالأخلاق الكريمة، والخصال النبيلة، وإلا كانت الشياطين هى التى استولت عليهم، فأخرجتهم من الطمأنينة إلى الاضطراب!! ومن الخشوع إلى الحِدَّة!!

قال رسول الله ﷺ: «ومن سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه علمًا، سَهَّل اللهُ له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قَوْمٌ فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله وَيَتَدَارَسُونَه بينهم إلا نزلت عليهم السَّكِينَةُ وغشيتهم الرحمةُ، وحَفَّتْهُم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بَطَّأَ به عَمَلُه لم يُسْرِعْ به نَسَبُه»[1].

هـ ـ التعرف على مكان الدراسة: فمن الواجب على طالب العلم أن يعرف مكان دراسته، فيعرف:

* **البلد الذى سيدرس فيه،** يعرف طباع أهله، وقوانينهم، وأسلوب حياتهم، وما عندهم من خير وكيف يغتنمه، وما عندهم من شر وكيف يجتنبه، يعرف عنهم ما استطاع حتى لا يفاجأ بمشاكل تعوقه عن الطلب، وحتى يعرف أيسر السبل لبلوغ أهدافه.

إن الله تبارك وتعالى شاء لرسوله ﷺ أن يعرف المدينة جيدًا، قبل هجرته إليها:

فجده هاشم كانت له علاقة طيبة ببعض أهل المدينة، وصلت أن تزوج منهم.

وأنجب من زوجته المدنية هذه ابنه «عبد المطلب» جد رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه مسلم فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤ رقم ٣٨/ ٢٦٩٩.

ولد عبد المطلب فى المدينة وأمضى السنوات الأولى من عمره مع أمه وأخواله بنى النجار فى المدينة.

ووالد رسول الله (عبد الله) كان ينزل المدينة كلما مرّ عليها فى تجارة، ينزل على أخوال أبيه (عبد المطلب).

وزار رسول الله ﷺ المدينة مع أمه وهو فى سن الصبا.

وجاء وفد المدينة إلى مكة فقابلهم رسول الله ﷺ، وعرض عليهم الإسلام.

ثم جاء وفد آخر بعد ذلك بعام فأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ على الهجرة، وأرسل رسول الله ﷺ معهم من يعلمهم الإسلام.

لقد درس ﷺ ظروف المدينة جيدًا، وتعرف على الكثير من شئون أهلها قبل هجرته إليها.

وفى ذلك درس لطلاب العلم والعلماء فى كل زمان أن تكون الفكرة كاملة لديهم عن البلاد التى سيذهبون إليها، فذلك أنفع للطالب، وأجدى للعالم.

* **ويعرف المركز الذى سيدرس فيه**، سواء كان معهدًا أو مدرسة أو جامعة، يعرف علماءه، ومناهجه، ومزاياه وكيف يغتنمها، وعيوبه وكيف يجتنبها، يعرف أنظمته ولوائحه، وسبل الالتحاق به.

إن الله تبارك وتعالى عاب على المشركين عدم إيمانهم برسول الله محمد ﷺ لأنهم يعرفونه بمزاياه العظيمة، التى لا يصح لمن يعرفها إلا أن يؤمن به ﷺ، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[1]،

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٩.

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾(١)، إنه سبحانه يفرض عليهم الإيمان برسول يعرفونه بإيجابياته السامية، فلم يتلكئون؟ وفى هذا درس للمسلم أن يأخذ العلم عمن يعرف استقامة علمه وعمله، يستشير من يعرف من العلماء والطلاب حتى يتخير وفق دراسة وعلم.

قال عبد الله بن مسعود: إن أحدكم لن يزال بخير ما اتقى الله عز وجل، وإذا حاك فى نفسه شىء(٢) أتى رجلاً فسأله فشفاه(٣). وايْمُ الله(٤) لَيُوشِكَنّ ان لا تجدوه(٥)، إن المجتمعات بخير ما كان فيها العالم الذى يوضح المنهج السليم، وعلى طلاب العلم أن يتعلموا من هذا، سواء كان فى بلدهم أم يرتحلون إليه.

و ـ معرفة قدر عملهم: فمن الواجب على طلاب العلم أن يعرفوا قدر ما يعملون، قدر طلب العلم، وأنه فريضة ذات قدر عالٍ، وعليه الأجر العظيم، وأن الرحلة إذا تعينت تصبح فرضًا أيضًا، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فيجب على كل مسلم أن يتعلم ما به يعبد الله عبادة صحيحة، فهذا القدر فرض عين على كل مسلم، أما التخصص فهو فرض كفاية إذا قام به بعض الناس من كل مجتمع فلا إثم على أحد، وهؤلاء المتخصصون مأجورون أعظم الأجر، أما إذا لم يقم به أحد فإن الإثم على الجميع، والرحلة حكمها كذلك، فإذا تعينت لفرض العين أو لفرض الكفاية فهى فرض.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) أى إذا شك فى أمر أحلال هو أم حرام.

(٣) أى سأل عالمًا فأجابه.

(٤) أى ويمين الله.

(٥) أى عما قريب لن تجدوا هذا العالم الذى يعرف الجواب الشافى، وهذا الحديث أخرجه الحاكم فى كتاب العلم باب الدنيا كالثغب ١/ ١٢٢، وصححه ووافقه الذهبى.

إن المسلم يتقرب إلى الله بطلب العلم، وعبادة الله وفق العلم، وبمقدار معرفة فضل العلم والعلماء بمقدار اجتهاد الأمة فى القيام بالطلب، ولقد اجتهد السلف فى الطلب لمعرفتهم قدر العلم والعلماء، ولما ضاعت هذه القضية ضعف العلم، وضاع من الكثيرين، وطلاب العلم أحوج الأمة لمعرفة قدر العلم وأهله، حتى يثقوا بعملهم، ويجتهدوا فيه، إن قدر طلب العلم عالٍ، جاء ذلك فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية، وسبق ذكر شيء من ذلك هنا، وأورد ما يلى:

* قال ﷺ: «إن الله يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بالأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بالليلِ، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[1].

و«الجعظرى» الفظ الغليظ المتكبر و«الجواظ» الجموع للمال الذى لا يتصدق على الفقير، و«سخاب» أو «صخاب بالأسواق» هو الجهورى الصوت بالأسواق. و«جيفة بالليل» أى ينام كثيرًا حتى تتغير رائحة فمه ولا يستيقظ لصلاة أو ذكر، و«حمار بالنهار» لا يطلب العلم الذى يصلح دينه، ثم بين ﷺ أنه سليم الفكر إلا أنه يستعمل قواه فى الدنيا، فقال: «عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة»، هذا الصنف من الناس يُبْغضه الله، الذى لم يهذبه العلم فراح يعيش لشهواته، يتكبر على خلق الله، ويجمع المال لشهواته، همه الدنيا، ولا اهتمام له بالدين، إن طالب العلم إذا علم هذا ظهرت له عظمة طلب العلم فاجتهد فى ذلك.

* وقال ﷺ: «من غدا يريد العلم يتعلمه لله، فتح الله له بابًا إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها[2]، وصلت عليه ملائكة السموات

(١) أخرجه ابن حبان فى العلم باب الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها والجهل بأمر الآخرة ١/ ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) الكنف: الجانب والناحية والظل، والمعنى: تحوطهم الملائكة وتظلهم.

وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء، والعلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنهم أورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّه، وموت العالم مصيبة لا تُجبَر، وثُلْمَةٌ لا تُسَدُّ، وهو نَجْم طُمِس، موتُ قبيلة أيْسَر من موت عالم»[1].

* وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفَصْلِ عِبادِه: إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى»[2].

* وقال ﷺ: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»[3].

* وقال ﷺ: «مَنْ يُرِد اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»[4].

إن الحديث الأول يبين شؤم الجهل، وأن الله يبغض الجاهل الذى ما تعلم دينه، أما الثلاثة أحاديث الأخرى فإنها تبين عظمة العلم، وأن

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، الشعبة ١٧، باب: فضل العلم ٣/ ٢٢٣ رقم ١٥٧٦، وذكره فى الترغيب ١/ ١١٤، وعزاه لأبى داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وليس عندهم «موت العالم..» ثم قال: ورواه البيهقى واللفظ له، قلت: محقق شعب الإيمان ضعف الحديث، والمنذرى ساقه بصيغة الجزم «التقوية» وشواهده تقويه.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير بإسناد رجاله ثقات. كذا فى المجمع ١/ ١٢٦، وذكره فى الترغيب ١/ ١٠٧ بصيغة الجزم «التقوية» ونقل كلام الهيثمى - صاحب المجمع -.

(٣) أخرجه الترمذى فى العلم، الباب الثانى: باب فضل طلب العلم ٧/ ٤٠٦، وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضًا الدارمى والضياء فى المختارة.

(٤) أخرجه البخارى فى العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ١/ ١٦٤ رقم ٧١، وفى غير هذا الموضع.

المخلوقات تسأل الله لطالب العلم الرضا، والله تبارك وتعالى راضٍ عن العلماء، يغفر لهم، ويثيبهم عظيم الثواب، وأن التفقه فى الدين دليل رضوان الله، والعلم خير يمنّ الله به على من شاء من عباده، ييسره له ويلهمه، فإذا عرف طالب العلم ذلك اجتهد فى طلب العلم، وعرف قدر هذا السعى المشكور.

هذه هى الواجبات الأساسية على طلاب العلم، ولقد أفرد بعض علماء الإسلام مؤلفات لهذا الأمر:

* فألف الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر (المتوفى ٤٦٣هـ) كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» ضمنه: فضل العلم، وآداب العالم والمتعلم، والعلوم الأساسية التى يهتم بها طالب العلم من قرآن وسنة، ولغة، ومفهوم علماء الإسلام لذلك، ورسم الخطة لمن أراد التخصص، وتكلم عن آداب المناظرة. كل ذلك وغيره يخرجه بأسانيده، ويحقق فى المسائل التى تحتاج تحقيقًا.

* وألف الخطيب البغدادى المتوفى (٤٦٣هـ) كتابه «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» جمع فيه الكثير والكثير من آداب الطالب والعالم، وبيّن أقوم الطرق فى تحصيل العلم وما يجب على العالم من نشر العلم وتبليغه، والسبيل القويم للتبليغ، لقد جمع فيه الكثير والكثير من الفوائد التى تهم طالب العلم والعالم، كل ذلك بأسانيده، وبتوضيحات غاية فى الإيجاز والإفادة.

* وألف الإمام المحدث إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (المتوفى سنة ٧٣٣) كتابه «تذكرة السامع والمتكلم فى آدب العالم والمتعلم» رتبه على خمسة أبواب:

الأول: فى فضل العلم وأهله، وشرف العالم ونسله.

والثانى: فى آداب العالم فى نفسه، ومع طلبته ودرسه.

والثالث: فى آداب المتعلم فى نفسه، ومع شيخه ورفقته ودرسه.

والرابع: فى مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب.

والخامس: فى آداب سكنى المدارس، وما يتعلق به من النفائس.

وهذه الأبواب كافية للتعريف بالكتاب، ولقد راعى فى الكتاب غاية الإيجاز، وحذف الأسانيد، لكنه جمع فيه كثيراً من الفوائد والدرر.

* وألف الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (المتوفى ٥٦٢هـ) كتابه «طراز الذهب فى أدب الطلب» ثم اختصره فى كتابه «أدب الإملاء والاستملاء».

* وألف الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّى (المتوفى ٣٦٠هـ) كتابه: «أخلاق حملة القرآن» وكتابه: «أخلاق العلماء».

* وألف أبو هلال العسكرى حسن بن عبد الله بن سهل (المتوفى ٤٠٠هـ) كتابه: «الحث على طلب العلم والاجتهاد فى جمعه».

* وألف الإمام أبو عبد الله محمد بن مِفْلح الحنبلى (المتوفى ٧٦٣) كتابه: «الآداب الشرعية» وهو كتاب جامع فى هذا الباب، ذكر الأحاديث وعزاها لمن أخرجها، وتكلم عليها صحة وضعفًا.

* وألف الإمام البخارى محمد بن إسماعيل (المتوفى ٢٥٦) صاحب الصحيح والتاريخ الكبير، كتابه «الأدب المفرد».

* وألف الخطيب البغدادى ـ والذى سبق ذكره ـ كتابه «اقتضاء العلم العمل» وكتابه «الكفاية» وكتابه «الفقيه والمتفقه».

* وألف القاضى الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى (المتوفى ٣٦٠) كتابه «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى».

وهذه الكتب مطبوعة ومتداولة، وأنصح طالب العلم بقراءتها أو قراءة بعضها، وليبدأ بتذكرة السامع والمتكلم فإنه جمع كثيرًا من الآداب مع الإيجاز.

ولبعض علماء زماننا مؤلفات فى هذا الباب أعنى آداب طالب العلم والعلماء، بين يدى من هذه المؤلفات:

* «آداب طالب العلم» للدكتور/ محمد سعيد رسلان.

* وله أيضًا: «مراتب طلب العلم وطرق تحصيله».

* وللشيخ الدكتور/ بكر بن عبد الله أبو زيد كتاب «حلية طلب العلم».

* وللشيخ صالح بن محمد الأسمرى كتاب «منهاج طلب العلم برنامج عملى فى التأصيل العلمى».

* وللأستاذ عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم كتاب «عوائق الطلب»، ختمه برسالة «من آداب المعلمين والمتعلمين» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى.

٤- الواجب على الشيوخ:

والحديث الذى أشرحه هنا، يوصى رسول الله ﷺ فيه الشيوخ بطلاب العلم خيرًا، إذ يقول ﷺ: «إنه سيأتيكم أقوام من أقطار الأرض يَتَفَقَّهُون فى الدين، ويطلبون حديثى، فإذا جاءوكم فأكرِمُوهم»، وفى رواية: «فاستوصوا بهم خيرًا»، وفى رواية ثالثة: «فإذا جاءوكم فعلموهم

والطفوهم، ووسعوا لهم فى المجلس، وفهموهم الحديث».

وواضح من هذا أن على الشيوخ واجبات، منها:

* **معرفة قدر طلاب العلم**: فمن توصية رسول الله ﷺ بهم فى هذا الحديث يتضح أنهم أناس أصحاب قدر عال، ذلك أنهم يقومون بأقدس مهمة فى حياة الأمة، ألا وهى تعلم العلم ونشره، وفى هذا إحياء للإسلام الذى به سعادة البشرية، وقد سبقت نصوص تبين قدرهم، فليعرف ذلك الشيوخ، فإن ذلك مدعاة لإكرامهم، والقيام بحقوقهم.

إن الله سبحانه وتعالى أوصى بطلاب العلم خيرًا وَعرّف بقدرهم، دلّ على ذلك ما ورد أن الناس ازدحموا مرة على باب الحسن البصرى لطلب العلم، فأسمعهم ابنه كلامًا، فقال الحسن: مهلاً يا بُنَىَّ ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1]، لقد فهم الحسن من الآية وجوب إكرام طلاب العلم، وأنهم من الذين أوصى ربنا بهم خيرًا، ﴿فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أى فأكرموهم.

ويقول أبو جحيفة - وهب بن عبد الله السُّوائى من بنى عامر بن صعصعة[2] -: دخلت على النبى ﷺ ورجلان من بنى عامر، فقال: «من أين أنتم؟» فقلنا: من بنى عامر، فقال ﷺ: «مرحبًا بكم أنتم منى»[3].

هكذا يعلمنا رسول الله ﷺ إكرام القادم، فما بالك إذا كان طالب علم.

إن الإسلام أرسى قواعد الأخلاق فنهى عن مساوئها وأمر بمكارمها،

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤، والأثر ذكره ابن رجب فى مقدمة شرح حديث أبى الدرداء ص٣٠، ٣١.
(٢) ترجمته ومصادرها فى سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٠٢.
(٣) أخرجه ابن حبان ١٦/ ٢٨٢ رقم ٧٢٩٣.

وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى والقدوة الطيبة.

* يصفه أنس بن مالك فيقول: «لم يكن النبى سبابًا ولا فحَّاشًا ولا لَعَّانًا، كان يقول لأحدنا عند المَعْتَبة: ما له تَرِبَ جبينه؟»[١].

* وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذىء»[٢].

* وعن معاوية بن الحكَم السُّلَمى قال: بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجل من القوم. فقلت: يرحمُك الله، فرمانى القوم بأبصارهم[٣]، فقلت: وا ثُكْل أُمِّيَاهْ[٤]! واثُكْل أمِّيَاهُ! ما شأنُكم تنظرون إلىَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتُونَنى[٥] لكنى سكَتُّ. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبى هو وأمى ما رأيت مُعَلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرنى[٦] ولا ضربنى ولا شتمنى، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[٧].

هذا شأن رسول الله فى التعليم فليستفد به العلماء، لقد سلك مع الرجل مسلكًا ملك عليه قلبه، حتى نطق الرجل بهذه الكلمات فى مدحه ﷺ، إنه ﷺ علمه بكل حلم.

---

(١) أخرجه البخارى ١٠/ ٤٥٢ رقم ٦٠٣١.

(٢) أخرجه الحاكم ١/ ١٢، ١٣ وصححه، وأخرجه أحمد ٧/ ٦٠ رقم ٣٩٤٨ وصححه محققه، وتقدم عنده ٦/ ٣٩٠ رقم ٣٨٣٩ لكن إسناده منكر من الطريق الثانى هذا.

(٣) أى نظروا إلىَّ نظرة استنكار وزجر.

(٤) يَنْعِى وَاقِعَهُ، وأنه قد هلك كمن فقدته أمه. و«ثكلته أمه» فقدته.

(٥) من صمت بمعنى سكت. أى يُسكِّتوننى، وفى الكلام محذوف تقديره: غضبت.

(٦) كهر وقهر بمعنى واحد، أى ما أخافنى.

(٧) أخرجه مسلم فى المساجد باب تحريم الكلام فى الصلاة ١/ ٣٨١ رقم ٥٣٧.

وعن أبى رفاعة العدوى ـ عبد الله بن الحارث بن أَسِيد المتوفى بكابل سنة أربع وأربعين[١] ـ قال: انتهيت[٢] إلى النبى ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله! رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدرى ما دينُه. قال: فأقبل علىَّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إلىَّ. فأُتِى بكرسى، حسبتُ قوائمه حديدًا. قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يُعَلِّمُنى مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها[٣].

هكذا يحرص ﷺ على تعليم القادم عليه أصول دينه فور المقابلة، حتى إنه ﷺ يتوقف عن الخطبة، ويتفرغ لتعليم الرجل، يضرب المثل للعلماء فى التواضع والرفق ولين الجانب لمن يعلمون.

ولقد أدرك السلف هذه القضية، فاستقبلوا طلاب العلم بالاحترام والإكرام، فها هو أبو سعيد الخدرى الصحابى الجليل راوى الحديث الذى نحن بصدد شرحه يقابل طلاب العلم قائلاً: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «إنه سيأتيكم ناس يتفقهون ويتعلمون فعلموهم». ثم يقول أبو سعيد: مرحبًا. مرحبًا ادنوا[٤]. وكان يبسط لهم رداءه فيقول: اجلسوا على هذا[٥].

وكان عبد الله بن مسعود إذا جاءه طلاب العلم يقربهم ويقول: أنتم دواء قلبى[٦]، أنتم جلاء قلبى[٧].

---

(١) ترجمته فى الإصابة ٧/ ١٣٩.

(٢) وصلت.

(٣) أخرجه مسلم فى الجمعة باب حديث التعليم فى الخطبة ٢/ ٥٩٧ رقم ٨٧٦.

(٤) أخرجه تمام فى فوائده ١/ ١٤٧ رقم ٨٣.

(٥) أخرجه الخطيب فى الجامع ١/ ٣٤٨ رقم ٨٠١.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المدخل للبيهقى ص ٣٧٠ رقم ٦٢٨.

وتقدم قول عمر: تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه، ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يُقَوِّم جهلُكم بعلمكم[١].

وكان الليث بن سعد كثيراً ما يقول لأصحاب الحديث: تعلموا الحلم قبل العلم[٢].

وأثناء طواف عمرو بن العاص حول الكعبة رأى حلقة علم، فتقدم إليهم، وقال: ما لى أراكم نَحّيْتُم هؤلاء الغلمان عن مجلسكم؟ لا تفعلوا، أوسعوا لهم، وأدنوهم، وأفهموهم الحديث، فإنهم اليوم صغار قوم، ويوشكوا أن يكونوا كبار آخرين، قد كنا صغار قوم، ثم أصبحنا كبار آخرين[٣].

لقد أنكر هذا الصحابى على أهل المجلس إبعادهم الناشئة عن مجلس العلم، وأَمَرَهُم أن يجعلوهم فى مجلسهم، وأن يقربوهم ويفهموهم الحديث، وأعلمهم أن هؤلاء الناشئة وإن كانوا وقتئذٍ صغاراً فإنهم بعد فترة سيكونون كباراً، فلْنُعَلِّم الصغير ليفيد وهو كبير.

* **إكرام الطلاب:** وعلى الشيوخ أن يكرموا طلاب العلم، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «فإذا جاءوكم فأكرموهم» والإكرام يكون فى كل نواحى الحياة، فيعرفون الطالب العلم الذى يبدأ به، والشيخ الذى يتتلمذ عليه فيه، ويعرفونه المنهج السوى فى طلب العلم، ثم يترقون به علمًا علمًا، وشيخًا شيخًا، ويساعدونهم فى سبل الحياة السليمة من مسكن ومشرب

---

(١) تقدم ص١٠٤.

(٢) جامع بيان العلم ١/٥٠٩.

(٣) أخرجه البيهقى فى المدخل ص٣٧١، رقم ٦٣١.

وملبس، ووسائل الالتحاق بالهيئات التعليمية، ووسائل تحصيل العلم من كتب وورق وأدوات الدراسة.

إن قوله ﷺ: «فأكرموهم» و«ألطفوهم» و... كل ذلك يلفت نظر الشيوخ إلى الإكرام المادى والأدبى.

فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا رضى الله عنه على اليمن قال: إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموال الناس[1].

هكذا يتدرج الداعى العالم بالمدعوين، مما يبين المنهج السليم لكل مُرَبٍّ، فيبدأ بالعقيدة فإذا عُقِلت انتقل إلى العبادات، بادئًا بالصلاة التى ترتفع بصاحبها فى دينه، ثم الزكاة وهكذا، لا ينتقل إلى الدرجة الثانية إلا إذا استُوعِبت الأولى، ولا ينتقل إلى الثالثة إلا إذا فهمت الثانية وعُمِل بها، وهكذا الشيوخ يعلمون الطلاب تدريجيًا.

وعن على بن أبى طالب قال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب اللهُ ورسولُه[2].

وهذا المعنى وارد كثيرًا، فعلى الشيخ أن يقدم لتلميذه ما يناسبه من العلم، حتى يَتكوّن صحيحًا.

---

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة ٣/ ٣٢٣ رقم ١٤٥٨، وأخرجه مسلم ١/ ٥٠ رقم ٢٩ ـ ١٩.

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا ١/ ٢٢٥ رقم ١٢٧.

* **تعليمهم العمل:** ومما يجب على العلماء أن يعلموا العلم ويعلموا العمل، ذلك أن العمل قرين العلم فى الإسلام، وأيضًا العمل يُعَلَّم كما أن العلم يُعَلَّم، فالعبادة التى هى الغاية من خلق الإنسان كما تكون بالإخبار بذلك، وهذا علم، فإنها تكون بتعليم النشء سر العبادة، وطول النفس فيها، وتعويدهم على النهج السوى فى تأديتها، وهكذا فى كل شىء، يُعَوِّد الشيخ الطالبَ على مكارم الأخلاق مثل كظم الغيظ، وينبه كيف يصير ذلك خلقًا له، ويتابع لمعرفة درجته فى هذه العبادة، ينصحه شيخه ويتابعه حتى يطمئن عليه.

وفى النصوص الإسلامية نماذج لتعليم العمل، منها:

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[2].

فالآية الأولى بينت أن الخلق إنما خلقوا لعبادة الله سبحانه، والثانية نموذج للتربية العملية، وأن الصالحين يقومون الليل اجتهادًا فى العبادة.

وعلّم رسول الله أصحابه الوضوء، ثم تابعهم، فلما رأى واحدًا منهم ترك قدرًا يسيرًا من مؤخرة قدمه لم يغسله، نادى ﷺ قائلاً: «ويل للأعقاب من النار»[3]، إنه ﷺ علمهم وتابع عملهم، فلما رأى شيئًا من المخالفة بين العلم والعمل نبه على ذلك.

ولقد فهم السلف ذلك، فأخرج الخطيب عن عطاء قال: كان فتى يختلف إلى أم المؤمنين عائشة فيسألها وتحدثه، فجاءها ذات يوم يسألها،

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٤.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٦٠، ٩٦، ١٦٣.

فقالت: يا بنى هل عملت بعد ما سمعت منِّى؟ فقال: لا والله يا أمه.
فقالت: يا بنى فبم تستكثر من حجج الله علينا وعليك[1].

٥ـ الواجب على عموم المسلمين:

واضح من حديث الباب أن على المسلمين أن يعملوا على إشاعة العلم، على الأذكياء من الصبية والناشئة أن يوجههم أهلهم لطلب العلم وبلوغ الغاية فيه، وعلى هؤلاء أن يجتهدوا كل الاجتهاد فى طلب العلم، وإذا اقتضى الأمر ترك الأوطان والرحلة ارتحلوا، وعلى الشيوخ أن يبذلوا ما عندهم من علم طيبة نفوسهم بهذا، وعلى كل المسلمين أن يساعدوا طلاب العلم على بلوغ غايتهم، فكل منطقة بها علماء على أهلها أن يوفروا أسباب الحياة الكريمة لطلاب العلم، وعلى أهل الخير أن يحافظوا على هؤلاء من شر منطقتهم، وتوفير خير منطقتهم لهم.

إن طلب العلم مسئولية الأمة كلها، فالناشئة يتعلمون، والعلماء يعلمون، والأغنياء يجودون، والخيِّرون ينصحون.

إن رسول الله ﷺ يحدث كل المسلمين: «سيأتيكم أقوام يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[2] إنه يأمر الجميع أن يتعاونوا مع طلاب العلم، وأن يكونوا خيّرين معهم ما استطاعوا.

ولقد فهمت الأمة ذلك فى القرون الأولى، فكان الصحابة يكرمون طلاب العلم كثيرًا، وكان التابعون فمن بعدهم كذلك، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عُمّاله ـ حكام المناطق ـ أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب[3].

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص٦٠ رقم ٩٢.
(٢) أخرجه تمام فى فوائده ١/١٤٧، رقم ٨٤.
(٣) جامع بيان العلم ١/٦٤٧، رقم ١١٢٣.

وفى الوقت الحاضر تجود بعض الجامعات ببعض المنح الدراسية على أبناء البلاد غير العربية، أو التى مدارسها الشرعية ضعيفة، لكنّا نود من الجامعات وحكام بلادها أن يكثروا من هذه المنح، وأن يتعاون العلماء مع هؤلاء الطلاب، وأن يكرم الحكام وأهل البلاد هؤلاء الطلاب.

إن الدول غير الإسلامية تعطى الكثير من المنح للدول الإسلامية، كى تصبغ أبناء المسلمين بصبغة هذه الدول من علمانية أو عدوانية على الإسلام، أخذوا المبدأ الإسلامى وطبقوه حربًا على الإسلام، والواجب التنبه لهذا، وأن هذه البعثات لم تستقدم خيرًا من الدول غير المسلمة، فلتكن فى بلاد المسلمين استقلالية علمية، فهذا سبيل عزة الأمة وسعادتها.

٦- الحديث النبوى فى هذا الباب:

أحاديث هذا الباب فيها أمران بالنسبة للحديث النبوى، ففيها:

إن طلاب العلم يطلبون الحديث، وهذا وصف لحالهم، وبيان لمرتبة الحديث فى علوم الشريعة، يقول ﷺ: «إنه سيأتيكم أقوام من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ويطلبون حديثى فإذا جاءوكم فأكرموهم»[١] إن قوله ﷺ: «ويطلبون حديثى» ظاهر فى مكانة الحديث، وأن الأجيال ستظل تعرف قدره، وتحرص على تعلمه.

إن علماء الأمة سيظلون على العمق فى دراسة السنة النبوية، تُتَبَادل الدراسات وتُتَنَاقل المعلومات، يقول ﷺ: «فإذا جاءوكم فعلموهم، وألطفوهم، ووسعوا لهم فى المجلس، وفهموهم الحديث». إن تفهيم الحديث غير إسماع الحديث، فالتفهيم مرحلة عالية جدًا، مبنية على

(١) أخرجه الخطيب فى الجامع ١/٣٤٨، رقم ٨٠١.

دراسة وعمق فهم، ويقول ﷺ: «إنه سيأتى بعدى قوم يسألونكم عنى، فإذا جاءوكم فالطفوهم وحدثوهم»[1] إنه ﷺ يأمر بـ «فهموهم الحديث» و«حدثوهم» والتحديث الإسماع، يسمع الشيخ الطلاب حديث رسول الله ﷺ، أما التفهيم فهو شرح الأحاديث، وتوضيحها فى ضوء بعضها، وما فيها من فوائد وفرائد تتعلق بالإسناد والمتن.

ولقد فهمت الأمة هذه الأمور، حتى إن عمرو بن العاص يقول: «وأفهموهم الحديث»[2] وعلى طول تاريخ الأمة تتصدر دراسات السنة النبوية جهود طلاب العلم والعلماء.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

حث الإسلام على طلب العلم، وحضَّ على ارتحال البعض فى سبيله، فاستجابت الأمة لذلك، وتعلم الجميع أصول الإسلام، واجتهد البعض فى التخصص والازدياد، وفى سبيل ذلك ارتحلوا أحيانًا، وهذا أمر عادى فى صدر الدعوة حيث كان الإسلام فى شبابه، والأمة بينها رسول الله يأخذ بيدها، وكان المنتظر أن ذلك يخف ويضعف، فبموت رسول الله ﷺ، وبطول الوقت على الإيمان يضعف الطلب وتختفى الرحلة، إلا أن رسول الله بما آتاه الله من علم يخبر أن هذا الأمر سيستمر، وأن طلاب العلم سيرتحلون من بلادهم إلى البلاد الأكثر علمًا، وأن الحركة العلمية ستظل قوية فى علوم الإسلام، ويعطى ﷺ هذه الحركة دفعة قوية إلى الأمام، دفعة تستمر ما كانت الحياة، فيوصى بطلبة العلم خيرًا، يوصى العلماء أن يكرموهم ويعلموهم ويفقهوهم، ويوصى

(١) فوائد تمام ١/١٤٩ رقم ٨٩.
(٢) تقدم قريبًا ص ١٢٠.

أهالى البلاد الأهلة بالعلم أن يتعاونوا مع هؤلاء الطلاب، وهو ﷺ إذ يوصى بذلك فإنما يبين علو قدر العلم وأهله، ويطمئن المبتدئين أن العلم فى الأمة مستمر فعليهم أن يشمروا.

ويتحقق كل ذلك!! فلا زال الشباب بعضه يحب العلم ويجتهد فى طلبه حتى الرحلة، ولا زال أهل البلاد العامرة بالعلم يقومون بواجب هؤلاء! فسبحان الله ربنا الذى أعلم رسوله بما ستكون عليه أمته بعد مئات السنين، فأخبر ﷺ بما أعلمه ربنا، وها نحن نلمس ذلك ونعيشه.

ويخبر ﷺ فى هذا الحديث أيضًا أن الحركة العلمية فى الحديث النبوى ستظل قوية، وأن طلاب العلم سيحرصون على التفقه فى الدين عامة، وعلى دراسة الحديث خاصة، ويتحقق ذلك أيضًا!! فالحمد لله مدرسة الحديث فى غاية القوة، وطلاب العلم والأمة بأسرها مقبلون عليها غاية الإقبال، علم الرواية يزداد ويشتهر، وعلم الدراية يقوى وينتشر، والإسناد يحرص عليه، وجمع الأحاديث واستقصاؤها فى طريقه إلى الكمال يذكرنا هذا بالقرن الثالث والذى لقب بـ «القرن الذهبى»، وقد يكون هذا القرن - الخامس عشر الهجرى - هو أقوى عصور ازدهار الحديث النبوى والعلوم الشرعية عامة، والحمد لله رب العالمين.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* وجوب الحرص على قوة الحركة العلمية فى الأمة، حتى يتعلم الجميع الإسلام، ويتخصص بعض النبلاء فيه.

* وجوب الحرص على قوة علوم الحياة فى الأمة، حتى تكون الأمة قوية فى هذه العلوم وبها، وإذا احتاجت شيئًا فى ذلك فإنما يكون بالترجمة أو الاقتباس، لا بالرحلة التى تضر ولا تنفع.

* إذا ضعف علم فى منطقة من البلاد الإسلامية فيجب على بعض النبلاء أن يرتحلوا لتحصيله من المناطق القوى بها، ويجب على الجميع التعاون مع هؤلاء، ومن وقف فى وجه ذلك فإثمه إثم كاتم العلم على جماعة، وهو ذنب عظيم.

* فيه معجزة دالة على نبوته ﷺ، إذ أخبر بالرحلة فى طلب العلم، وها هى موجودة كما أخبر ﷺ.

* فيه دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها، فهذا الحديث واقع عملى فى حياة الناس.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الإخبار بظهور الأمراض الفتاكة وشدة الحياة وسطوة الأمم علينا

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِين خَمْسٌ إن ابْتُلِيتُم بهن وَنَزل فيكم، أَعُوذ بالله أن تُدْرِكُوهُن: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِى قَوْمٍ قط حتى يَعْمَلُوا بها إلا ظَهَرَ فيهم الطَّاعُونُ والأَوْجَاع التى لم تكُنْ مَضَتْ فى أَسْلافهم وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَال والمِيزَانَ إلاَّ أُخِذُوا بالسِّنِينَ، وشِدَّة الْمَئُونَة، وَجَوْر السُّلْطَان عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ إلاَّ مُنِعُوا الْقَطرَ مِنَ السَّمَاء، وَلَوْلاَ الْبَهَائمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُوله إلاَّ سَلَّطَ عَلَيْهم عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِى أَيْديهِمْ. وَمَا لَمْ يَحكُمْ أئمتُهُمْ بِكِتَاب الله إلاَّ أَلْقَى اللهُ بأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

● المعانى:

«يا معشر المهاجرين» المعشر: كل جماعة يشملهم وصف واحد،

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب الفتن والملاحم باب ذكر خمس بلاء أعاذ النبى منها للمسلمين ٤/ ٥٤٠، ٥٤١، وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه ابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢، ١٣٣٣ رقم ٤٠١٩، ونقل محققه عن الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به، وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان شعبة: ٢٢، الزكاة، باب التشديد على منع الزكاة ٥/ ٢٢ رقم ٣٠٤٢ و٣٠٤٣ من طريقين أولهما حسن والثانى ضعيف، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣٣٣، ٣٣٤، والحديث له شواهد تصل به لدرجة الصحة، وستأتى أثناء الشرح بمشيئة الله تعالى.

فالشباب معشر، والشيوخ معشر، والمسلمون معشر، وجمع المعشر: معاشر.

والمعشر، والنفر، والقوم، والرهط، معناهم: الجمع، ولا واحد لهم من لفظهم، وفى كتب اللغة أن هذه الألفاظ للرجال دون النساء[١]، وليس الأمر كذلك، فلقد جاء فى كتب السنة استعمال «معشر» مع النساء فقال ﷺ: «يا معشر النساء تَصَدَّقْن وأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَار...»[٢].

«يا معشر المهاجرين» أى يا جماعة المهاجرين. والمهاجر فى اللغة: من هجر وطنه، وأكثر ما تطلق على من رحل من البادية إلى القرية، وأما فى النصوص الشرعية فالمهاجر: من ترك دار الشرك ولحق بدار الإسلام.

وأيضًا: من ترك المعاصى حياء من الله تعالى. ويشهد للمعنى الأول قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٣]، ويشهد للمعنى الثانى قول رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[٤].

و«المهاجرون» هم من هاجر من مكة وغيرها ولحق برسول الله ﷺ بالمدينة أو غيرها من الأماكن، ويقابلهم «الأنصار» وهم أهل المدينة، الذين آمنوا ونصروا دين الله.

هذا معنى «المهاجرين» عند الإطلاق.

---

(١) راجع لسان العرب ٤/ ٢٩٥٥.

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ١/ ٨٦ رقم ١٣٢ ـ ٧٩.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٠.

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/ ٥٥، رقم ١٠.

ولقد جاء لفظ «المهاجرون» فى الحديث الذى معنا على المعنى الثانى لكلمة «مهاجر» فى النصوص الشرعية، والذى هو «ترك المعاصى» فقوله ﷺ فى الحديث الذى معنا: «يا معشر المهاجرين» أى يا جماعة المسلمين ممن ترك المعاصى حياء من الله تعالى. فالخطاب لعموم المسلمين الموجودين فى زمانه ﷺ، دل على ذلك ما جاء فى رواية أخرى للحديث: «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس...»(١).

«خمسٌ» التنوين عوض عن المضاف إليه، أى: خمسُ خصال، وقد جاء مصرحًا بذلك فى رواية أخرى: «يا معشر المهاجرين خصال خمس...»(٢)، وفى رواية: «يا معشر المهاجرين خصال إن ابتليتم...»(٣) فذكر التمييز ولم يذكر العدد، وفى حديث آخر: «خمسٌ بخمس»، أى خمس معاص يقابلها خمس عقوبات.

«إن ابتليتم بهن» أى إن وقعت منكم هذه الذنوب، وعبر بالابتلاء للدلالة على فحش هذه المعاصى.

«ونزل فيكم» فى رواية: «ونزلن بكم»(٤)، وفى رواية: «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس...»(٥).

أى خمس معاص إذا وقعت منكم وظهرت فيكم. والجواب محذوف تقديره: نزلت بكم العقوبات التى سأذكرها لكم. دل على هذا الجواب ذكر المعاصى وعقوباتها بعد ذلك، وأيضًا حديث: «خمس بخمس...».

---

(١) رواية البيهقى الثانية فى شعب الإيمان وتقدم فى صدر الباب ذكر موضعها.
(٢) رواية البيهقى الأولى كما تقدم فى صدر الباب.
(٣) أخرجها فى الحلية ٨/ ٣٣٣، ٣٣٤.
(٤) رواية البيهقى الأولى.
(٥) رواية البيهقى الثانية.

«أعوذ بالله أن تدركوهن» عاذ به، يعوذ عَوْذًا، وعياذًا ومعاذًا: لاذ به، ولجأ إليه، واعتصم[١]، والمعنى: ألجأ إلى الله وألوذ به أن تدركوا هذه الذنوب.

«لم تظهر الفاحشة» الفاحشة والفحشاء والفُحش والفواحش: كل ما اشتد قبحه من الذنوب والمعاصى. قال الله تعالى فى شأن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، يعيب وينكر سبحانه على المشركين أنهم يفعلون الفاحشة والتى هى كل قبيح، ويتعللون بأنهم ورثوا هذا عن آبائهم، والله أمرهم بها، فأنكر الله ذلك عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، والعبرة ليست بما كان عليه الآباء، وإنما بما تقره الفطر السليمة والعقول القويمة، وهكذا ورد لفظ «فاحشة» و«فحشاء» بمعنى المعاصى من كفر وعرى وزنا، وغير ذلك.

وكثيرًا ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٣].

وكل شىء جاوز قدره وحده فهو فاحش، وكل أمر لا يكون موافقًا للحق والقدر فهو فاحشة.

والفحش: ضرب من ضروب الجهل، ونقيض الحلم[٤].

وقوله ﷺ فى الحديث الذى معنا: «ولم تظهر الفاحشة» المراد بها الزنا وأضرابه من لواط وسحاق، بدليل ذكر ذنوب أخرى بعدها من نقص

(١) لسان العرب ٤/ ٣١٦٢.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٨.
(٣) سورة الإسراء، آية: ٣٢.
(٤) الوجوه والنظائر ٢/ ١٢٦، ١٢٧، ولسان العرب ٥/ ٣٣٥٥.

الكيل والميزان، ومنع الزكاة، وعدم العمل بالقرآن والسنة.

«حتى يعملوا بها» نُصب الفعل «يعملوا» بأن مضمرة بعد حتى. نصب بحذف النون. وحتى هنا للغاية بمعنى إلى، أى لم يظهر الزنا فى قوم إلى أن يعملوه علانية إلا ظهر فيهم الطاعون..

و«يعملوا» أى تكثر وتظهر كما جاء فى رواية أخرى «حتى يعلنوا بها»، وفى رواية: «يُعْمل بها فيهم علانية».

«إلا ظهر فيهم الطاعون» هذا الاستثناء «إلا» سبقه نفى وهو «لم تظهر...» والنفى والاستثناء يفيدان القصر، ومعناه التلازم بين ما دخل عليه النفى وما دخل عليه الاستثناء، فلا تظهر الفاحشة، إلا وقع الطاعون والأوجاع، لا يتخلف الثانى عن الأول.

«الطاعون» داء ورمى وبائى، سببه ميكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان. هذا هو الأصل فيه، ثم أصبح يطلق على كل مرض يصيب الكثيرين، سمى بذلك لعموم مصابه وسرعة قتله.

«والأوجاع» جمع وَجَع. والوجع: اسم جامع لكل مرض مؤلم، وعليه فالمعنى: لا تظهر جريمة الزنا فى قوم إلا ظهرت فيهم الأمراض الوبائية التى تصيب وتقتل الكثيرين، وأيضًا الأمراض المؤلمة.

«التى لم تكن مضت فى أسلافهم» أى الأوبئة والآلام التى لم تكن حدثت للأجيال السابقة عليهم. جاء فى حديث ابن عباس: «خمس بخمس...» «ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت»، وفى حديث بريدة: «إلا سلط الله عليهم الموت».

و«أسلافهم» جمع سَلَف، وسَلَفُ الرجل: آباؤه المتقدمون. من سَلَفَ

يَسْلُف سَلَفًا، وسُلُوفًا بمعنى تقدم. وجمع سَلَف: أسلاف وسُلاّف.

«إلا أُخِذُوا بالسِّنين» «السنين» جمع سَنَة، وهى العام. ويقال على العام المجدب أى الذى لم ينزل فيه المطر سَنة، وعليه فمعنى: «أخذوا بالسنين»، أى عوقبوا بأعوام الجدب، فلا ماء ولا زرع ولا ضرع.

«وشدة المئونة» المئونة: القوت. من مأن القوم ومانهم ـ تهمز ولا تهمز ـ قام عليهم. ومأن ومان من المون وهو التعب والشدة. اشتقت من التعب والشدة لما يتحمله القائم على أهله من تعب ومشقة.

ومعنى «شدة المئونة»: قلة القوت، وتعسر الحصول عليه.

«وجور السلطان عليهم» أى واشتداد الولاة والقضاة على الناس.

«القَطْرَ من السماء» القطر: المطر، وأصله: ما سال من الماء، والدمع والصمغ وغير ذلك من قَطَر يَقْطُر قَطْرًا وقُطُورًا وقَطَرَانًا، يتعدى ولا يتعدى، قطر الماء وقطرته أنا، ومن هنا قيّد القطر بـ «من السماء» ليتحدد معناه، وأنه المطر، وأيضًا قوله ﷺ بعد ذلك: «ولولا البهائم لم يمطروا» فهذا يدل على أن «القَطْرَ» إنما المراد به المطر.

ولولا قوله «من السماء» لأفاد عذابًا أشد من ذلك، ولأصبح معناه ما سال لهم سيلٌ من ماء أو دمع أو غير ذلك، وفى ذلك ما فيه من شدة العذاب، نسأل الله العافية.

جاء فى حديث بريدة: «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»[1].

«ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله» أصل النقض فك ما رُكِّب وَوُصِل بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب، وهو مستعمل هنا

(١) أخرجه الحاكم ٢/١٢٦، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى.

مجازًا فى إبطال العهد، شبه إبطال العهد وعدم الالتزام به بنقض البناء - مثلاً - بمعنى: فَكٌ وحداته وحلٌ أربطته.

«عهد الله» شرع الله، مما كلفنا به سبحانه فى القرآن الكريم، من أوامر ونواهٍ، وصفات الصالحين التى يجب أن نكون عليها، وصفات الطالحين التى يجب أن نبتعد عنها.

«وعهد رسوله» سنته ﷺ، مما بيّن عن الله سبحانه وتعالى، فالله قد علّمه، وبيّن له القرآن، وأتم عليه علم الدين، فبلغ ﷺ أمته، وعَهِد اللهُ سبحانه وتعالى إلى الأمة أن يتبعوه، وعَهِد ﷺ إلينا أن نتبعه.

فإذا خالف كثيرون من المسلمين ما كلفنا الله به، وما بيّنه لنا رسول الله ﷺ، فإن الله يسلط عليهم أعداءهم، فيأخذون بعض ما عندهم من ثروات وأرض وعلم وغير ذلك.

«وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله» «الحكم» هنا جعل الأمور العامة من الكتاب، فتُحْكم الأمة بكتاب الله تعالى.

و«الأئمة» الحكّام من الحاكم العام، والقضاة، والمديرين، والعلماء. على هؤلاء جميعًا أن يُجْروا أمور الأمة على ما جاء فى كتاب الله تعالى.

و«بكتاب الله» أى القرآن الكريم بما اشتمله من علوم، فالقرآن الكريم أمرنا الله فيه بالعمل بالسنة النبوية، وبالإجماع، والقياس، فيجب أن يكون المرجع هو القرآن الكريم بما اشتمل عليه من علوم.

«إلا ألقى الله بأسهم بينهم» ألقى بمعنى جعل. و«بأسهم» البأس: الشدة فى الحرب، والمعنى: إذا أجريت الأمور على غير القرآن فإن الله يجعل بأس الأمة بينها، أى أنهم يتحاربون حربًا شديدة، حتى يقتل بعضهم بعضًا.

● **راوى الحديث:**

عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وقد تقدمت ترجمته[١].

● **الشرح:**

يخاطب رسول الله ﷺ أمة الإسلام، ويحذرها خمسة ذنوب، مبيِّنًا شيئًا من عقوبة كل ذنب من هذه الذنوب.

*** شؤم الذنوب:**

إن الذنوب أمور خطيرة مشئومة على حياة الأمة وحياة الأفراد:

* قال الله تعالى ـ بعد أن حكى ذنوب بعض الأمم السابقة ـ: ﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[٢]، يبين سبحانه أنه عاقب الأمم السابقة بذنوبهم وتنوعت العقوبة.

فمنهم من عوقب بإرسال الحجارة عليهم، تحملها الرياح فتلقيها عليهم فتقتلهم بها، وهم أصحاب الفيل وقوم لوط.

ومنهم من عوقب بالصيحة وهى الصوت العالى جدًا كثمود وأصحاب مدين.

ومنهم من عوقب بالخسف انشقت الأرض وابتلعتهم كقارون.

ومنهم من عوقب بالغرق كقوم نوح، وفرعون وقومه.

---

(١) فى شرح حديث: «إذا تبايعتم بالعينة» ج١ ص١٩٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٠، وراجع الآيات قبلها من آية: ١٤.

وهكذا يتضح أن الذنوب خطيرة فى كل الأمم، وهى سُنّةٌ كونية لله فى خلقه.

* وقال سبحانه محذرًا أمة الإسلام: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(١).

وعن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عَمّهم الله بعذاب من عنده»، فقلت: يا رسول الله أما فيهم صالحون؟ قال: «بلى». قلت: فكيف يُصنَع بأولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»(٢).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم أُرسلت عليهم فحملت البدوَ إلى الحضر(٣)، فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا، وكان أهل البوادى فيها، فأُلقى أهل البادية على أهل الحضر حتى هلكوا، قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب»(٤) إن الله فتح عليهم فتحة صغيرة من الريح اقتلعت بلادهم من البادية ورفعتها فى الهواء ثم أرسلتها على الحاضرة، فأهلكتهم هذه الفتحة الصغيرة ودمرتهم.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٢) ذكره فى مجمع الزوائد ٧/٢٦٨، كتاب الفتن، باب فى ظهور المعاصى، وقال: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٣) فى حديث ابن عمر: «فحملت مواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض».

(٤) أخرجه الطبرانى، وفيه مسلم الملائى وهو ضعيف كذا فى مجمع الزوائد ٧/١١٣ فى تفسير «والذاريات» وله شاهد من كلام ابن عباس أخرجه الحاكم فى التفسير فى سورة الأحقاف ٢/٤٥٥ وصححه وأقره الذهبى، وراجع الدر المنثور ٦/٤٤

وفى الحديث الذى معنا يضرب ﷺ أمثلة للذنوب وشؤمها:

١ـ **فالفاحشة** ـ والتى هى الزنا وأضرابه من لواط وسحاق ـ هذه ذنب من أبشع الذنوب، وشؤمها خطير فى الدنيا والآخرة، لقد بلغ من شؤم هذا الذنب أن فاعله يعاقب بأشد العقوبة فيقتل رميًا بالأحجار، ويعلن هذا على الخلائق، والأمة منهية عن أن تأخذها به رحمة، إن الله سبحانه أوصى ولى المقتول أن يعفو عن القاتل، فيأخذ الدية ولا يقتل، أما فى الزانى فنهى عن الرأفة به، وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**﴾[1].

ولقد ورد التحذير والتنفير من الزنا وأن عليه العذاب الشديد فى الآخرة:

* فقال الله تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾[2] فأخبر سبحانه عن فحش الزنا وأنه بلغ الغاية فى القبح، وأنه ﴿**وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ فهو سبيل الهلاك والبوار والافتقار فى الدنيا، وسبيل العذاب والخزى والنكال فى الآخرة.

* وقال سبحانه فى شأن عباد الرحمن الصالحين: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[3]، فبرأ الصالحين من الشرك والقتل والزنا، وأبان أن من يفعل

---

(١) سورة النور، آية: ٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨ ـ ٧٠.

شيئًا من ذلك فإنه يضاعف له العذاب، ويخلد فيه مهانًا، اللهم إلا أن يتوب وتصح عقيدته ويصلح عمله، فيترك هذه الكبائر، مع الندم على ما فعله منها، والعزم على أن لا يعود، وأيضًا يجاهد نفسه فيحملها على الطاعات مجتهدًا فى ذلك، إنه ينجو بهذه التوبة النصوح من شؤم هذه الذنوب.

* وقال ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»[١].

* وقال ﷺ: «من يضمن لى ما بين لَحْيَيْه[٢] وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٣]، أى من يحفظ لسانه من الحرام، ويحفظ فرجه من الحرام، فله الجنة، فإن معظم الذنوب من اللسان بالكذب أو الغيبة أو النميمة أو الاستهزاء.. إلخ، ومن الفرج بالزنا أو اللواط ومقدمات ذلك، وما يتبع ذلك حتى إن الرجل ربما قتل من زنى بها، وربما قتلت الزانية ولدها وكل ذلك خشية العار.

ومفهوم الحديث أن مَنْ لم يحفظ لسانه وفرجه من الحرام، فإنهما يوقعانه فى جهنم.

* وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «التقوى وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار؟ فقال: «الأجوفان الفم والفرج»[٤].

---

(١) أخرجه البخارى رقم ٢٤٧٥ فى المظالم باب النهبى بغير إذن صاحبه ٥/١١٩، ومسلم فى الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ١/٧٦، رقم ١٠٠/٧٥.

(٢) أى فكّيْه وهو اللسان.

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق، باب حفظ اللسان ١١/٣٠٨، رقم ٦٤٧٤.

(٤) أخرجه الترمذى فى البر، باب: حسن الخلق ٦/١٤٢ وصححه. وأخرجه ابن حبان ٢/٢٢٤ =

والنصوص أيضًا تبين شؤم الفاحشة فى الدنيا.

فالحديث الذى معنا يبين أن الفاحشة تجعل الأوبئة والأمراض الفتاكة تحصد الناس، ونصوص أخرى تبين شؤم هذه الجرائم.

ولقد تقدمت الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وهذه تبلغ الغاية فى تصوير شؤم الفاحشة (الزنا وأضرابه) فالله سبحانه يُبين أنها فى غاية القبح؛ وأنها منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب، وحماية الأعراض، وحفظ الكرامة، إنها مصدر تدمير الأسر، وإشاعة الأمراض الخبيثة، مما يجعل الفطر السليمة والعقول القويمة تشمئز منها: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، ويبين سبحانه أن الفاحشة أى الزنا سبيل الهلاك فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

* ويقول ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[1].

* وقال ﷺ: «لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا، فيوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب»[2].

* إن الزنا يترتب عليه غضب الله مما يُشقى العباد ويُنزل بهم العقاب والعذاب.

= رقم ٤٧٦، وأخرجه الحاكم فى الرقاق، باب أكثر ما يدخل الناس الجنة التقوى وحسن الخلق ٤/ ٣٢٤، وصححه ووافقه الذهبى.

(١) أخرجه الحاكم فى البيوع باب: إذا ظهر الزنا والربا فى قرية... ٢/ ٣٧ وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه الطبرانى فى الكبير ١/ ١٧٨ رقم ٤٦٠، والبيهقى فى الشعب ٧/ ٢٩٦، ٣٧٠ رقم ٥٠٣٤ و٥١٤٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤٤/ ٤١٣ رقم ٢٦٨٣٠، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٥٥، وابو يعلى ١٣/ ٦، رقم ١٤ ـ ٧٠٩١، قال فى مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٧: الحديث صحيح أو حسن.

* وقال ﷺ: «إذا ظُلم أهلُ الذمة كانت الدولةُ دولةَ العدو[١]، وإذا كثر الزنا كثر السِّبَاء[٢]، وإذا كثر اللوطية رفع الله يده عن الخلق فلا يبالى فى أى وادٍ هلكوا»[٣].

يحذر ﷺ أن يظلم غير المسلمين وإلا جعل الله السلطة للأعداء، ويحذر من الزنا وإلا أخذ الأعداء الكثير من المسلمين أسرى، ويحذر من اللواط وإلا رفع الله لطفه عن الخلق فراحوا فى المهالك.

وهكذا تبين النصوص أن الفاحشة تؤدى إلى غضب الله وعذابه، وأن الله يعاقب عليها فى الدنيا بالأوبئة والأمراض الفتاكة، حتى يصل ذلك إلى كثرة الموت، ويعاقب عليها أيضًا بضعف الأمة وتسلط الأعداء عليها مما يورث الذل والصغار. نسأل الله العافية.

وفى الفاحشة خسارة فادحة هى أنها دَيْن يدفعه الإنسان فمن انتهك الأعراض انتُهك عرضُه ومن لَوّث الأنساب لُوِّث نسبه!! وهكذا.

قال الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[٤]، وقال ﷺ: «البر لا يبلى والإثم لا يُنسى، والديان لا ينام، فكن كما شئت، كما تدين تدان»[٥].

يقول الإمام الشافعى:

---

(١) أى قوى الأعداء وضعف المسلمون.

(٢) الأسر، أى: أخذ الأعداء كثيرًا من المسلمين أسرى بشؤم الزنا.

(٣) قال فى مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٥: رواه الطبرانى وفيه عبد الخالق بن زيد بن واقد وهو ضعيف. وكذا قال المنذرى فى الترغيب فى كتاب الحدود باب الترهيب من اللواط ٣/ ٤٧٩.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢٣.

(٥) أخرجه البيهقى فى الزهد الكبير ص٢٧٧، رقم ٧١٠ عن أبى قلابة عن رسول الله ﷺ، فهو مرفوع مرسل. وخرجه محققه من مصنف عبد الرزاق ١١/١٧٨، والزهد لأحمد ص١٣٥، ١٤٢، وذكره فى المقاصد ص٥١٩، وفى كشف الخفا ٢/ ١١٥ رقم ١٩٩٤.

عفُّوا تَعف[١] نساؤُكم فى المَحْرَمِ وتجنّبـوا مــا لا يليـق بمسلم
إن الزنـا دَيْنٌ فـإن أقْرَضْتَـــه[٢] كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

وقال:

يا هَاتكًا حُرَمَ الرجــال وقاطعًا سبل المــودة عشـت غير مُكَرَّم
لو كنت حرًا من سلالة ماجدٍ[٣] مــا كنت هتَّاكًا لحرمـة مسلم
من يَزْن يُزْنَ به ولو بجــداره[٤] إن كنـت يا هـــذا لبيبًا فافهم[٥]

إن الحديث الذى نحن بصدد شرحه يحذر الأمة الانحراف عمومًا، سواء الانحراف الفردى أو الجماعى، وقد وضع الإسلام المنهج السوى للتحصين ضد الفاحشة ويتلخص ذلك فى:

أولاً: إشباع الرغبة الجنسية بالطريق الحلال: فحث الإسلام على الزواج، وحث على تيسيره، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[٦].

وقال رسول الله ﷺ: «خير النكاح أيسره»[٧].

---

(١) ضبطه فى الديوان بضم العين من باب كتب، وأنكره فى تاج العروس ٦/٢٠١، وأفاد أنه من باب ضرب لأنه مضعف لازم.

(٢) إن فعلته. جعل الزنا بزوجة آخرَ كأنه أقرضه هذا الزنا، وعليه أن يرده إليه زنا آخر.

(٣) طاهر.

(٤) ببيته.

(٥) ديوان الشافعى ٧٦، ٧٧.

(٦) سورة النور، آية: ٣٢.

(٧) أخرجه ابن حبان فى صحيحه فى كتاب النكاح باب الولى ٩/٣٨١ رقم ٤٠٧٢، وأخرجه أبو داود وغيرهما.

ففى الآية أن على أولياء الأمور أن يُزَوِّجُوا أولادهم وبناتهم، لا يخافون بذلك فقرًا، فالنكاح سبب من أسباب توسعة الرزق، وفى الحديث أن على أولياء الأمور التيسير فى الزواج، فإذا زُوِّج كل من يجد القليل من أسباب الزواج، لم يَبْقَ إلا القلة القليلة المعدمة، وهذه نصحها الإسلام بالصوم، يأكل الفتى أو الفتاة فى اليوم عشر لقيمات مما يضعف الشهوة، وينظم العاطفة.

يقول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[1] أى قامع للشهوة.

ثانيًا: إغلاق باب الحرام: وذلك بتحريم النظر، وتحريم الخلوة، وتحريم الاختلاط، وتحريم المثيرات وتحريم إبداء النساء زينتهن:

* فحرم الإسلام أن ينظر الذكر إلى الأنثى، وحرم أن تنظر الأنثى إلى الذكر، قال الله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾[2]. فأوجب سبحانه على الذكر أن يغض بصره فلا ينظر إلى غير زوجته، وأوجب على الأنثى أن تغض بصرها فلا تنظر إلى غير زوجها.

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة: «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتى أبدلته إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه»[3].

---

(١) أخرجه البخارى ٥٠٦٥، ومسلم ١٤٠٠ كلاهما فى النكاح.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠، ٣١.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٢ عن ابن مسعود. وأخرجه الشهاب فى مسنده =

* وحرم خلوة الذكر بالأنثى، سواء فى سفر أو إقامة، فإن الشيطان يُغْرِى كلاً منهما بالآخر، يقول ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم»[١] ومحرم المرأة مَنْ يحرم عليه زواجها، وشأن هذا أنها من لحمه ودمه فلا يشتهيها ولا تشتهيه، كأبيها، وأخيها، وابنها، وعمها، وخالها، فإن كان لها زوج فيضاف إلى هؤلاء، فلا خلوة إلا ومعها أحد هؤلاء، ولا سفر إلا ومعها أحد هؤلاء.

* وحرم الإسلام الاختلاط بين الذكور والإناث، لما يترتب عليه من كثرة النظر، ونمو الألفة، وتزاحم الأجساد، مما يهيج الغرائز، ويشجع على الفاحشة، يقول ﷺ: «لأن يُطْعَن فى رأس أحدكم بمِخْيَط من حديد خير له من أن يَمَسّ امرأة لا تحلُّ له»[٢].

وحرم الإسلام المثيرات التى تؤجج الغريزة، وترغب فى الفاحشة، كالكلام فى الغرام والعشق والحب، وتكَسُّر أصوات المغنيات بذلك، وظهورهن بملابس مثيرة، وربما فى حركات غاية فى الإثارة نهى الإسلام عن كل ذلك لما يشيعه بين الدهماء من الانحلال والفاحشة.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يشرب ناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير

= ١/ ١٩٥، ١٩٦ عن حذيفة رقم ٢٩٢، وعن ابن عمر رقم ٢٩٣. وأخرجه الحاكم فى الرقاق باب: النظرة سهم من سهام إبليس ٤/ ٣١٣، ٣١٤ عن حذيفة، وفى إسناده عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى ضعيف، مجمع ٨/ ٦٣، وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٥٧ بصيغة الجزم.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤١ فى الحج، والبخارى رقم ١٨٦٢ فى جزاء الصيد.

(٢) أخرجه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح مجمع ٤/ ٣٢٦.

(٣) سورة النور، آية: ١٩.

اسمها يُضْرَبُ على رءوسهم بالمعازف[(١)] والقينات[(٢)]، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»[(٣)].

* وحرم الإسلام أن تبدى الإناث زينتهن لغير الزوج، وأوجب على الأنثى أن تحتشم أمام الرجال الأجانب عنها، الذين هم غير زوجها وأقاربها، فقال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ[(٤)] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ[(٥)] أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ[(٦)] أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ[(٧)] وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٨)].

وقال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[(٩)].

---

(١) الموسيقى.

(٢) المغنيات.

(٣) أخرجه ابن حبان فى كتاب التاريخ، باب: إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن والحوادث ١٥/ ١٦٠.

(٤) أزواجهن.

(٥) من العبيد.

(٦) الرجال الذين ليس لهم قدرة على الجماع.

(٧) الصغار الذين لا يشتهون النساء.

(٨) سورة النور، آية: ٣١.

(٩) تقدم فى باب الإخبار بظهور الجبارين والمتبرجات ج١ ص٢٣٠ من هذا الكتاب.

ثالثًا: غرس الفضيلة والتشجيع عليها: فحث على مكارم الأخلاق، وأمر بالحياء، وأمر بمراقبة الله فى السر والعلن.

وبهذا - بيان شؤم الفاحشة، وشرعية إشباع الغريزة الجنسية بالطريق الحلال، وإغلاق باب الحرام أمامها، وغرس الفضيلة - حصّن الإسلام الفرد والمجتمع من الفاحشة، وما وجدت إلا فى الفترة الأخيرة من عمر الأمة، حينما تركنا هذا المنهج، ورحنا نقلد الأمم الأخرى، من زيادة تكاليف الزواج، ومن تعقيد الزواج، وجعل الرجل مثقل الكاهل فيه، حتى صدرت قوانين ظاهرها إنصاف المرأة، وهى فى الحقيقة تجعل الزواج بغيضًا، فضيق باب الزواج الحلال، وفتح باب الحرام من اختلاط الشباب بالشابات، وكثرة الخلوة، وشاعت المثيرات وتفننت النساء فى إبداء زينتهن، وضيعت الأخلاق، فشاعت الفاحشة وشاعت الأوجاع التى لم تكن فى الأجيال السابقة!!

٢- وفى الخيانة فى الوزن والكيل:

والتى تشمل كل أنواع الظلم فى المعاملات، فى ذلك ما فيه من عقوبات، صرح فى الحديث الذى معنا: «ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم» أى إذا ظهر الكسب الحرام عوقبت الأمة «بالسنين» أى القحط والجدب مما يترتب عليه الكثير من مشاكل الحياة، وعوقبت أيضًا «بشدة المؤنة» وهى تعسر الأمور، وعوقبت «بجور السلطان» فيقسو كل من له ولاية على مَنْ تحت إمرته.

إن الحديث يحذر من الكسب الحرام، وكثير من الآيات والأحاديث تحذر من الكسب الحرام: يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلا يَظُنُّ

أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

إن هذه الآيات فيها زجر عن التلاعب فى حقوق الآخرين، يتوعد الله فيها من يزيدون إذا اشتروا، وينقصون إذا باعوا يتوعدهم الله بالويل والهلاك.

قال أحد الصالحين: ويلٌ، ثم ويلٌ لمن يبيع بحبة يَنْقُصها جنة عرضها السموات والأرض، ويشترى بحبة يزيد بها واديًا فى جهنم، يذيب جبال الدنيا وما فيها[٢].

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[٣].

ويبين ﷺ عقوبة الكسب الحرام:

فيقول ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٥] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنَّى يُسْتَجَابُ لذلك؟»[٦].

---

(١) سورة المطففين، آية: ١ ـ ٦.

(٢) الزواجر ١/٥٦١ آخر الكبيرة رقم ٢٠٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩، ٣٠.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٦) أخرجه مسلم فى الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ٢/٧٠٣، رقم ٦٥/١٠١٥.

وقال ﷺ: «يا معشر التجار إنكم قد وليتم أمرًا هلكت فيه الأمم السابقة المكيال والميزان»(١).

يشير فى هذا الحديث إلى ما أصاب قوم شعيب أصحاب الأيكة و«الأيكة» شجرة كانوا يعبدونها من دون الله، كذبوا رسول الله شعيبًا، وكم ناداهم لتوحيد الله فعاندوا، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان فأبوا، فعاقبهم الله بالحر الشديد سبعة أيام، وجاءت سحابة ظليلة فاجتمعوا تحتها فأججها الله عليهم نارًا!!

يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

وهكذا فإن الخيانة فى المعاملات عقوبتها شديدة، وينشأ عنها كثير من العقوبات فى الدنيا والآخرة. فعلى المسلم أن يعدل فى الكيل والميزان، ولا يغش، ولا يمدح السلعة التى يريد بيعها، ولا يذم السلعة التى سيشتريها، وعليه أن يبين عيب السلعة التى سيبيعها إذا كان بها عيب،

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان شعبة (٣٥) الأمانات ٧/ ٢٢١ مرفوعًا وموقوفًا.
(٢) سورة الشعراء، آية: ١٧٦ ـ ١٨٩.

ولا يستعمل الحلف تأكيدًا فى ذكر مزايا ما يبيع، وعليه أن يدفع للناس حقوقهم ولا يماطل، فإن شك فى حل شىء فليتركه حذرًا من أن يكون حرامًا، جاء بذلك القرآن والسنة[١]، وعلى ذلك كان السلف، وعليه يجب أن نكون.

نسأل الله أن يرزقنا الحلال، ومن دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك وأغننى بفضلك عمن سواك»[٢].

٣- والمعصية الثالثة: منع الزكاة:

وعقوبتها قلة المطر، يقول ﷺ: «ولم يمنعوا الزكاة إلا مُنِعُوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا» جاء فى رواية أخرى: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»[٣]، والزكاة حق الفقير فى مال الغنى، أوجب الله ذلك، يقول سبحانه فى وصف عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤]، أشار ﷺ بمنع الزكاة إلى منع أى حق، فإذا ضُيِّع أىّ حق كانت العقوبة، وأشار أيضًا بمنع المطر إلى منع كل النعم، فإذا ضُيِّعَت الحقوق منع الله نعمه عن الناس.

يضرب ﷺ مثلاً على ذلك الزكاة، فهى حق الفقير، إذا أُدِّيت بارك الله فى المال وحفظه وزاده، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥]، أى خذ

---

(١) راجع شعب الإيمان ٧/١٩٨، ففيه كثير من الآيات والاحاديث، و٦/٤٨٩، والترغيب كتاب البيوع ٢/٩٠٣ إلى ٣/٥٦.

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه.

(٣) ذكره فى مجمع الزوائد ٣/ ٦٥، ٦٦، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات.

(٤) سورة المعارج، آية ٢٤، ٢٥.

(٥) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

منهم زكاة أموالهم فإنها تطهرهم من كل منقصة عقدية أو عملية، فـ«الصدقة برهان»(١) أى دليل على صدق إيمان فاعلها، وبها يُكَفِّر الله ذنوب فاعلها، والزكاة تزكى من جاد بها بمعنى تُنَمِّيه، فيزيد أهله وماله، وعند أخذ الصدقة يصلى عليهم ﷺ ومثله مَنْ بعده من الأمة، يصلى على المُزكِّى أى يدعو له ولأهله، وذلك يورثهم سعادة وطمأنينة.

* أما إذا منعت الزكاة فإنها تخالط المال، وهى حرام على صاحبها، فتفسد ماله!!

يقول ﷺ: «ما خالطت الصدقة مالاً إلا أهلكته»(٢).

ولقد فسر الحميدى هذا الحديث بأنه: قد يكون قد وجب عليك فى مالك صدقة فلا تخرجها، فيُهْلِكُ الحرامُ الحلال.

وفسره أحمد بن حنبل فقال: المراد أن الرجل يأخذ الزكاة وهو غنى عنها، فيضيفها مع ماله إلا أهلكته.

والتفسيران صحيحان، فلا يمنع الغنىُّ زكاة ماله، فإنها وبال عليه، ولا يأخذ ميسور من الزكاة فإنها لا تحل له، وإنما هى للفقراء.

ويقول ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»(٣).

* بل إن منع الزكاة ليس شؤمًا على المال فقط، وإنما هو شؤم على

---

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الحميدى ـ شيخ البخارى ١/١١٥، رقم ٢٣٧، وابن أبى عمر، والبزار، والبيهقى فى شعب الإيمان ٥/١٦٦، ١٦٧، رقم ٣٢٤٦، وفيه تخريجه وأنه حديث ضعيف يعتبر به.

(٣) أخرجه البخارى ٣/٣٠٤ رقم ١٤٤٢، ومسلم ٢/٧٠٠ رقم ٥٧ ـ ١٠١٠ كتاب الزكاة فيهما.

المال والأهل، فكما أبانت الآية السابقة أن إخراج الزكاة خير على الأهل والمال، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، فمفهوم ذلك أن منع الزكاة شؤم على الأهل والمال، وقد صرح بذلك صحيح السنة النبوية، إذ قال ﷺ: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل»[١].

* بل إن منع الزكاة يعاقب الله عليه بقلب الحال، فمن كان يقصده الناس لغناه يقضى لهم مصالحهم إذا منع الزكاة أزال الله عنه الغنى، وجعله لا يستطيع أن يقضى حوائج الناس!! وهكذا.

يقول رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً اختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بالمنافع نقل الله تعالى عنه تلك المنافع إلى غيره»[٢].

* ومنع الزكاة يجعل الإنسان سقيم الرأى يختار الأعسر والخاسر!!

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٣]، والمعنى: إن من بخل بماله فلم يخرج زكاته ولم يعط المحتاج واليتيم والأرملة، وظن أنه فى غنى عن بركة الله، وكذب بما عند الله من الثواب والرضوان، فإن طبيعته تنقلب فيصبح يختار الأشد والخاسر.

* ومنع الزكاة يجعل الإنسان سيئ الملكة، فيختار البخل على السخاء! وقطيعة الرحم على الصلة، والمعاصى على الطاعات، ويختار الكذب

---

(١) أخرجه قوام السنة الأصبهانى ١/٩٨، رقم ١٦٤، وذكره القرطبى فى الزاهر ص١١٤ رقم ١٣٦، وصححه محققه وخرجه.

(٢) ذكره القرطبى فى الزاهر ص١١٣ رقم ١٣٢ وحسّنه محققه وخرجه.

(٣) سورة الليل، آية: ٨ ـ ١٠.

على الصدق، والظلم على العدل، ولربما وصل به الأمر إلى قتل الآخرين، وربما قتل أولاده!!

ويقول ﷺ: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وبالبخل فبخلوا، وبالفجور ففجروا»(1).

ويقول ﷺ: «إياكم والشح، فإنه دعا من قبلكم فسفكوا دماءهم، ودعا من قبلكم فقطعوا أرحامهم، ودعا من قبلكم فاستحلوا حرماتهم»(2).

ويقول ﷺ: «إياكم والبخل، فإن البخل دعا قومًا فمنعوا زكاتهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم، ودعاهم فسفكوا دماءهم»، وفى لفظ آخر: «دعاهم فقتلوا أولادهم»(3).

وهكذا فمعصية منع الزكاة شؤمها خطير، تناولت ما هو منه فى الدنيا من عقوبات، بين حديث الباب أنه بسبب هذه المعصية يُمْنَعُ المطر، ويعم القحط، فتزول النعم، ويهلك المال! والأهل!! وتصبح حياة الإنسان صعبة شاقة، وتُدَمَّر ملكات الإنسان، فيصبح سلبيًا شريرًا، ألا فلنعتبر رجاء رضوان الله سبحانه وتعالى.

٤- بُعْد الأمة عن الكتاب والسنة:

هذه هى المعصية الرابعة، وهى مخالفة الأمة للقرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد ذكر ﷺ عقوبتها: «ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم، وأخذوا بعض ما كان فى أيديهم».

وفى هذا بيان:

(1) أخرجه الحاكم ١/ ١١، وصححه ووافقه الذهبى من حديث عبد الله بن عمرو.

(2) أخرجه الحاكم ١/ ١٢، وصححه ووافقه الذهبى عن أبى هريرة.

(3) أخرجه بلفظيه ابن جرير الطبرى فى تهذيب الآثار كذا فى إتحاف السادة المتقين ٩/ ٧٦٢.

أ - إن الأمة إذا خالفت كتاب الله وسنة رسوله ضعفت، وانهارت قواها: ذلك أن الدين مصدر قوتها وأساس عزتها، إذا تمسكت به أعزها الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1]، أما إذا ابتعدت عنه، وخالفت القرآن الكريم والسنة النبوية فإنها تنتكس وتذهب قوتها، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2].

يقول ﷺ: «يقول الله: وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من أهل قرية، ولا أهل بيت، ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتى ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتى إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتى إلى ما يكرهون من غضبى»[3].

وهذا الحديث تعضده الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4]، وهو يوضحها، فلقد كانت أمة الإسلام على أوامر الله وهَدْى رسوله فأعزها الله، فلما خالفت حُرمت العون الإلهى، تغيروا

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة النحل، آية: ١١٢.

(٣) ذكره فى الدر المنثور ٤/٤٨، وعزاه لابن أبى شيبة فى العرش - وهو فيه ص٦١ رقم ١٩ - وأبى الشيخ وابن مردويه.

(٤) سورة الرعد، آية: ١١.

من الطاعة إلى المعصية، فغير الله حالهم من العز إلى الذل، وعليهم إن أرادوا العز أن يُغيروا حالهم من المعصية إلى الطاعة.

ب - إذا ضعفت الأمة قوى أعداؤها واستأسدوا عليها: وهم حريصون على ذلك جاهدون فيه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١).

جـ - إذا عصت الأمة، وخالفت الكتاب والسنة سلط الله عليها أعداءها: يفسدون ويدمرون كل أسباب الحياة والمَنَعَة فيها، يفسدون أرضها وهواءها، زرعها وثمرها، صناعتها وتجارتها، ويدمرون أشخاصها، ويبعدونها عن دينها، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(٢).

د - إذا عصت الأمة حاربها أعداؤها بكل صنوف الحروب: عسكرية واقتصادية وبشرية، ويبين الحديث أن الأعداء قد ينتصرون نوع انتصار على هذه الأمة، ذلك أن الشأن أنها أمة منصورة، لكن بشرط أن تكون على كتاب الله وسنة رسوله، فإذا خالفت حُرِمت هذه النعمة.

هـ - قد يصل انتصار الأعداء على هذه الأمة أن يأخذوا بعض ما في أيديها: فيأخذوا بعض أرضها، أو بعض ثرواتها، أو بعض مفكريها، ويتدخلوا في شئونها يديرونها حسب مصلحتهم، وفي ذلك من الإذلال للأمة ما فيه!!

وهكذا يوضح الحديث شؤم بُعْدِ الأمة عن القرآن والسنة، لعلها تحذر، حتى تستمر على عزتها.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٧.

٥ـ الحكم بغير ما أنزل الله:

إذا كانت الأحكام العامة التى تنظم حياة الأمة ليست وفق القرآن الكريم، فهذه معصية، وعقوبتها أن تختلف الأمة وتقتتل.

* إن التزام الأمة بالشرع؛ يحكم به قضاتها وولاتها، ويلتزم به علماؤها وعامتها، ويحكم حياتها فى التربية والاقتصاد وكل نواحى الحياة، إن ذلك يجعلها متحدة قوية، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

أما إذا ابتعدت عن الإسلام؛ فاحتكمت إلى غيره، وسارت على غير هديه فإنها تقع فى الشقاق والاقتتال، دل على هذا الحديث الذى معنا، والذى فيه: «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم».

وأيضًا قوله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض[٣]. ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

(٣) أى سود الله قلوب العصاة بذنوبهم وسود قلوب غير العصاة بسكوتهم على عصيان العصاة.

كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١]، ثم قال ﷺ: «كلا، والله لتأمُرُنّ بالمعروف ولتَنْهَوُنّ عن المنكر، ولتأخُذُنّ على يَدَي الظالم، ولتأطرُنّهُ على الحق أطرًا[٢]، ولَتَقْصُرُنّه على الحق قصرًا[٣]، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم لَيَلْعَنَنّكُمْ كما لعنهم»[٤].

هكذا هى سُنّةٌ لله فى ملكه، أيما أمة استقامت على دين الله رحمها الله، فإن انحرفت طردها الله من رحمته، هى سنة الله فيمن قبلنا، وهى سنة الله فينا، فلنلتزم ليرضى عنا وليرحمنا.

ويقول ﷺ: «لا يُقَدّس الله أمة لا يُقْضَى فيها بالحق، ويأخذ الضعيفُ حقّه من القوى غير متعتع»[٥].

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يخبر ﷺ فى هذا الحديث عن خمس كبائر ستحدث فى الأمة بعد زمانه وزمان أصحابه، ويخبر عن عقوباتها، فيخبر أنه:

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨ ـ ٨١.

(٢) أطر العود يأطِرُه ويأطُرُه أطرًا إذا جمع بين طرفيه فأصبح مستديرًا. لسان العرب ١/٩١، والمعنى: لتردن الظالم على الحق أو لتعاقبن جميعًا.

(٣) أى تحبسونه على الحق وتلزمونه به.

(٤) أخرجه أبو داود فى الملاحم باب الأمر والنهى ١١/٤٨٨، وأخرجه الترمذى فى تفسير سورة المائدة ٨/٤١٤، وحسنه، وأخرجه أحمد ٦/ ٢٥٠، وفيه كثير تخريج له.

(٥) ذكره فى مجمع الزوائد كتاب الخلافة، باب: أخذ حق الضعيف من القوى ٥/٢٠٩، وقال: رواه الطبرانى ورجاله ثقات، وذكره فى الزواجر كبيرة ٣٤٣ ـ ٣٤٥.

١ - ستظهر الفواحش من الزنا واللواط والسحاق، وأنه بسبب ذلك ستظهر الأوبئة الفتاكة والأمراض التى لم تكن، مما يضر بصحة الكثيرين ويقتل.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فى زماننا، فكثرت الفواحش، وكثرت الأمراض التى لم تكن، ما بين أمراض القلب، والفشل الكلوى، وتليف الكبد، والسرطان، والإيدز - ضعف جهاز مناعة الجسم - وجلطة المخ والقلب وغيرهما، والقولون، وكثرة الإعاقات، حتى إن الإحصائيات تفيد أن نصف المجتمع الآن معوق!!

لقد أخبر ﷺ أن الفواحش إذا ظهرت فشا الداء العضال، فوقع الأمر كما أخبر ﷺ، وهذا دليل صدقه ونبوته، وعظمة هديه وسنته.

وهو ﷺ إذ يخبر بذلك إنما يقصد أن يحذرنا ذلك، فلنحذر الفواحش فإنها سبب الداء العضال يُبْتَلى به الطالح والصالح، أما الطالح فبشؤم معاصيه، وأما الصالح فبسكوته عن المنكر قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

٢ - ويخبر ﷺ أنه ستظهر الجرأة على الكسب الحرام، من زيادة الكيل والميزان إذا اشترى الإنسان، ونقصانهما إذا باع، ومثل ذلك بقية المعاملات، من مدح السلعة وإعلائها إذا باع ليرفع ثمنها، وذمها وعيبها إذا أراد أن يشترى ليقل ثمنها، ومن أخذ الصانع أكثر من حقه، وعدم إتقانه عمله ومن الرشوة والغش إلى غير ذلك.

يخبر ﷺ أن ذلك سيظهر، وسيترتب عليه شدة الحياة وضنكها،

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

بالقحط والذى هو مشاكل المياه، وبشدة أسباب الحياة، وبجور الولاة، فتتحول الحياة إلى جحيم، ويصبح الناس بعضهم على بعض قسوة.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فى زماننا.

٣ ـ ويخبر ﷺ أن الناس سيمنعون الحقوق عن أصحابها، حتى الزكاة التى هى ركن من أركان الإسلام، يمنعها الكثيرون عن مستحقيها من الفقراء، بعدم إخراجها أو بإعطائها لغيرهم ممن يستحق، والمدين لا يؤدى ما عليه، والشريك لا ينصف شريكه، بل الإنسان لا يتقى الله فى تركته، فيحتال ليجعلها لبعض الورثة دون بعض. حقوق وحقوق تُمنع عن أصحابها، يخبر ﷺ أن ذلك سيحدث، وسيترتب عليه قلة المطر، وفى ذلك الكثير والكثير من المشاكل، ما بين حروب المياه بين الدول، وقلة الزراعة، والتضييق على العمران، وقد يصل الأمر أن لا يفيد الماء فى الزراعة فتُرْوى الأرض ولا تنبت، أو تنبت نباتًا ضعيفًا وشجرًا لا يثمر، مما جعل الكثيرين يأخذون بالتغذية الكيماوية للزراعة، فأورثت الكثير من المشاكل، ما بين الغلاء وما بين الأمراض.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فى زماننا، فمنعت حقوق، وقل الماء، فليتنا نحذر ما حذرناه ﷺ.

٤ ـ ويخبر ﷺ أن أجيالاً ستأتى بعده يضعف فيها العمل بالكتاب والسنة، وسيترتب على ذلك ضعف هذه الأجيال وتسلط أعدائهم عليهم، واستيلاؤهم على خيرات هذه الأجيال.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ، فها هى الأمة تخالف الإسلام، وتنقض عهد الله ورسوله، وأعداؤها يسخرون من ضعفها، ولقد جمعوا جموعهم وجاءوا فاستولوا على كثير من أسباب حياتها، من أرض وثروات،

ودمروا العمران، وأبادوا الأشخاص إما بالمعتقلات، وإما بإشاعة الأمراض بتلوث الهواء والأغذية والماء والأدوية.

ويخبر ﷺ أن الحكام سيخالفون أيضًا كتاب الله، وسيترتب على ذلك اختلاف الأمة واقتتالها، مما يشيع القتل ويضيع الأمان، ويورث الفقر، ويعيق أسباب الحياة.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ، فها هى المخالفات لدين الله، وها هى الحروب بين الطوائف وبين الدول.

● الدروس المستفادة من الحديث:

١ - لكل ذنب عقوبة تتبعه حتى لو بدا هذا الذنب صغيرًا.

٢ - قد تكون عقوبة الذنب فى الأشخاص بالمرض أو الموت، وقد تكون فى أسباب الحياة، فى المياه، وتعقيد الأمور، وشيوع القسوة. وقد تكون من داخل الأمة بتسلط البعض على البعض وقد تكون من الخارج بتسلط الأعداء على الأمة.

٣ - ورسول الله ﷺ إذ يخبرنا بأن الذنوب يتبعها عقوبات إنما يحذرنا الذنوب، فعلينا أن نحذرها فإنها شؤم.

٤ - الانحراف الجنسى عقوبته الأمراض الفتاكة.

٥ - الكسب الحرام عقوبته ضنك الحياة وصعوبتها.

٦ - منع الزكاة وتضييع حقوق الناس عقوبته قلة المياه، أو عدم فائدة الماء مما يجهد البشرية.

٧ - مخالفة الأمة للكتاب والسنة يورث ضعف الأمة واستيلاء غيرها على بعض مقدراتها.

٨ ـ مخالفة أولى الأمر للكتاب والسنة يورث الاختلاف والاقتتال.

٩ ـ عظيم نصحه ﷺ للأمة، إذ حذر وأنذر، وبيّن وأوجز.

١٠ ـ عظمة السنة، فلقد أفادت وبينت، وما جاء بها وجدناه واقعًا فى حياتنا، وآثاره لازمة له، فاللهم صلِّ وسلم على نبيك ورسولك من اصطفيته وعلمته، فبلّغ ودل على كل خير.

* * *

الإخبار برفع العمل وقلة الخشوع

عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن عوف بن مالك أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم، فنظر فى السماء ثم قال: «هذا أوانُ العلم أن يُرْفَعَ» فقال له رجل من الأنصار يُقال له زيادُ بنُ لَبِيد: أَيُرْفَعُ العلم يا رسول الله وفينا كتاب الله، وقد عَلَّمْنَاه أبناءَنَا ونساءَنَا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن كنتُ لأظنُّك من أفقه أهل المدينة» ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب الله عزَّ وجَلَّ.

فَلَقِيَ جُبير بن نُفير شداد بن أوس بالمصلى فحدثه هذا الحديث عن عوف بن مالك فقال: صدق عوف، ثم قال: وهل تدرى ما رفع العلم؟ قال: قلت: لا أدرى. قال: ذهَابُ أَوْعِيَته. قال: وهل تدرى أىُّ العلم أوَّل أن يُرفع؟ قال: قلت: لا أدرى. قال: الخُشُوع، حتى لا تكاد ترى خاشعًا[1].

وعن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يُرْفَعُ من الناس الخشوعُ»[2].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٩/٤١٧ رقم ٢٣٩٩٠ وخرجه وصححه محققه. وأخرجه ابن حبان ١٠/٤٣٣، رقم ٤٥٧٢، و١٥/١١٥ رقم ٦٧٢٠، والطبرانى فى الكبير ١٨/٤٣، رقم ٧٥، والنسائى فى الكبرى ٥/٣٩٢ رقم ٥٨٧٨، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/٥٩٣ رقم ١٠٢٠.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٧/٢٩٥ رقم ٧١٨٣، مقتصراً على هذا القدر وسقته لإثبات أن آخر الحديث الذى قبله إنما هو مرفوع ـ قال فى مجمع الزوائد ٢/١٣٦، رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عمران بن داود القطان ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه أحمد وابن حبان.

وعن جُبَيْر بن نُفَيْر عن أبى الدرداء، قال: «كنا مع النبى ﷺ فشَخَصَ ببصره إلى السماء، ثم قال: هذا أوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ من الناس حتى لا يَقْدِرُوا منه على شىء، فقال زيادُ بنُ لَبِيد الأنصارى: كيف يُخْتَلَس منّا، وقد قرأنا القرآن، فوالله لَنَقْرَأَنَّه، ولنُقْرِئَنَّهُ نساءنا وأبناءنا؟ قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا زياد إن كنتُ لأعُدُّك من فقهاء أهل المدينة؛ هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغنى عنهم؟» قال جبير: «فلقيتُ عُبَادَةَ بنَ الصَّامت فقلت: ألا تسمعُ ما يقولُ أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذى قال أبو الدرداء. قال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لأُحَدِّثَنَّك بأول علم يُرْفَعُ من الناس: الخشوع، يُوشِك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»[1].

وعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «أوّلُ شىْءٍ يُرْفَعُ من هذه الأمة الخُشُوعُ حتى لا تَرَى فيها خَاشعًا»[2].

● **المعانى:**

«فشخص ببصره إلى السماء»: أى أنه ﷺ رفع بصره وحدده إلى السماء، من «شَخَصَ يَشْخَصُ شُخُوصًا» بمعنى ارتفع ارتفاعًا. و«الشُّخُوصُ»: ضد الهبوط، وشخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق، وتحديد النظر وانزعاجه[3].

---

(١) أخرجه الترمذى فى العلم، باب ما جاء فى ذهاب العلم ٧/ ٤١٢، وقال: حسن غريب، وأخرجه الحاكم فى العلم باب هذا أوان يختلس العلم من الناس ١/ ٩٩، وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير، قال فى المجمع ٢/ ١٣٦: وإسناده حسن.

(٣) لسان العرب ٤/ ٢٢١٢.

«هذا أوان»: الأَوان والإِوان: الزمان، والحين. تقول: جاء أَوَان البرد أى زمانه ووقته. وجمع الأَوَان آوِنَةٌ، مثل زمان وأزمنة. وجمعه بعضهم بالتاء، فقال: أوانٌ وأَوَانَات.

«يُخْتَلَسُ العلم» خَلسَ يَخْلِسُ خَلْسًا، من باب ضرب: أخذ ما يراه خيرًا فى غفلة من الغير. والاختلاس كالخَلْس، وقيل: أخص منه.

وعليه فقوله ﷺ هنا: «يُخْتَلَسُ العلم» معناه يُرْفَع العلمُ فى غفلة من الناس.

و«العلم» المراد به هنا العمل. فالعلم فى الإسلام يشمل المعرفة والعمل بما عُلِم. فرفع العلم المراد به رفع العمل بالعلم.

والمعنى أنه ﷺ رفع بصره إلى السماء فرأى فى الكون شيئًا يؤذن بأن العمل بالعلم أوشك أن يُرْفع، فيقل العمل بالعلم شيئًا فشيئًا، فأخبر ﷺ بذلك ليحذر الأمة ترك العمل بالعلم.

«حتى لا يقدروا منه على شىء»: أى حتى لا يستطيعوا العمل بالعلم. وذلك أن العمل يحتاج إلى مران وممارسة وحمل النفس على ما جاء به الشرع، فإذا لم يفعل الناس ذلك جهلوا العمل.

«ثكلتك أمك يا زياد» أى فقدتك أمك، يعنى: مِتَّ. والثُّكْل والثَّكَل: فقدان الحبيب. وأكثر ما يستعمل فى فقد المرأة زوجها وفقد الوالدين ولدهما. وكل الناس سيموتون فكأنه لا دعاء. أو أراد إذا كنت هكذا فالموت خير لك لئلا تزداد سوءًا.

«ضلالة أهل الكتابين» أهل الكتابين هم اليهود والنصارى كما جاء فى حديث أبى الدرداء، وضلالتهم: تركهم العمل بالتوراة والإنجيل.

ويجوز أن يكون من الألفاظ التى تجري على ألسنة العرب ولا يراد بها الدعاء، كقولهم: تربت يداه. وقاتله الله.

«الخشوع» التواضع والسكينة فى الحركة والصوت والبصر، والمراد به فى الحديث هنا: الخشوع لله سبحانه وتعالى، بالخضوع والتذلل، وكثرة الذكر، وكامل الحياء. فهو فى القلب والبدن، وهو أعم من الخشية، فهى من فعل القلب وحده.

• راويا الحديثين:

راوى الحديث الأول:

عوف بن مالك بن أبى عوف الأشجعى الغطفانى أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو محمد، وقيل: غير ذلك.

من نبلاء الصحابة، أسلم سنة سبع، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى الدرداء - راوى الحديث الثانى هنا، وستأتى ترجمته بعد قليل - وشهد عوف بن مالك غزوة مؤتة وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وحث خالدًا على إعطاء أحد أفراد الجيش سلبه، ورُفع الأمر لرسول الله ﷺ بعد عودتهم إلى المدينة، فأيد ﷺ رأى عوف، لكنه حثهم على طاعة أمرائهم[1].

شهد عوف فتح مكة، وكانت معه راية أشجع، وسكن دمشق بعد ذلك.

أحاديثه فى مسند أحمد[2] تدل على قربه من رسول الله كثيرًا، وفهمه الإسلام جيدًا.

(١) راجع مسند أحمد ٣٩/ ٤١٣ رقم ٢٣٩٨٧.
(٢) ج٣٩ ص٣٩١ - ٤٣٣، من حديث ٢٣٩٧٠ - ٢٤٠٠٩.

أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه الأموال[1] عن سويد بن غفلة، قال: لما قدم عمر الشام قام إليه رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أمير المؤمنين إن رجلاً من المسلمين صنع بى ما ترى - قال وهو مشجوج مضروب - فغضب عمر غضبًا شديدًا، ثم قال لصهيب: انطلق فانظر من صاحبه فأتنى به، فانطلق صهيب، فإذا هو عوف بن مالك الأشجعى، فقال: إن أمير المؤمنين قد غضب عليك غضبًا شديدًا، فأتِ معاذ بن جبل فليكلمه، فإنى أخاف أن يعجل إليك، فلما قضى عمر الصلاة قال: أين صهيب، أجئت بالرجل؟ قال: نعم. قال: وقد كان عوف بن مالك أتى معاذًا فأخبره بقصته، فقام معاذ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه عوف ابن مالك، فاسمع منه ولا تعجل عليه. فقال له عمر: ما لك ولهذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار، فنخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعها فصرعت، فغشيها وأكب عليها. فقال: ائتنى بالمرأة فلتصدق ما قلت. فأتاها عوف، فقال له أبوها وزوجها: ما أردت إلى صاحبتنا فقد فضحتنا؟ فقالت: والله لأذهبن معه، فقال أبوها وزوجها: نحن نذهب فنبلغ عنك. فأتيا عمر، فأخبراه بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودى فصلب. وقال: ما على هذا صالحناكم. ثم قال: يا أيها الناس! اتقوا الله فى ذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له. قال سويد: فذلك اليهودى أول مصلوب رأيته صلب فى الإسلام.

وهكذا كانت حمية عوف بن مالك، إحقاقًا للحق، ونصرة للمظلوم.

توفى عوف بن مالك سنة ثلاث وسبعين فى خلافة عبد الملك[2].

---

(١) ص٢٣٥ فقرة رقم ٤٨٦ قبل باب الحكم فى رقاب أهل الصلح.

(٢) ترجمته فى سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٨٧، وفيه مصادر ترجمته، والإصابة ٤/ ٧٤٢ رقم ٦١٠٥.

قال فيه رسول الله ﷺ: «إن الله قد بنى له بيتًا فى الجنة»[١].

راوى الحديث الثانى:

أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الخزرجى الأنصارى الصحابى الجليل.

جمع القرآن كله فى حياة رسول الله ﷺ، أخذه كله سماعًا من رسول الله ﷺ. قال أنس بن مالك: «مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه»[٢].

وأبو زيد هو قيس بن السكن أحد عمومة أنس، وقول أنس: «ونحن ورثناه» الضمير فيه يعود على أبى زيد، أى أنه مات ولم يترك ذرية، فورثه أقاربه.

والحصر فى هذا الحديث إضافى لا حقيقى، بمعنى لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التى نزل بها إلا أولئك، وإلا فقد جمع القرآن كثير من الصحابة، سرد عددًا منهم الحافظ فى «الفتح».

تقدم أبو الدرداء فى العلم والعمل تقدمًا عظيمًا، روى عنه أنه قال: لو أُنسيت آية لم أجد أحدًا يُذَكِّرُنيهَا إلا رجلا بِبَرْك الغماد[٣] رحلتُ إليه[٤].

وكان الصحابة يقولون: أَتْبَعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء[٥].

(١) مستدرك ٣/٥٤٦.
(٢) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب القُرّاء من أصحاب النبى ﷺ ٩/٤٧ رقم ٥٠٠٤.
(٣) برك الغماد موضع بناحية اليمن، وقيل فى أقاصى أرض هجر.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٣٤٢.
(٥) المصدر السابق ص٣٤١.

ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قالوا: أوصنا. فقال: العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما ـ قالها ثلاثًا ـ فالتمسوا العلم عند أربعة: عند عويمر أبى الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام ـ الذى كان يهوديًا فأسلم[١] ـ.

روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ، وعن كثير من الصحابة، وروى عنه كثير من جِلّة الصحابة وكبار التابعين، وله مائة وتسعة وسبعون حديثًا عن رسول الله ﷺ.

عن ابن حَلْبَس، قيل لأبى الدرداء ـ وكان لا يفتر من الذكر ـ كم تسبح فى كل يوم؟ قال: مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع[٢].

وتقدم أبو الدرداء فى الجهاد، وبخاصة فى أحد، فحينما علا المشركون الجبل، قال رسول الله ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يعلونا» فثاب إليه ناس، وانتدبوا[٣]، وفيهم عويمر أبو الدرداء، حتى أدحضوهم[٤] عن مكانهم، وكان أبو الدرداء يومئذ حَسَنَ البلاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم الفارس عويمر»[٥].

وقال ﷺ: «حكيم أمتى عويمر»[٦].

---

(١) المصدر السابق ص٣٤٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٨.

(٣) أى أسرعوا.

(٤) أزالوهم.

(٥) أخرجه ابن عساكر كما فى السير ٢/ ٣٣٨، وقال محققه: مرسل. وذكره فى كنز العمال ١١/ ٧١٩ رقم ٣٣٥١١ وعزاه للطبرانى فى الأوسط، وذكره ابن سعد ٧/ ٣٩٢.

(٦) ذكره فى كنز العمال ١١/ ٧١٨ رقم ٣٣٥٠٨ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن شريح بن عبيد مرسلاً، أخرجه عنه أيضًا فى مسند الشاميين ٢/ ٨٨ رقم ٩٦٧، وأخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، الزوائد ص٣٠٣ رقم ١٠٢٢ عن أبى المثنى المليكى مرسلاً.

ومما أُثر عن أبى الدرداء:

تَفَكُّرُ ساعة خير من قيام ليلة.

أُحب الفقر تواضعًا لربى، وأحب الموت اشتياقًا إلى ربى، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتى[١].

توفى أبو الدرداء بدمشق سنة اثنتين وثلاثين[٢].

● الشرح:

الإسلام دين يرعى الأمة من كل جانب، ويرسم لها الصراط المستقيم فى كل نواحى الحياة، وفى هذا الحديث يبين ﷺ أنه سيحدث بعد فترة من زمانه أن يهمل الناس العمل بالعلم، وأن أول علم وعمل سيرفع من هذه الأمة إنما هو الخشوع.

رفع العمل بالعلم: فى حديث أنس[٣] يقول ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم..».

وبينت هناك أن رفع العلم بزواله من الأمة، وعدم العمل به إنما هو فى آخر الزمان، وهو من علامات القيامة.

أما الحديث الذى معنا فيبيِّن فيه رسول الله ﷺ مرحلة سابقة على ما فى حديث أنس، وهى أن العمل بالعلم سيرفع، بمعنى أن النصوص ستظل فترة طويلة موجودة فى أيدى الأمة، يقيم الله بها الحجة على خلقه، وتعمل بها الفرقة الناجية، أما الكثيرون من الأمة فإن النصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تكون موجودة بأيديهم فى المصاحف

(١) الطبقات الكبرى ٧/ ٣٩٢.

(٢) ترجمته فى سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥، وفيه كثير من مصادر ترجمته.

(٣) فى هذا الجزء ص٨.

والكتب، ولكنهم لا يعملون بها!!

إن العمل بالقرآن والسنة يحتاج إلى فهمهما، ثم الحرص على العمل بهما، يحمل المسلم نفسه على ذلك، ويكرر ذلك مرارًا متأملاً متدبرًا حتى يفهم روح العبادة ويعتادها.

فمثلاً: فَرْضٌ على المسلم أن يصلى، فعليه أن يفهم أحكام وأسرار الصلاة، ويعوِّد نفسه ذلك، ويجاهد نفسه وهواه وشياطينه حتى يألف ذلك ويعتاده، ويدرك الأسرار والدقائق.

وكذلك فى الصيام يحتاج المسلم أن يصوم، فعليه أن يفهم أحكام الصيام وأسراره، ويحمل نفسه على ذلك، فلا يعصى الله أى معصية، ولا يقصر فى طاعة وهكذا.

إن الله سبحانه وتعالى أرى رسوله ﷺ ما جعله يخبرنا أنه قد اقترب رفع العمل، يحذرنا ذلك، ويحثنا على الالتزام به والعض عليه بالنواجذ.

وتساءل الصحابى الجليل زياد بن لبيد الأنصارى، كيف يُرفع العلم، ونحن وأهلنا نقرأ القرآن؟ إن القرآن جمع علوم الدين كلها، وقارئه فاهم للإسلام تمام الفهم، فكيف يُرفع العلم والعمل ونحن نقرؤه؟ وبيّن له الرسول ﷺ أن العبرة ليست بوجود النص، وإنما العبرة بالعمل بالنص، ووضح لك ذلك بأن اليهود بين أيديهم التوراة، والنصارى بين أيديهم الإنجيل، ومع ذلك لم تفدهم النصوص، فالعبرة إنما هى بالعلم الذى يُعْمل به. إن هذا هو العلم المعتبر.

وسمع جبير بن نفير التابعى الكبير(1) هذا الحديث من أبى الدرداء،

(1) جبير بن نفير بن مالك بن عامر الحضرمى، من كبار تابعى أهل الشام، وأجلّهم، مشهور بالعلم، روى عن كبار الصحابة، توفى قبل التسعين بقليل، ترجمته فى تهذيب التهذيب ٢/ ٦٤.

فراح يستوثق من صحابى آخر هو عبادة بن الصامت، فاتفق عبادة مع أبى الدرداء فى الرواية، وأكّد أنه سمع ذلك من رسول الله، وزاد أن هذا الأمر كان شائعًا بين الصحابة، بل ونعرف أول عمل[1] يُرفع: إنه الخشوع.

ولقد روى جبير هذا الحديث أيضًا عن الصحابى الجليل عوف بن مالك الأشجعى، وراح يستوثق أيضًا من صحابى آخر، فاستوثق من شداد بن أوس، فوافق شدادٌ عوفَ بن مالك، وأخبر جُبيرًا أن أول علم يُرفع إنما هو الخشوع، وأن المساجد ـ التى هى بيوت الله، والتى أقيمت لذكر الله والصلاة، والقياس أن يَعُمّ الناسَ فيها الخشوعُ ـ هذه المساجد سيقل فيها الخشوعُ، وربما ضاع!!

الخشوع: هو السكون والتواضع والتطامن، والخشوع لله: لين القلب ورقته، وخضوع البدن كله وانكساره، وهذا ينشأ من دوام الطاعة، وكثرة التقرب إلى الله تعالى.

إنه حال يكون القلب فيه بين الخوف من غضب الله، ورجاء رضوان الله، وينسحب ذلك على الجوارح طمأنينة وتواضعًا، كما قال ﷺ: «ألا إن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[2].

ومن أذكار رسول الله ﷺ فى الركوع: «خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى»[3].

---

(١) يُلاحظ أن العمل بالعلم يسمى أيضًا «علم».

(٢) أخرجه البخارى ومسلم.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٧٧١.

واستعاذ ﷺ من قلب لا يخشع، فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(١).

ولقد مدح الله أنبياءه بالخشوع، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(٢).

قال الحسن البصرى فى تفسير الخشوع: الخوف الدائم فى القلب(٣). وقال: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك البصر، وخفضوا به الجناح(٤).

لقد جاءت آيات تبين صفات الخاشعين، منها:

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(٥).

وقوله سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(٦).

يمشون على الأرض بسكينة، وإذا أذاهم جاهل بكلمة ردوا بكل أدب، إنهم أشداء على أهل الباطل، رحماء بينهم يكثرون الركوع والسجود يرجون رحمة الله ورضوانه، يعلو وجوههم آثار الذكر والعبادة.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٢٢.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.
(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص٥٥، رقم ١٦٨.
(٤) أخرجه الطبرى فى التفسير ج١٨ ص٢.
(٥) سورة الفرقان، آية: ٦٣.
(٦) سورة الفتح، الآية الأخيرة، رقم: ٢٩.

وجاءت آيات تحذر من عكس الخشوع، من غفلة القلب وقسوته، ونفرة الجوارح وشدتها: وفى ذلك بيان للخشوع من باب «وبضدها تتميز الأشياء».

* قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾(١) أى لا تُمِل وجهك عن الناس تكبرًا، وهذا من عدم خشوع طول الجسم.

* وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا﴾(٢)، أى معجبًا بنفسك، وهذا من عدم خشوع القلب.

* وقال سبحانه: ﴿وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾(٣) أى امش بسكينة ووقار، لا ببطء المتكبر، ولا بإسراع الأهوج، فهذان من عدم خشوع الجوارح.

* وقال سبحانه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾(٤)، أى اخفض منه، ولا تكن عالى الصوت فى غير ما حاجة، فعلو الصوت من القسوة وفقدان الخشوع.

ويبين ﷺ الخشوع وعكسه:

* فيقول ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله عزَّ وجَلَّ. ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء العنت»(٥).

الخاشعون أناس بدا عليهم الصلاح والخير، ومن رآهم ذكر الله.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٩.

(٤) سورة لقمان، آية: ١٩.

(٥) أخرجه أحمد ٤٥/٥٧٥ رقم ٢٧٥٩٩، وقال محققه: حسن بشواهده. وراجع مجمع الزوائد ٨/٩٣.

أما غير الخاشعين فألسنتهم فى أعراض الناس والغة، وشرهم يؤذى ويفسد.

* ويقول ﷺ: «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟» فقال رجل: بلى يا رسول الله، قال: «خيركم من يُرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره»(١).

* ويقول سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك ما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس: أخشعهم لله(٢).

خشوع أمة الإسلام:

وورد وصف الأمة الإسلامية بالخشوع، وأنه ينبغى أن يكون حال المسلمين حتى يرضى الله عنهم.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣)، رتب سبحانه المغفرة والجنة على هذه الصفات العشر مما يبين أهميتها وقدرها، والخشوع صفة من هذه الصفات.

* وفى ذلك أيضًا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان ٢/ ٢٨٥ رقم ٥٢٧.

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب فى فضل العلم والعالم ١/ ١٠٧، ١٠٨ بعد رقم ٣٣٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

(٤) سورة النور، آية: ٥٢.

* ويقول سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1]، قال مجاهد: هو الخشوع[2].

ووصل من أهمية الخشوع وقلّته أن الله سبحانه وتعالى عاتب صدر الأمة على عدم الخشوع:

* فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3].

* يقول عبد الله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين[4].

* وعن عبد العزيز بن أبى رواد أن أصحاب النبى ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية[5].

* وكان عبد الله بن عمر إذا تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال: بلى يا رب. بلى يا رب[6]. يقول: آن لنا أن نخشع يا رب، آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك سبحانك.

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٥٦ رقم ١٧٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٤) أخرجه مسلم فى آخر صحيحه رقم ٣٠٢٧.

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ١٤/ ٦٠ رقم ١٧٥٦٤.

(٦) أخرجه ابن المنذر كما فى الدر ٦/ ١٧٥.

قيمة الخشوع:

وجاءت آيات فى القرآن الكريم وأحاديث فى السنة النبوية تبين قيمة الخشية والتى هى لب الخشوع، وقد سبق أن ذكرت آيتين، وأذكر هنا بعض الأحاديث:

* يقول ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع[١]، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم»[٢].

* ويقول ﷺ: «ليس شىء أحبَّ إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله[٣]. وأما الأثران[٤]: فأثر فى سبيل الله، وأثر فى فريضة من فرائض الله تعالى»[٥].

خشوع الصالحين:

ومن هذه النصوص عرف الأنبياء والصالحون قيمة الخشوع وخشعوا، وقد سبق أن ذكرت من ذلك بعضًا، وأزيد:

* يقول رسول الله ﷺ: «أرأيتم سليمان وما أعطى من ملكه فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء تخشعًا حتى قبضه الله»[٦].

---

(١) ولما كان عود اللبن فى الضرع بعيدًا كل البعد فكذلك دخول الباكين من خشية الله النار بعيد كل البعد.

(٢) أخرجه الترمذى، وقال: حسن صحيح. وأخرجه هناد فى الزهد ١/٢٦٨، رقم ٤٦٥ وفيه تخريجه.

(٣) فى الجهاد.

(٤) الأثران مثنى أثر وهو أثر قدم الماشى فى التراب والرمل.

(٥) أخرجه الترمذى وحسّنه.

(٦) أخرجه ابن المبارك فى الزهد زيادات نسخة نعيم ص٤٧ رقم ١٧٦، وهناد فى الزهد ١/٢٦٣ رقم ٤٥٧ وفيه تخريجه.

* وعن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب، وإن كان ليبكى من خشية الله ما لو كان القار[١] على عينيه لخرقته دموعه، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى فى وجهه[٢].

قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: شِبْتَ يا رسول الله، قال: «شَيَّبَتْنِى هود[٣]، والواقعة وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[٤].

ويقول ﷺ: «ما لى وللدنيا، إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها»[٥].

وسُئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ؟ قالت: «وأَيُّكُم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع، كان عمله ديمة»[٦].

وعن أبى سعيد مولى أبى أسيد قال: كان عمر إذا صلى أخرج الناس من المسجد، فأخذ إلينا، فلما رأى أصحابه ألقى الدرة وجلس فقال: ادعوا، فدعوا، قال: فجعل يدعو ويدعو حتى انتهت الدعوة إلىَّ، فدعوت، وأنا مملوك، فرأيته دعا وبكى بكاء لا تبكيه الثكلى فقلت فى نفسى: هذا الذى تقولون إنه غليظ[٧]!!!

---

(١) الزفت.

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الموضع السابق وأخرجه أحمد فى الزهد ص١٥٣.

(٣) سورة هود وفيها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٤) أخرجه أحمد فى الزهد ص٣٢ رقم ٤٥ وصححه وخرجه محققه من الترمذى فى السنن رقم ٣٢٩٧، وفى الشمائل رقم ٤٠، والحاكم ٢/٣٤٣، وأبو نعيم ٤/ ٣٥٠، والبغوى ١٤٧٥.

(٥) أحمد فى الزهد ص٢٨، ٢٩، وفيه تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٦) كان يعمل الصالحات ويداوم عليها، والحديث أخرجه أحمد فى الزهد ص٢٠ وهو عند البخارى ١٩٨٧، ٦٤٦٦، ومسلم ٧٨٣.

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف فى أول الزهد ٦/١٤.

وعن أبى رجاء قال: كان هذا المكان من ابن عباس مجرى الدمع مثل الشراك البالى من الدموع(١).

وعن أبى الدرداء قال: إن القلب يَرْبَدُّ(٢) كما يربد الحديد. قيل: وما جلاؤه؟ قال: بذكر الله(٣).

ورأت أم المؤمنين صفية قومًا قرءوا سجدة فسجدوا فنادتهم: هذا السجود والدعاء فأين البكاء(٤)؟!!

وقال أبو الدرداء: تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قيل: يا أبا الدرداء وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع(٥).

ومن هذا يتضح أنهم فهموا الدين وعملوا به، فتواضعوا لله، رقَّت قلوبهم فبكوا كثيرًا، وزهدوا فى الدنيا واستعدوا للآخرة، فاجتهدوا فى الصالحات، تعلموا فقهها، واحتاطوا من مبطلاتها، وتفانوا فى إيقاعها على خير وجه، وأحسنوا إلى خلق الله، يرجون بذلك رحمة الله.

يقول ﷺ: «ألا أخبركم بأحسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا(٦)، الذين يَأْلَفُون ويُؤْلَفُون»(٧) جمعوا بين حسن الخلق، واللين مع الآخرين، وحبهم للناس وحب الناس لهم.

---

(١) المصدر السابق ص٥، وأخرجه أحمد فى الزهد ص٢٢٥ فى أخبار طلحة.

(٢) اى يصدأ.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى أول الزهد من المصنف ص١٣ رقم ١٧٣٩٦.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى الموطن السابق ص٨.

(٥) المصدر السابق ص٥٩، والزهد لابن المبارك ص٤٦، والزهد لأحمد ص٢١٩.

(٦) التوطئة: التمهيد والتذليل، والأكناف: الجوانب، وهو مثل يضرب للكريم مع الآخرين.

(٧) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ١٠/ ٤٤٠ رقم ٧٧٦٥، وقال محققه: إسناده لا بأس به.

الخشوع فى الصلاة:

وإذا كان الواجب على المسلم أن يكون فى كل حياته خاشعًا لله سبحانه وتعالى، فإنه من آكد الواجب عليه أن يكون خاشعًا فى الصلاة، إن الصلاة عماد الإسلام، والخشوع روحها، فبمقدار ما يخشع العبد فيها بمقدار ما ينال من ثوابها، وفوائدها، وبمقدار ما يعظم إسلامه.

يقول ﷺ: «إن العبد ليصلى الصلاة، ما يكتب له منها إلا عُشْرُها، تُسْعُها، ثُمنُها، سُبْعُها، سُدْسُها، خُمْسُها، رُبْعُها، ثُلُثُها، نِصفُها»[١].

ويقول سفيان الثورى: يُكتب للرجل من صلاته ما عَقل منها[٢].

وعن عمار بن ياسر قال: لا يُكْتَبُ للرجل من صلاته ما سها عنه[٣].

وهكذا: فللإنسان من صلاته ما استجمع فيه قلبه ونيته.

إن الله سبحانه وتعالى مدح المؤمنين بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٤].

ولما كان الخشوع فى الصلاة بهذه الدرجة العالية، فلقد بيّنه ﷺ:

فقال فى حديث عمرو بن عَبَسة ـ بعد أن علمه مواقيت الصلاة والوضوء ـ: «فإن هو قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذى هو له أهل، وفرّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أُمُّه»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣١/١٨٩ برقم ١٨٨٩٤ وصححه محققه، وابن حبان ٥/ ٢١٠ رقم ١٨٨٩.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٦/ ٧١.

(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١، ٢.

(٥) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين باب إسلام عمرو بن عبسة ١/٥٦٩ ـ ٥٧١ رقم ٨٣٢ فى آخر حديث طويل.

وعن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وُضُوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة»[١].

وعن زيد بن خالد الجهنى أن النبى ﷺ قال: «من توضأ فأحسن وضوءه ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما غُفِر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

وعن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفِر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

وواضح من هذه الأحاديث أن الخشوع هو إقبال القلب على الله سبحانه، وانشغاله به عما سواه لا يشغل المصلى عن الله شاغل، فلا يسهو، ولا يحدث نفسه بشىء.

وبهذا فهم السلف الخشوع:

سئل على بن أبى طالب عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فقال: الخشوع فى القلب، وأن تُلين كنفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت فى صلاتك[٤].

وقال عبد الله بن عباس: خائفين لله ساكنين[٥].

---

(١) أخرجه مسلم فى الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء ١/٢٠٩ رقم ١٧ ـ ٢٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة باب كراهية الوسوسة وحديث النفس فى الصلاة ٣/١٧٣ رقم ٨٩١، قال محقق جامع الأصول ٩/٤٠٢: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى الوضوء باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ١/٢٥٩ رقم ١٥٩، ومسلم فى الطهارة باب صفة الوضوء وكماله ١/٢٠٤ رقم ٣ ـ ٢٢٦ وص ٢٠٥ رقم ٤ ـ ٢٢٦.

(٤) أخرجه البيهقى فى الصلاة جماع أبواب الخشوع فى الصلاة ٢/٢٧٩، وأخرجه ابن المبارك ١١٤٨ وعبد الرزاق ٢/٤٣ وابن جرير ١٧/٩ والحاكم ٢/٣٩٣ كذا فى الدر ١٠/٥٥٨.

(٥) ابن جرير ١٧/ ١٠ كذا فى الدر ١٠/٥٥٨.

وقال الإمام مالك: الخشوع: الإقبال على الصلاة.

وقال الحسن البصرى: الخشوع: الخوف.

وقال قتادة: الخشوع فى القلب وإلباد البصر فى الصلاة، أى جَعله إلى موضع السجود.

وقال مجاهد: السكون فيها.

وقال ابن بطال: الإقبال على الصلاة بالقلب والنية، ويريد بذلك وجه الله عز وجل، ولا طاقة له بما اعترضه من الخواطر(١).

صور من خشوع الرسول ﷺ والسلف:

* عن مطرف عن أبيه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يصلى وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ»(٢) كانوا يسمعون صوتًا كصوت الرحى التى يُطحن بها من صدره ﷺ وهو يصلى.

* وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد(٣)، ولقد رأيتنا وما فينا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح(٤).

* وعن عطاء، وعبيد بن عمير أنهما دخلا على أم المؤمنين عائشة، فقال عبيد: أخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله ﷺ. قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالى قال: «يا عائشة ذرينى أتعبّد الليلة لربى. قلت: والله إنى لأحب قربك، وأحب ما سرّك. قالت:

---

(١) يراجع الكبرى للبيهقى الموضع السابق وطرح التثريب ٢/ ٣٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة باب البكاء فى الصلاة ٣/ ١٧٢، وأخرجه النسائى وابن خزيمة وابن حبان.

(٣) المقداد بن عمرو، ويقال له أيضًا المقداد بن الأسود.

(٤) رواه ابن خزيمة فى صحيحه، كما فى الترغيب ١/ ٤٤٩.

فقام فتطهر، ثم قام يصلى. قالت: فلم يزل يبكى حتى بلّ حجرَه، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكى حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكى حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكى، قال: يا رسول الله، لِمَ تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؛ لقد نزلت علىَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾»[1].

هكذا كان خشوعه ﷺ فى الصلاة، كان يتردد صوت البكاء فى صدره، فإذا كان مع آخرين حبسه، وإذا كان وحده أخرجه وبكى، إنه مستحضر عظمة الله، وحاله بين الخوف والرجاء، خشع قلبه فأناب إلى الله يرجوه ويدعوه.

إنه ﷺ جمع بين عدة عبادات: الصلاة، والخشوع، وتدبر آيات القرآن الكريم، والتفكر فى آيات الله فى الكون، فصفا وخشع وبكى كثيرًا.

كان أبو بكر الصديق إذا قام إلى الصلاة كأنه عود، لا يتمايل ولا يلتفت، وذلك من الخشوع فى الصلاة.

وقالت زوجة عمر: كان عمر يصلى صلاة العشاء ثم يأمرنا أن نضع عند رأسه تورًا - إناء - فيه ماء، فيعار من الليل فيضع يده فى الماء، فيمسح وجهه ويديه، ثم يذكر الله عزَّ وجَلَّ حتى يغفى، ثم يتعار حتى تأتى الساعة التى يقوم فيها.

وعن الحسن البصرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يمر بالآية فى ورده فتخنقه فيبقى فى البيت أيامًا يعاد يحسبونه مريضًا.

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران والحديث أخرجه ابن حبان ٢/٣٨٦ رقم ٦٢٠.

وعن عبد الله بن عيسى، قال: كان فى وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء[١].

وعن ابن عمر قال: «غلب على عمر رضوان الله عليه البكاء، وهو يصلى بالناس صلاة الصبح، فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف»[٢].

وعن عبد الله بن الرومى، قال: كان عثمان رحمه الله إذا قام من الليل يأخذ وَضُوءه. قال: فقال له أهله ألا تأمر الخدم يعطونك وضوءك؟ قال: لا، إن النوم لهم يستريحون فيه[٣].

وعن عثمان قال: لو طهرْتم قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عزَّ وجَلَّ[٤].

وعن الزبير بن عبد الله عن جدة له يقال لها زهيمة، قالت: كان عثمان رضى الله عنه يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله[٥].

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن وجهه فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها[٦].

وعن أبى بردة قال: صليت إلى جنب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فسمعته حين سجد وهو يقول: اللهم اجعلك أحب شىء إلىَّ،

(١) آثار خشوع أبى بكر وعمر من الزهد لأحمد.
(٢) مناقب عمر ص١٦٨.
(٣) الزهد لأحمد ص١٢٧.
(٤) السابق ص١٢٨.
(٥) السابق ص١٢٩.
(٦) إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤١ الأصل.

وأخشى شيء عندى.

وقال: ما صليت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا أرجو أن تكون كفارة. وقرأ سورة المطففين فلما بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ - بكى حتى خر - سقط - ولم يستطع قراءة ما بعدها. وما قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ إلا بكى، وقال: إن هذا لإحصاء شديد، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بكى حتى يغلبه البكاء[١].

وعن ابن أبى مليكة قال: صحبت عبد الله بن عباس من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة[٢]، فكان إذا نزل منزلاً قام شطر الليل فأكثر فى ذلك النشيج، قلت: وما النشيج؟ قال: النحيب البكاء، ويقرأ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٣].

حكى بعضهم لعمر بن عبد العزيز أن حجراً من المنجنيق وقع على شرفة المسجد، فطارت فلقة منه فمرت بين لحية ابن الزبير وحلقه، فما زال من مقامه، ولا عُرِف ذلك فى صورته[٤].

وروى أن ابن الزبير كان يومًا يصلى فسقطت حية من السقف، فطوقت على بطن ابنه هاشم فصرخ النسوة، وانزعج أهل المنزل، واجتمعوا على قتل تلك الحية فقتلوها، وسَلِمَ الولد فعلوا هذا كله وابن الزبير فى الصلاة لم يلتفت، ولا درى بما جرى حتى سَلَّم[٥].

---

(١) حلية الأولياء ١/٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) قرابة ألف كيلو، تقطع فى شهر على الأقدام أو على الدواب.

(٣) الآية ١٩ من سورة ق، والأثر أخرجه ابن أبى شيبة فى الزهد ١٤/٦١، ٦٢، رقم ١٧٥٦٩.

(٤) البداية والنهاية ٨/٣٥٩.

(٥) السابق.

وكان على زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الخليفة على بن أبى طالب، كان إذا توضأ اصفرّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذى يعتادك - يصيبك - عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بيْن يَدَىْ مَنْ أريد أن أقوم؟ وربما قال: أتدرون على مَنْ أدخل؟ وبين يدىْ مَنْ أقف؟ ومَنْ أُخَاطِب؟ وماذا يُرَدُّ عَلَىّ[1]؟

وقيل لعامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس - أتُحدِّث نفسك فى الصلاة؟ قال: أُحدِّثُها بالوقوف بين يدى الله، ومنصرفى[2].

وقيل له: إنك تبيت خارجًا - يصلى فى الصحراء - أما تخاف الأسد؟ قال: إنى لأستحى من ربى أن أخاف شيئًا دونه[3].

وصَلَّى مسلم بن يسار الدوسى صلاة الفجر، وقرأ بسورة المدثر، فلما قرأ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[4] خر ميتًا[5]!!! ومعنى الآية: فإذا نفخ فى الصور. وهو القرن الذى وُكِّل به أحد الملائكة، ينفخ فيه لقيام القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[6].

وعن بهز بن حكيم قال: صلى بنا زرارة بن أوفى فى مسجد بنى قشير فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فخر ميتًا!! فحمل إلى داره[7].

---

(١) إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٧.

(٣) السابق.

(٤) الآية رقم ٨.

(٥) سير النبلاء ٤/ ٥١٥.

(٦) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٧) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٢٥٨، ١٥٩، وأيضًا عن أبى خباب عون بن ذكوان، وأخرجه ابن سعد، والحاكم كما فى الدر ٦/ ٢٨٢.

عن مقاتل بن حيان قال: صليت خلف عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[1] فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها ـ يعنى من البكاء ـ.

وقال عبد الأعلى بن عبد الله الغزى: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم جمعة فى ثياب دسمة، ووراءه حبشى يمشى، فلما انتهى إلى الناس، رجع الحبشى، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين، قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ حتى إذا انتهى إلى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[2] فبكى وأبكى أهل المسجد، حتى ارتجّ المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكى معه.

قال حدثنى شيخ من مكة قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يبكى على المنبر، ما يستطيع أن يتكلم من شدة البكاء.

قال: حدثنا أبو معشر عن محمد بن قيس، قال: سلّم عمر بن عبد العزيز يومًا من الظهر، ثم قال: يا أبا إبراهيم ذكرنا الجنة والنار. قال: ذكرت، فما رأيت أحدًا من خلق الله أكثر بكاء منه.

قال أخبرنى شيخ من أهل خراسان قال: لما أراد أبو جعفر بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز إذا أراد بيت المقدس. فقال: يا راهب! أخبرنى بأعجب شىء رأيت من عمر بن عبد العزيز. قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما عمر عندى ذات ليلة على سطح غرفتى هذه وهو من رخام وأنا مستلقٍ على قفاى، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب

(١) سورة الصافات، آية: ٢٤.

(٢) سورة التكوير، الآيات: ١ ـ ١٣.

على صدرى، فقلت: والله، ما عندى ماء، ولا رشت السماء مطرًا. فصعدت، فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب.

قال: حدثنا أصحابنا الحجيون قال: لما رفع عمر بن عبد العزيز رأسه من السجود، خلف المقام، نظروا إلى موضع سجوده مبتلاً من دموعه.

قال: حدثنا أبو المليح، عن ميمون بن مهران، قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[1] فبكى ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[2] ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار.

قال: حدثنا صبيح بن بزيع، عن الأوزاعى، عن ميمون بن مهران، قال: حدثت عمر بن عبد العزيز بحديث فيه شدة فلم يزل يبكى حتى بكى الدم.

ورأى محمدُ بنُ يوسف الفرغانى حاتمًا الأصم واقفًا يعظ فى الناس فقال له: يا حاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى؟ قال: نعم، إذا جاءت الصلاة[3] أسبغت الوضوء[4]، وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه[5]، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى[6]، ثم أقوم إلى صلاتى، وأجعل الكعبة بين حاجبى[7]، والصراط تحت قدمىّ، والجنة عن يمينى، والنار عن شمالى، وملك الموت ورائى، وأظنها آخر صلاتى، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيرًا بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعًا

---

(١) سورة التكاثر، آية: ١.
(٢) سورة التكاثر، آية: ٢.
(٣) أى حان وقتها.
(٤) أى توضأت كما روى عن رسول الله ﷺ.
(٥) وهو المسجد الجامع.
(٦) تهدأ بذكر الله وتخشع.
(٧) كأنى أشاهدها، يتخيل ذلك وما بعده.

بتواضع، وأسجد سجودًا بتخشُّع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهر قدمها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام. وأتبعُها الإخلاص، ثم لا أدرى أقبلت منى أم لا[١]؟ فقال له محمد بن يوسف: تكلم فأنت تحسن تصلى.

ودُعى الإمام البخارى - محمد بن إسماعيل - إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضرت صلاة الظهر صلّى بالقوم، ثم قام للتطوع، فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصى شيئًا؟ فإذا زُنْبُور قد أَبَره[٢] فى ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا، وقد تورّم من ذلك جسده، وكان آثار الزنبور فى جسده ظاهرة، فقال له بعضهم: كيف لم تخرج من الصلاة فى أول ما أَبَرَك؟ فقال: كنت فى سورة فأحببتُ أن أُتمَّها[٣].

وخلاصة القول: إن الأنبياء والصالحين كانوا خاشعين فى صلاتهم، ويظهر هذا فى:

* يعظم كل منهم الوقوف بين يدى الله سبحانه، موقنين أنه سبحانه العظيم المهيمن، يطاع ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر.

* يستعدون للصلاة بالطهارة الحسية من وضوء وغسل وطهارة البدن والملابس والمكان، يتطهرون بفقه ودراية، وبالطهارة المعنوية من طيب المطعم والمشرب والملبس فلا يكون إلا من الحلال، ويستجمع الواحد منهم قلبه وفكره، فيطرد الخواطر اللاهية عن الله، ويحيا بكله مع الله.

---

(١) إتحاف السادة ٣/ ٤٢.

(٢) لسعه.

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ١٢، ١٣، وتهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤٧.

* يقف بين يدى الله، وحاله بين الخوف والرجاء، يتلوّن صفرة وحمرة ويخشع.

* يقف بين يدى الله وبكاء حب الله وإعظامه سبحانه فى القلب والجوارح ظاهر جلى.

* يقف مصليًا وهو مدرك أنه واقف بين يدى الله العظيم، فيهاب ويخضع، حريص أن يكون صادقًا فى عبادته، وأن يتقبلها الله سبحانه وتعالى منه.

* يقف مصليًا وهو مدرك أنه يكلم الله الأعز الأكبر، يرجو أن يكون أهلاً لذلك، ويرجو أن يكون أهلاً أن يتقبل الله منه.

* يتدبر ما يقول وما يفعل؛ فيبكى، ويتدبر ويتدبر، طهّر قلبه فأدرك أسرار كلام ربه، فعاش مع مبانيه ومع معانيه فأحبه، وأقبل عليه كل الإقبال حتى ربما أثرت فيه الآية خشية وخشوعًا يحسبه الناس منه مريضًا.

* يقف مصليًا وهو يدرك معانى كل كلمة وكل حركة فيسعد بهذا كل السعادة، فيكثر من الصلاة، يهجر النوم والراحة، ويقبل عليها، ويصلى كثيرًا وكثيرًا، حتى ربما تورمت الأقدام وتشققت!!

* يقف مصليًا وقد ملأ الخشوع قلبه وبدنه فعاش مع الله، وانصرف عما سواه، حتى إنه ربما أصاب جسمه شىء، كلسعة حشرة فلا يشعر.

* يصلى بإخلاص وصدق، ويلحُّ على الله بقلب خاشع أن يتقبل منه، مدرك قدر الصلاة، وأهمية هذه العبادة.

وإنى أرجو بهذا أن أكون قد وضحت معنى الخشوع فى الصلاة، وأزيد ذلك بالعنوان التالى:

ما ينافى الخشوع:

وإذا كانت النصوص السابقة، وأحوال الأنبياء والمرسلين قد بينت معنى الخشوع، فلقد جاءت نصوص وأحوال تحذر من أشياء لأنها تنافى الخشوع.

فجاء النهى عن الحركة والأمر بالسكون: فعن جابر بن سمُرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما لى أراكم رافعى أيديكم[١]، كأنها أذناب خيل شُمُس[٢]؟ اسكنوا فى الصلاة». قال: ثم خرج علينا فرآنا حلَقًا فقال: «ما لى أراكم عزين»[٣]، قال: ثم خرج علينا فقال: «ألا تَصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟» فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتمُّون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون فى الصف»[٤].

وجاء الأمر بتسوية الصفوف: فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سَوُّوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»[٥].

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصف فى الصلاة فإن إقامة الصف من حُسْنِ الصلاة»[٦].

يأمر ﷺ بالسكون فى الصلاة وهذا من خشوع الجوارح، وينهى عن الحركة كالإشارة باليد فى السلام، ويأمر بتسوية الصفوف وحسن هيئتها، فلا يبدأ الصف إلا بعد اكتمال الذى قبله، وتُسَوّى الصفوف، فذلك من

---

(١) كانوا يسلمون بالكلام والإشارة باليدين.

(٢) جمعه شموس، وهى التى تضرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها.

(٣) جماعات متفرقة.

(٤) أخرجه مسلم فى الصلاة باب الأمر بالسكون فى الصلاة ١/ ٣٢٢، رقم ١١٩ - (٤٣٠).

(٥، ٦) أخرجهما مسلم فى الصلاة باب تسوية الصفوف ١/ ٣٢٤ رقم ١٢٤، ١٢٦.

تمام وحسن الصلاة.

وجاء النهى عن رفع البصر إلى السماء فى الصلاة: فعن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، أو لا ترجع إليهم»[1].

وعن أم سلمة زوج النبى ﷺ أنها قالت: كان الناس فى عهد رسول الله ﷺ إذا قام المصلى يصلى لم يَعْدُ بصرُ أحدهم موضع قدميه، فلما توفى رسول الله ﷺ فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر، وكان عمر فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة. وكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة، فتلفت الناس يمينًا وشمالا[2].

وجاء النهى عن التلفت فى الصلاة: فعن أم المؤمنين عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة، فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[3].

وهكذا يبتعد المصلى عن الموانع من الخشوع، فلا حركة ولا التفات، ولا يرفع بصره إلى السماء، وإنما اطمأن وخشعت جوارحه، وتأتى نصوص أخرى لتبعد المسلم عن عدم خشوع القلب:

فجاء النهى عن الخشوع الظاهرى: فعن محمود بن لبيد ـ صحابى ـ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: خرج النبى ﷺ فقال: «أيها الناس إياكم وشرك السرائر. قالوا: يا رسول الله! ما شرك السرائر؟

---

(١) أخرجه مسلم فى الصلاة، باب: النهى عن رفع البصر إلى السماء ١/ ٣٢١، رقم ٤٢٨/١١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ١/ ٥٢٣، رقم ١٦٣٤، وفى إسناده مقال.

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان باب الالتفات فى الصلاة ٢/ ٢٣٤، رقم ٧٥١.

قال: يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته جاهدًا لما يرى من نظر الناس إليه، فذاك شرك السرائر»[١].

وعن أبى الدرداء قال: استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرَى الجسدُ خاشعًا، والقلب ليس بخاشع[٢].

وجاء النهى عن الصلاة مع الشواغل: فعن أم المؤمنين عائشة أن النبى ﷺ صلى فى خميصة[٣] لها أعلام، وقال: «شغلتنى أعلام هذه، فاذهبوا بها إلى أبى جهم وائتونى بإنبجانية»[٤].

إن الرسوم والتطريزات فى الملابس والمفارش نُهِىَ عنها حتى لا تشغل المصلى، وكذلك الرسوم والألوان فى المساجد والأماكن التى يُصلى فيها.

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، قالت: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان» فإذا أُعِدّ الطعام فليتناول الإنسان طعامه أولاً ثم يصلى، لأن حاجته للطعام تُضْعِفُ خضوعه، وكذلك إذا كان بحاجة لقضاء حاجته من بول أو غائط، فليقض حاجته أولاً ثم يتوضأ ويصلى، لأن صلاته وهو يدافع البول أو الغائط يَضْعُف خشوعها أو يزول.

وهكذا حافظ الإسلام على خشوع القلب، فأمر بالبعد عن كل ما

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه ٢/ ٦٧، رقم ٩٣٧ عن محمود بن لبيد عن رسول الله ﷺ، ومحمود بن لبيد صحابى صغير، جل روايته عن الصحابة، وأخرجه البيهقى ٢/ ٢٩٠، ٢٩١ عن محمود عن جابر.

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد ص١٤٢، وفى طبعة الجيل ص٢١٩ رقم ٧٦١، وأخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف كتاب الزهد ١٤/ ٥٩ رقم ١٧٥٦٠، وأخرجه ابن المبارك فى الزهد ص٤٦ رقم ١٤٣.

(٣) الخميصة: كساء مربع من صوف.

(٤) أخرجه مسلم فى المساجد باب كراهية الصلاة فى ثوب له أعلام ١/ ٣٩١، رقم ٦١/ ٥٥٦.

يضعفه، من مراعاة الناس، وكل ما يجذب الانتباه من مناظر جذابة، أو أمر تتوق النفس إليه، أو تحمل مشقة، كل ذلك كى يوفر للقلب أبواب الخشوع. وحافظ على خشوع البدن فأمر بالسكون، وعدم الحركة والتلفت، ونهى عن رفع البصر إلى السماء.

حكم الخشوع فى الصلاة:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] رتب سبحانه فلاح المؤمنين على الخشوع فى الصلاة، مما يفهم منه أن الخشوع فى الصلاة واجب.

قال القرطبى: اختلف الناس فى الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكمِّلاتها؟ على قولين، والصحيح الأول[2].

إن القول بأنه من فرائض الصلاة وهو القول الصحيح يترتب عليه أن الصلاة بدون الخشوع باطلة. وأما على القول بأن الخشوع من فضائل الصلاة ومكملاتها فالصلاة بدونه ناقصة.

والقول بوجوب الخشوع يدل عليه أحاديث كثيرة، تقدم كثير منها، وأزيد ما يلى:

فعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم تَحْضُرُه صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يُؤْتِ كبيرة، وذلك الدهر كلّه»[3].

---

(1) سورة المؤمنون، آية: 1، 2.

(2) تفسير القرطبى 12/104.

(3) أخرجه مسلم فى الطهارة باب فضل الوضوء 1/206 رقم 7/228.

وعن عبادة بن الصامت قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خمس صلوات افترضهن الله عزَّ وجَلَّ، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، وأتمّ ركوعهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[١].

وعن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى ركعتين أو أربعًا - شك سهل - يُحْسِنُ فيهما الذكر والخشوع، ثم استغفر الله عزَّ وجَلَّ غُفِر له»[٢].

وعن عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فأتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها، قالت: حفظك الله كما حفظتنى، ثم أُصعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور، وفُتحت لها أبواب السماء، وإذا لم يحسن العبد الوضوء، ولم يتم الركوع والسجود والقراءة قالت: ضيّعك الله كما ضيعتنى، ثم صُعِد بها إلى السماء، وعليها ظلمة، وغلقت أبواب السماء، ثم تُلَفُّ كما يلف الثوب الخلق، ثم يضرب بها وجه صاحبها»[٣].

هكذا تفيد النصوص وما قبلها أن خشوع البدن والقلب أصل من أصول الصلاة، إذا تَوفّر فيها آتت ثمارها، أما إذا لم يتوفّر فيها فإنه يكون قد ضيعها.

---

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة، باب المحافظة على الصلوات ٢/ ٩٣، وقال شارحه: رواه أحمد، وروى مالك والنسائى نحوه.

(٢) أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٣١، وحسنه محققه وخرجه.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير، والبزار بنحوه، وفيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المدينى والعجلى، وضعفه جماعة، وبقية رجاله موثقون، كذا فى مجمع الزوائد ٢/ ١٢٢.

إن المسلم عليه أن يحسن الطهور، وأن يعطى الصلاة حقها من الطمأنينة فى الركوع والسجود والاعتدال فى الرفع من الركوع، وتمام الجلوس بين السجدتين، وعليه أن يحسن القراءة، ويتأمل معناها ومعنى الأذكار، ثم هو متأمل لكل ما يقول ويفعل، يعيش مع صلاته، متوجهًا إلى الله سبحانه، مقبلاً عليه سبحانه بكل قلبه.

• أسباب الخشوع:

وللخشوع فى الصلاة أسباب توصل إليه، مَنْ حَرَص عليها خشع، ومن حاول معرفة ما يورث الخشوع وصل، وبحمد الله توجد فى المكتبة الإسلامية الآن عدد من الكتب التى تناقش هذا الأمر، والمقام لا يتسع أن أذكر كل ما فيها. فأذكر أهم الأسباب:

١ ـ **العلم والعمل**: من أهم أسباب الخشوع فى الصلاة أن تتعلم الصلاة وتتفقه فيها، من الطهارة لها، وكيفية أدائها، وبم تصح، وما يبطلها.

فإذا تعلمت أحكامها فتعلم أداءها؛ فاضبط طهارتك على القرآن والسنة، وتعلم ذلك، وصلِّ وفق القرآن والسنة وتعلم ذلك.

واعلم أنك تحتاج إلى معرفة فقه الصلاة، وتحتاج إلى معرفة كيف تؤدى هذا الفقه، وكلما صليت مستحضرًا الأحكام، حريصًا على تأديتها على هَدْى رسول الله ﷺ، متأملاً أحكامها، متدبرًا أداءها كلما خشعت فيها.

خذ مثلاً: أنت تحتاج أن تعرف هيئة الركوع، وأذكار الركوع، وتحتاج أن تدرب نفسك على الركوع وفق ما تعلمت، وتتدبر أذكار الركوع حتى تعرف معناها وأسرارها.

وهكذا فالعلم، والعمل بالعلم أهم أسباب الخشوع فى الصلاة، وفى كل عبادة وخلق نحتاج العلم، ونحتاج أن نتعلم العمل بهذا العلم، حتى نكون من الخاشعين.

٢ - معرفة وجوب الخشوع ومزاياه: ففى القرآن الكريم آيات تبين وجوب الخشوع ومزاياه، وكذلك فى السنة النبوية أحاديث تبين ذلك، وقد سبق أن ذكرت بعض ذلك، فإذا عرفت أن الخشوع من فروض الصلاة، وأن الصلاة التى تقبل إنما هى صلاة الخاشعين حرصت على الخشوع وبُلّغْتَه إن شاء الله تعالى.

٣ - ومما يورث الخشوع جيداً استحضار أنك بين يدى الله سبحانه، وأنه سبحانه مطلع عليك، وأنك تناجيه سبحانه، تأمل قراءتك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَنْ تخاطب؟ إنك تخاطب الله!! وتأمل قولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مع مَنْ تتكلم؟ مع الله!! وأنت حينما تكلم الله يَرُدُّ سبحانه عليك!!

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل.

فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى: حمدنى عبدى.

وإذا قال: الرحمن الرحيم.

قال الله تعالى: أثنى علىَّ عبدى.

وإذا قال: مالك يوم الدين.

قال الله: مجَّدنى[١] عبدى، وقال مرة: فوّض إلىَّ عبدى.

وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين.

قال الله: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل.

فإذا قال العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قال الله: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل[٢].

وأيضًا فأنت حينما تدعو الله سبحانه وتعالى فإنه يستجيب لك، فاستحضر أنك تسأل الله الكريم، واستحضر أنه مقبل عليك، وأنه قريب منك، ويستجيب دعاءك.

* يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣] والعيش مع هذه الآية يورث الخشوع فى الصلاة وفى غيرها.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[٤].

٤ ـ الاجتهاد فى الذكر والدعاء: فاذكر الله فى ركوعك كثيرًا، وفى سجودك اذكر الله كثيرًا، وادع الله كثيرًا، وكان الصحابة يعدون لرسول الله ﷺ خمسين تسبيحة فى الركوع ومثلها فى السجود إذا صلى وحده، ويعدون له عشر تسبيحات إذا صلى إمامًا.

---

(١) عظّمنى.

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة ١/ ٢٩٦ رقم ٣٨/ ٣٩٥.

(٣) سورة ق، آية: ١٦.

(٤) أخرجه مسلم فى الصلاة باب: ما يقال فى الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ رقم ٢١٥/ ٤٨٢.

إن الإكثار من ذكر الله يُبعد عنك الشيطان، ويُصلح فساد القلب، وبه تُشرِق الأنوار فى قلبك وبدنك، فاحرص واجتهد فى ذكر الله، وتعلم صيغ الذكر الواردة فى القرآن والسنة، وتعلم الأدعية الواردة فى القرآن والسنة، وتعلم معانيها فإن ذلك يحببك فى الصلاة والذكر والدعاء، ويجعلك خاشعًا لله متقربًا إليه سبحانه وتعالى. قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[2].

٥ ـ حفظ القرآن والأحاديث: من فضل الله علينا أن يَسَّر علينا حفظ القرآن الكريم، ويَسّر العلم عمومًا، فاحفظ القرآن تسعد بقراءته وبخاصة فى الصلاة، تتدبره وتخشع، تتفهم معانيه فيُقَوِّمك، واحفظ الأحاديث النبوية تسعدك بفهم العقيدة، وصحة العبادة، تجعلك تذكر الله كما ذكره رسول الله ﷺ، تعرف الأذكار التى قبل الصلاة، والتى عند القيام إلى الصلاة، والتى بعد تكبيرة الإحرام، وتعرف أذكار الركوع، وأذكار الرفع من الركوع، وأذكار السجود، تذكر ربك بالصيغ التى ذكره سبحانه بها رسول الله ﷺ، تتأمل معناها، وتتدبر أسرارها، فيورثك ذلك الخشوع فى الصلاة، وفى كل الحياة.

٦ ـ إزالة ما يشغلك عن الصلاة: وقد تقدم قبل قليل الكلامُ على ما ينافى الخشوع، فلا تُنْقَش المساجد، ولا توضع فيها تصاوير أو زينات، ولا نلبس الملابس التى فيها رسومات أو كتابة، ولا نصلِّ فى أماكن الضوضاء، واحذر الصلاة بجانب المتحدثين ومجالس اللهو واللعب، ولا

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٢.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

تصل والنوم يغالبك، ولا تصل وقد ثقل عليك البول أو الغائط، ولا تصل فى مكان شديد الحرارة أو البرودة.

إن التخلص من هذه الأشياء وما ماثلها مما يشغل عن الصلاة يساعدك على الخشوع فى الصلاة.

٧ - حذار مما لا ينفع: فاحذر الكلام الذى لا ينفع، والعمل الذى لا يفيد، فإن ذلك تشويش على الخشوع، ومضيعة للوقت، ويؤدى إلى قسوة القلب!!

إن الله سبحانه وتعالى مدح المؤمنين بأنهم خاشعون فى صلاتهم، معرضون عما لا فائدة فيه من الكلام والأفعال فقال سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾[1].

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكثر الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى»[2].

• وجه إعجاز الحديث:

فى وقت كانت أمة الإسلام مقبلة على العلم إقبالاً شديداً، والعلم عندهم مقترن بالعمل، وصفهم ربنا سبحانه بقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾[3].

---

(١) أول سورة المؤمنون.

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد، باب: ما جاء فى حفظ اللسان ٧/ ٩٢ وحسنه.

(٣) سورة الفتح، آخر آية.

وقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

سارت الأمة مجتهدة فى العلم والعمل، حتى قال كثير منهم: كنا إذا تعلمنا العشر آيات لم نتجاوزها حتى نعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

كانوا يقتدون برسول الله ﷺ فيما ظهر لهم من عبادته، لكنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما راحوا يسألون عن عبادته فى السر.

لقد ساروا فى هذا الطريق بقوة، حتى ترك أحدهم الزواج، وترك أحدهم النوم، وصام أحدهم ولم يفطر، ورسول الله ﷺ يناديهم: «اكلفوا من العمل ما تطيقون»[2]، أى تعبدوا قدر طاقتكم، ولا تشقوا على أنفسكم فتملوا أو تتركوا العبادة، ويقول أيضًا ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة: «سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشىء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»[3]، ومعنى «سددوا»: اجعلوا عملكم على الكتاب والسنة ليكون صوابًا. و«قاربوا» أى لا تجهدوا أنفسكم كل الإجهاد فى العبادة، وإنما قاربوا ذلك، و«اغدوا وروحوا» الغدو: العمل أول النهار، والرواح: العمل فى النصف الثانى من النهار، «وشيئًا من الدلجة»، الدلجة: العمل بالليل.

والمعنى: اعملوا أثناء النهار وجزءًا من الليل، فهذا كافٍ لأنه يحتمل،

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٠.

(٢) أخرجه البخارى عن عائشة فى الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل ١١/ ٣٠٠ رقم ٦٤٦٥. ط الريان.

(٣) أخرجه البخارى فى الموضع السابق رقم ٦٤٦٣.

«والقصد القصد» القصد: التوسط والاعتدال، وبهذه الوسطية من العمل فى حدود الطاقة، وفى حدود التوسط الذى هو بين الإفراط والتفريط، تبلغون غايتكم فى عبادة ربكم.

كان ﷺ يحرص على أن يسير بهم فى الوسطية، ويردهم عن المغالاة والتشدد.

فى هذا الوقت الذى كثر فيه العلم والعمل يخبر رسول الله ﷺ أنه سيأتى زمان يقلُّ فيه العلم والعمل!!

ويبين ﷺ أن أول علم يذهب هو الخشوع، هذا العلم العملى، وهذا الحال القلبى والبدنى، سيذهب من كثير من الناس، حتى إنه يقل الخاشعون، لدرجة أن المساجد تشكو قلة الخاشع فيها!!

يخبر ﷺ بقلة العلم والعمل فيتحقق ذلك كما أخبر ﷺ! فقلَّ الخشوع، وكثرت الفظاظة والغلظة فى زماننا!!

قَلّ الخاشع: هادئ الحركة، رحيم القلب.

قَلّ الخاشع: المتضرع الباكى.

قَلّ الخاشع: الذاكر الحامد الشاكر التقى النقى الصالح.

وكثر القاسى!!

المشغول بالماديات، والقيل والقال، وجمع المال من الحرام والحلال.

كثر القاسى: المعرض عن دين الله، وعن الاستعداد للقاء الله.

كثر القاسى: غليظ الطبع، عنيف الحركة، فاسد القلب.

وقع الأمر كما أخبر ﷺ!! على الرغم من أنه ﷺ إذ يخبر بأن الخشوع سيقل أو يضيع فإنما يحذرنا ذلك، ويحثنا على الحرص على الخشوع

واكتسابه، والحرص على العلم وعلى العمل بالعلم.

وقع الأمر كما أخبر ﷺ، وهذا لأنه يخبر بعلم علّمه الله له، وهذا من أعلام نبوته، ومعجزة ظاهرة فى سنته ﷺ.

• الدروس المستفادة:

١ ـ كثر العلم والعمل فى القرون الأولى من حياة الأمة، وحذرنا رسول الله ﷺ أنه سينقص فى القرون التالية، وها هو ينقص!! فلنعد إلى العلم والعمل يصح بهما ديننا، فتحسن عاقبتنا.

٢ ـ الاتعاظ بأحوال الآخرين، فكما أن العلم عند أهل الكتاب لم يُعمل به ولم ينتفعوا به، فلنحذر نحن ذلك، فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «السعيد من وُعِظ بغيره»[1].

٣ ـ تواضع رسول الله ﷺ، إذ كان مع الصحابة كواحد منهم، وفى هذا الحديث يناقشه أحد الصحابة، ويجيبه ﷺ بما يفيد.

٤ ـ قوة مدرسة الإسلام، يتثبتون من الرواية، ويجمعون نصوص القضية، فجبير بن نفير يسمع الحديث من صحابى ثم يسأل عنه صحابيًا آخر، والصحابى الآخر يؤكد له ما سمعه، ويزيده حديثًا آخر فى الموضوع نفسه.

٥ ـ الخشوع علم، وسيرفع سريعًا فإنه حال عالية، فعلينا أن نجتهد فى الأخذ بأسباب الخشوع، سواء الخشوع العام، أو الخشوع فى الصلاة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١/١٨ رقم ٤٦، والشهاب فى مسنده ١/٧٩ رقم ٧٦ و٢/٢٦٣ رقم ١٣٢٥، وابن أبى عاصم فى السنة ١/١٤٥ رقم ١٨٣، ١٨٤، أخرجه هؤلاء مرفوعًا، وأخرجه مسلم ٤/٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٥ من كلام ابن مسعود.

٦ ـ ضياع الخشوع ينشأ عنه قسوة القلب، والوقوع فى المعاصى، وقاسى القلب أبعد الناس من الله، والمعاصى تجلب المصائب، فلنتق كل ذلك بالاجتهاد فى الخشوع.

٧ ـ ليس العلم قراءة النصوص، وإنما العلم: العلم بالنصوص والعمل بها.

٨ ـ فى هذا الحديث معجزة له ﷺ، فلقد أخبر بالأمر فوقع كما أخبر.

* * *

الإخبار عن إسناد الأمر لغير أهله

عن أبى هريرة قال: بينما النبىُّ ﷺ فى مَجْلس يُحَدِّثُ القومَ جاءه أَعْرَابِىٌّ فقال: متَى الساعةُ؟ فمضى رسولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكَرِه ما قال، وقال بعضُهم: بلْ لَمْ يَسْمَعْ. حتى إذا قَضَى حديثَه قال: «أيْنَ أُراهُ السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسولَ الله، قال: «فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظِرِ الساعةَ». قال: وكيف إضاعتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظِرِ الساعةَ»[1].

● **المعانى:**

«بينما» بينما وبينا: ظرفا زمان بمعنى المفاجأة، ويضافان إلى جملة من فعل وفاعل، ومبتدأ وخبر، ويحتاجان إلى جواب يتم به المعنى، والأفصح فى جوابهما أن لا يكون فيه إذ وإذا[2].

«القوم» هم الرجال. وقد تدخل النساء فيه على سبيل التبع، لأن قوم كل نبى رجال ونساء. و«قوم» جمعه أقوام، وجمع جمعه أقاوم.

«جاءه أعرابى» جملة من فعل ومفعول وفاعل. وهى جواب بينما. والأعرابى: الذى يسكن البادية، منسوب إلى الأعراب، ساكنى البادية من العرب، الذين لا يقيمون فى الأمصار ـ البلاد ـ ولا يدخلونها إلا لحاجة.

---

(١) أخرجه البخارى فى أول كتاب العلم، باب: من سئل علمًا وهو مشتغل فى حديثه.. ١/ ١٤١ رقم ٥٩، وفى الرقاق، باب: رفع الأمانة ١١/ ٣٣٣ رقم ٦٤٩٦، وأخرجه أحمد ١٤/ ٣٤٣ رقم ٨٧٢٩، وفيه تخريجه.

(٢) لسان العرب ١/ ٤٠٥.

وليس الأعراب جمعًا لعرب، وإنما العرب اسم جنس.

والعَرَب والعُرْبُ: جيل من الناس معروف، وهم خلاف العجم.

وعربىٌّ: بيّنُ العُرُوبَة.

وتَعَرَّب الرجل: تشبّه بالعرب.

وتعرّب القوم واستعربوا، إذا دخل قوم من العجم فى العرب فتكلموا بلسانهم، وحكَوْا هيئاتهم[١].

وهذا الأعرابى الذى جاء رسول الله ﷺ يسأله لم يرد ذكره فى شىء من الروايات.

«متى الساعة» الساعة أصلها سوعة، قلبت الواو ألفًا لتحركها، وانفتاح ما قبلها، والجمع ساعات وساع، وتصغيرها سويعة.

ولها عدة معانٍ:

فالساعة: الجزء القليل من الليل والنهار، وهما أربع وعشرون ساعة.

والساعة: الوقت القليل، فجلست عندك ساعة، أى: وقتًا قليلاً.

والساعة: الوقت الحاضر، تقول: جئتُ هذه الساعة، أى فى الوقت الحاضر.

والساعة: المشقة والبعد.

ولقد وردت كلمة ساعة فى القرآن والحديث بمعنى الوقت الذى تقوم فيه القيامة[٢]، وهذا المعنى هو المراد هنا.

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٨٦٤.

(٢) لسان العرب ٣/ ٢١٥١.

فقوله: «متى الساعة» أى متى الوقت الذى تقوم فيه القيامة؟

«فمضى رسول الله ﷺ يحدث»، أى: استمر ﷺ فى حديثه مع من كان يحدثهم.

«فقال بعض القوم: سمع ما قال وكره»، أى قال بعض الحاضرين: إنه ﷺ سمع سؤال الأعرابى، وكرهه، لأنه ما كان يحب أن يُسأل عن الساعة، هكذا توقعوا.

«وقال بعضهم بل لم يسمع» أى قال عدد آخر من حاضرى مجلسه ﷺ: إنه لم يسمع سؤال الأعرابى. هكذا توقعوا، وليس الأمر كذلك، فلم يكره، ولا هو بالذى لم يسمع، وإنما استمر فى حديثه مع من كان يحدثهم، فلما انتهى من حديثه سأل عن الأعرابى، وأجابه.

«حتى إذا قضى حديثه» أى لما انتهى النبى ﷺ من حديثه مع الحاضرين.

«قال: أين أُراه السائل» أى قال رسول الله ﷺ: أين السائل؟ وكلمة «أُراه» بضم الهمزة، معناها أظن، يخبر أحد الرواة ـ محمد بن فليح ـ أنه يترجح عنده أن رسول الله ﷺ قال ذلك، ولقد روى غيره الحديث بدون كلمة أُراه التى تفيد الشك، فقال: «أين السائل».

«ها أنا يا رسول الله» ها حرف تنبيه، فإذا قيل لك: أين أنت تقول: ها أنا ذا.

«فإذا ضيعت الأمانة»، أى فإذا ضَيّع الكثيرون الأمانة، والأمانة والأمان والأَمَنَةُ نقيض الخيانة، وكل من ائتُمن على شىء فهو أمانة عنده، حتى ما يكون فى المجالس من حديث، وما بين الزوجين، والتكاليف الشرعية كلها أمانة، ائتمن الله عليها المسلم فيجب أن يؤديها،

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

وعليه فالمعنى: إذا ضيع الكثيرون التكاليف الشرعية فانتظر الساعة.

والأمانة جاءت فى الأحاديث بمعنى: الطاعة، والعبادة، والوديعة، والثقة، والأمان.

«كيف إضاعتها؟» تساءل الأعرابى عن كيفية إضاعة الأمانة.

«إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وُسِّد يعنى أُسند وفُوِّض، وقد جاء فى الرواية الثانية[2]: «إذا أسند الأمر..» و«الأمر» جنس الأمر الذى يتعلق بالدين كالخلافة والقضاء والإفتاء ونحو ذلك، والمعنى: إذا تولى المناصب غيرُ أهل الدين والأمانات، ولأهم الإمام العام فإنه يكون قد ضيّع الأمانة التى فرضها الله عليه من تولية أهل الخُلُق والدين، فيأتمن الأمين، ويُبْعد الخائن، ومثل الإمام العام فى ذلك كل مَنْ له ولاية.

وإسناد الأمر إلى غير أهله نموذج من نماذج تضييع الأمانة، مثّل النبى ﷺ به لأن الحكم أول ما ينقض من الإسلام، والمراد: إذا ضُيِّعت أمور الدين فقد اقتربت القيامة.

● الشرح:

كان رسول الله ﷺ يومًا جالسًا يحدث بعض أصحابه، إذ جاء أعرابى ـ أحد سكان البادية ـ متسائلاً عن وقت قيام القيامة، واستمر رسول الله ﷺ يحدث أصحابه فيما هم فيه، وظن مجموعة من الحاضرين أن رسول الله ﷺ كره سؤال الأعرابى، وظنت مجموعة أخرى أن رسول الله

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) عند البخارى رقم ٦٤٩٦.

لم يسمع سؤال الأعرابى، فلما انتهى رسول الله ﷺ من حديثه الذى كان فيه تساءل: أين السائل عن الساعة؟ فقال الأعرابى: أنا يا رسول الله، فأخبره ﷺ أنه إذا ضيع الناس الأمانة والتى هى أوامر الله ونواهيه فإن القيامة تكون قد اقتربت. وتساءل الأعرابى: كيف تُضَيَّع الأمانة؟ فأجابه ﷺ بمثال من أمثلة تضييعها، وهو: إذا أسند المنصب إلى غير أهله، بأن ولّى الحاكم من ليس بأهل للقيام بمصالح الناس، فهذا دليل فساد الحال، واقتراب قيام القيامة وزوال الدنيا.

وفى هذا تحذير من تضييع الأمانة، وتحذير من إسناد الأمر لغير أهله، وسأتناول هذين الموضوعين بشىء من التفصيل:

١- التحذير من تضييع الأمانة:

جاءت آيات القرآن الكريم تأمر بتأدية الأمانات، وتُحَذّر من خيانتها:

فقال الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] أى ولا تخونوا أماناتكم مما ائتمنتم عليه من الدين وغيره.

وهذا يفيد عظم مكانة الأمانة فى الإسلام، وأنه يجب تأديتها.

ولقد بين رسول الله ﷺ ذلك بيانًا شافيًا:

فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٣.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب ١٩٨/٧، شعبة ٣٥، رقم ٤٨٧٣، وخرجه محققه من أبى داود والترمذى والحاكم وغيرهم وحسنه.

أمرٌ بتادية الأمانة، ونهى عن الخيانة، وإن خانك الغير.

وعن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال: «أربع إذا كُن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة طعمة»(١). «وحسن خليقة» أى حسن الخلق، و«عفة طعمة» أى أكل الحلال، والحصول عليه بالحلال، فإذا اجتمعت فيك هذه الخصال فلا خوف عليك من النار فالله عنك راضٍ.

وحذر ﷺ من الخيانة، وبين أنها نفاق وكفر، نعوذ بالله من ذلك:

فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان»(٢).

وعن أنس بن مالك قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال فى الخطبة: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»(٣).

إنه ﷺ يحذر من تضييع أى شىء من الأحكام الشرعية، فإن ذلك قد يفضى به إلى الشر الخطير من كفر أو نفاق.

وحثّ ﷺ على الالتزام بتادية الأمانة، وبيّن أنها من أوائل ما يرفع من الأمة ويُضيّع، مما يجعل المسلم يحرص على التخلق بها والتمسك بذلك:

فعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يرفع من

---

(١) أخرجه البيهقى فى الموضع السابق رقم ٤٨٧٨، ٤٨٧٩ وخرجه محققه من الحاكم وأحمد وغيرهما وحسنه.

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، ١/٧٨ رقم ٥٩/١٠٩.

(٣) أخرجه ابن حبان ١/٣٦١ رقم ١٩٤، وأحمد والبيهقى فى السنن وفى الشعب ٦/١٩٦ رقم ٤٠٤٥، وخرجه محققه وحسنه وقال: إن غيره صححه.

الناس الأمانة، وآخر ما بقى «ما يبقى» الصلاة، ورب مصل لا خير فيه»[١]، إن التكاليف الشرعية سيفرط الكثيرون فيها، وربما وصل التفريط داخل التكليف فَيُفَرَّغ من مضمونه فلا يؤتى ثمرته، كالذى يصلى لكنه لا يؤديها على الوجه المطلوب.

وجاءت أحاديث أخرى تبين أن الأمانة كل التكاليف:

فعن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملنى؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبى. ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا مَنْ أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[٢] طلب الصحابى الإمارة فبين له رسولُ الله ﷺ أنها أمانة قلّ من يقوم بها، فمن لم يكن أهلاً للقيام بها فليبتعد عنها وإلا صارت عليه خزيًا وندامة، ومن كان أهلاً فعليه أن يقوم بها وفق شرع الله وإلا صارت عليه أيضًا خزيًا وندامة، أما من قام بها، واتبع شرع الله فيها فله على ذلك عظيم الأجر.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهى أمانة»[٣] تأمل: جعل ﷺ الكلمة أمانة، فإذا تحدث إنسان معك والتفت يمينًا وشمالاً خشية أن يسمعه آخر فهذا الحديث قد صار أمانة عندك. أو «التفت» يعنى غاب، فإذا تحدث إنسان معك ثم انصرف فهذه الحكاية أمانة عندك.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب ٧/٢١٥ رقم ٤٨٩٢ وأخرجه الطبرانى فى الصغير وفيه حكيم بن نافع وثقه ابن معين وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله ثقات، كذا فى مجمع الزوائد ٧/٣٢١.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/١٤٥٧ رقم ١٦/١٨٢٥.

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب، باب فى نقل الحديث ١٣/٢١٦، وأفاد شارحه أن الترمذى أخرجه وحسنه.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»[١] والمعنى: إن المجالس تشرف بأمانة حاضريها، فليكن الجلساء أمناء على ما يحدث فى مجلسهم، لا ينقلون الكلام ولا الفعال، يستثنى من ذلك ما لو تكلم فى المجلس أحد حاضريه أنه سيقتل فلانًا، أو سيزنى بفلانة، أو سيأخذ مال فلان فلا يجوز للمستمع أن يكتم ذلك وإنما عليه أن يفشيه إلى من يمكنه منع ذلك دفعًا للشر والمفسدة.

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يُفْضى إلى امرأته، وتُفْضى إليه ثم ينشر سرها»[٢]، إن ما بين الرجل وامرأته من أمور الاستمتاع أمانة عظيمة، من خانها فهو من شر الناس.

وعن أبى الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس مَنْ جاء بِهِنّ مع إيمانٍ دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة» قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة[٣].

هكذا تشمل الأمانة أمور العقيدة والشريعة، من الإمارة إلى حديث الجلساء، إلى أمور الفراش، إلى غسل الجنابة، كل ذلك وغيره يوضح أن

(١) أخرجه أبو داود فى الموضع السابق، ونقل شارحه عن المناوى أنه حسنه بعد أن نقل كلام المنذرى والذى يفيد ضعفه.

(٢) أخرجه أبو داود فى الموضع السابق وهو عند مسلم فى الطلاق رقم ١٤.

(٣) أخرجه أبو داود فى الصلاة، باب: المحافظة على وقت الصلاة ٢/٩٧.

المسلم مؤتمن على أمور دينه، وعلى ما بينه وبين الناس، وواجب عليه تأدية هذه الأمانات، أما إن ضيعها ففى ذلك الشر الذى قد يصل إلى خراب الدنيا وقيام الساعة.

٢- التحذير من إسناد الأمر إلى غير أهله:

يحذر ﷺ فى هذا الحديث من إسناد الأمر إلى غير أهله، ويبين أنه شر يؤذن بهلاك الأمة، وزوال الدنيا.

إن الإسلام يحتم أن يسند الأمر إلى أهله:

* قال الله تعالى فى شأن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(١)، إنه يبرر للملك سر طلبه القيام على خزائن الأرض، وذلك أنه كفء لذلك، فهو «حفيظ» يحفظ الأموال، فلا تصرف إلا فى مصارفها، وهو «عليم» بتنظيم الأموال، وكيف يحافظ عليها وكيف تُنمَّى.

* وقال سبحانه فى شأن موسى عليه السلام والرجل الصالح الذى زوج موسى ابنته، قال ربنا حكاية عن ابنة الرجل الصالح: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ﴾(٢)، إن الله سبحانه وتعالى يقرر هذا المبدأ، وأن الأمر يسند لمن يصلح له من حيث الجانب المادى والجانب الدينى، فموسى «قوى» يستطيع العمل، و«أمين» عمى العرض والأرض، أو على الأدبيات والماديات.

* وعن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم

(١) سورة يوسف، آية: ٥٥.

(٢) سورة القصص، آية: ٢٦.

قبلكم» قلنا: يا رسول الله، وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال: «الملك فى صغاركم[١]، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رذالتكم» قال زيد ـ أحد رجال الإسناد ـ: «والعلم فى رذالتكم» أى كان العلم فى الفُسّاق[٢].

وفى رواية: «إذا ظهر الادِّهان[٣] فى خياركم، والفاحشة فى شراركم، وتحول الملك فى صغاركم والفقه فى رُذَالِكُمْ»[٤].

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس استقرار الحياة وسعادتها وهما من أصول الإيمان وأسسه، لكن إذا انقلبت الأمور، وأسندت المهام لغير الكفاءات، فأصبحت الإمارة لمن لا يعرف تدبيرها، ووصلت الفاحشة للكبار فضلاً عن الشباب، وأصبح العلم فيمن لا يعمل به، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يصبح صعبًا، وغير ذى جدوى، فقد اقتربت القيامة.

* وعن أبى أيوب الأنصارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»[٥] إذا تكلم فى الدين العلماء المخلصون فالدين بخير، وإنما الخوف كل الخوف، إذا تكلم فيه الجهلة أو الفساق، يخبر بذلك ﷺ يحذر من أن يتولى أمور الدين من ليسوا أهلاً فتلك الطامة.

---

(١) صغار القدر والكفاءة لا صغار السن.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، ٢/ ١٣٣١ رقم ٤٠١٥، ونقل محققه عن الزوائد: إسناده صحيح. رجاله ثقات.

(٣) أصل الادّهان الملاينة، والمراد: ضعف الدين.

(٤) رواية البيهقى فى شعب الإيمان ١٠/ ٥٣ رقم ٧١٤٩، ٧١٥٠، وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/ ٦١٠ رقم ١٠٤٨.

(٥) أخرجه الحاكم فى الفتن باب: ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله ٤/ ٥١٥، وصححه ووافقه الذهبى.

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «من استعمل عاملاً من المسلمين، وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه، وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه، فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين»[1]، يبين ﷺ أن من واجب الولاة والحكام أن يسندوا الأمور إلى من هم أهل لها، وإلا فقد خانوا الأمانة التى وكلها الله إليهم.

وهكذا توضح الآيات والأحاديث أن الأمور يجب أن تسند إلى مَنْ هو أهل لها، وفى ذلك الفلاح والخير، أما إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها، ففى ذلك الضياع والهلاك، وعلى الأمة مجتمعة أن تتعاون فى هذا الهدف، فالحكام والمسئولون والعلماء والقضاة، وكل فرد على الجميع أن يتعاونوا فى جعل الأمور فى نصابها، بإسناد الأمر إلى أهله.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الأمة فى غاية الالتزام بأحكام الإسلام تضبط نفسها على دين الله دون تفريط أو إفراط، يلتزمون بكل أمر أو نهى مهما كان طبعهم قد ألفه - كتركهم الخمر حينما نزل تحريمه - ومهما كلفهم ذلك، ولو كلفهم أنفسهم وأموالهم، كما فى جهادهم فى سبيل الله.

أمة تؤمن بقدسية الإسلام، وأنه دين الله سبحانه، وأنه الحق وحده، وأنه الكفيل بإسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة، وأنه يجب أن يُعمل به دون زيادة أو نقص.

وفى وقت هكذا يخبر رسول الله ﷺ بهذا الحديث الذى معنا، والذى يفيد:

---

(١) أخرجه البيهقى ١١٨/١٠، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وأخرجه الحاكم ٤/ ٩٢، وفيه حسين بن قيس الرحبى، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ٢/ ٩٧٢ رقم ١٥٠٢، وفيه زيادة تخريج له.

١ ـ **تضييع الأمانة:** وأنه سيأتى زمان يتفلت الكثيرون من أحكام الدين!!

ويتحقق ما أخبر به ﷺ فى زماننا! عبادات تترك بكاملها كالخشوع، والتفكر فى آيات الله، وتعلم أمور الدين. وعبادات تُفَرَّغ من مضمونها، كالصلاة التى أصبحت لا تؤتى ثمرتها من نهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر وكثرة ذكر الله فيها، والصوم الذى أصبح ترك الطعام الحلال وفعل الكثير من الحرام!! وهكذا.

يتحقق تمامًا قوله ﷺ: «فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة» فنرى فى الأمة كثيرين قد ضيعوا التكاليف الشرعية، منهم من يعرف أنه ضيّع، لكنه قسا قلبه فأصبح لا يبحث كيف يؤدى الأمانة التى حُمِّلها، والتى هى التكاليف الشرعية، ومنهم من لا يعرف أنه ضيع فلجهله ضيع ولم يشعر!! وهناك تكاليف تكاد تكون الأمة مجتمعة قد ضيعتها!!

إننا لو فكرنا قليلاً لوجدنا أننا ضيعنا الكثير من ديننا.

ـ ضاع الحياء، ضاع الخوف من الله، ضاع الخشوع فى الصلاة، قلّ عمار المساجد، قلّ المصلون، قلّ المزكّون، كثُر الذين يسألون غير الله، وكثر النذر لغير الله!!

كثر التشبه بالكفار والكافرات، وكثر عُرْى النساء، وظهرت المرأة ترقص مع العرى والميوعة، وكثر اختلاط الشباب والشابات وكثرت الخلوة!! كثرت أجهزة اللهو واشتريت بالأموال!!

وكثر طلب المال، بل ومن الحلال والحرام، وشاع الربا، وشاعت المخدرات، واستبدلت الحدود والعقوبات بقوانين مستوردة، واستبدلت أنظمة الاقتصاد الإسلامى بأنظمة من هنا وهناك، وشاع التعليم الخالى

من الدين، واضطهد التعليم الدينى.

واعتبر إطلاق اللحى جرمًا، وختان الإناث جريمة، وتعدد الزوجات جناية، وشاع الزنا ولا عقاب عليه!! وغير هذا كثير وكثير.

ورسول الله ﷺ وهو يخبر أن الأمانة والتى هى التكاليف الشرعية ستُضيّع إنما يحذرنا ذلك، ويبين أنه إن حدث ذلك فإنه مُؤْذِن بزوال الأمة وخراب العالم «فانتظر الساعة».

٢ ـ إسناد الأمور لغير أهلها: هذا نوع من أنواع تضييع الأمانة، فمن التكاليف الشرعية أن يسند الأمر لغير أهله، وإنما نص ﷺ على هذا بالذات لعظم أهميته، ذلك أن إسناد الأمور إلى أهلها معناه أن الأمة بخير، وحياتها مستقيمة، فالأمر إذا أسند لأهل الخبرة والدين عزت الأمة واستقامت الأمور، أما إذا أسندت الأمور لغير أهلها فإن الحياة تضطرب وتتعسر وتصبح الأمة فى شقاء.

إن إسناد الأمور لغير الكفء، كالشخص التافه الذى لا خبرة له ولا دين إنما هو شر وفساد.

وكلما عظم الأمر عظمت البلية، فلو أن شخصًا لا خبرة له بإدارة المال ولا دين له أسند إليه إدارة مشروع فهذه خسارة، أما إذا أسند إليه اقتصاد دولة فإن الخسارة أفدح.

لقد أخبر ﷺ أنه سيأتى زمان تسند الأمور لغير الكفء، وقد تحقق هذا فى زماننا!!

لقد أصبحت الأمور فى الأمة تسند لأهل القرابات، وأهل الحسب، وأهل الرشوة، وأهل الولاء لأصحاب المناصب الأعلى، واستبعد المتدين، وقُرِّبت النساء، واعتلت المرأة أعلى المناصب!!

يتحقق بذلك ما أخبر به ﷺ، مع أنه ﷺ إذ يخبر بذلك: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» إنما يحذرنا ذلك.

وظهور تضييع التكاليف الشرعية ومنها إسناد الأمر لغير أهله، ظهور ذلك بمقدار ما هو تصديق ما جاء به ﷺ بمقدار ما هو تحذير للأمة، وأن عليها أن تستيقظ من غفلتها، وأن تعود إلى دينها، نسأل الله الهداية والتوفيق.

• الدروس المستفادة:

* سيضيع الكثيرون التكاليف الشرعية، وفى ذلك الهلاك للفرد والأمة فلنحذر ذلك.

* على أهل الخير أن يحافظوا على الالتزام بالتكاليف الشرعية، فيعملوا بها فى أشخاصهم وأهليهم، ويأخذوا بيد الآخرين للالتزام بها، ويعملوا على عودة الأمة إلى الإسلام يحكم كل حياتها.

* إسناد الأمر لغير أهله مضيعة للفرد والأمة، فلنعمل على غير ذلك.

* على أهل الخير والدين أن يحافظوا على إسناد الأمور إلى أهلها، والأخذ بيد الأمة إلى ذلك.

* وفى هذا الحديث الحث على حسن تكوين الأمة فكريًا وخُلُقيًا، وأن تُربّى الكفاءات، وتتكون الكوادر، وتسند الأمور لأهل الخبرة والدين.

* وفى الحديث معجزة له ﷺ إذ أخبر بأن التكاليف سيضيعها الكثيرون فوقع الأمر كما أخبر ﷺ.

* وفى الحديث معجزة ثانية له ﷺ إذ أخبر بأن الأمور ستسند إلى غير أهلها فوقع الأمر كما أخبر ﷺ.

* مراعاة آداب المجلس، فلما سأل الأعرابى رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يتحدث مع أحد جلسائه، أتم الحديث الذى كان فيه، ثم أجاب الأعرابى.

* وفى الحديث صورة من صور التواضع العالى، إذ كان ﷺ يجلس مع أصحابه، يتحدث معهم ويتحدثون معه، ويعاملهم بما يناسب أخلاقهم وأفكارهم.

والله الموفق.

* * *

الإخبار عن زخرفة المساجد وتزيين المصاحف

عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرْتُ بِتَشْيِيد المَسَاجِد» قال ابن عباس: لَتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرَفَتْها اليَهُودُ والنَّصَارى[1].

وعن أنس بن مالك قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمانٌ يَتَبَاهَوْن بالمساجد، لا يَعْمُرُونها إلا قليلاً. أو قال: يَعْمُرُونَها قليلاً»[2].

وعن أُبى بن كعب قال: إذا حَلَّيْتُم مَصَاحِفكُم، وزَوَّقْتُم مَسَاجِدَكُم فالدَّمَارُ عليكم»[3].

● المعانى:

«ما أُمرت بتشييد المساجد» أى ما أمرنى الله بتشييد المساجد. «ما» نافية و«أُمرت» فعل ماض مبنى للمجهول، وذلك للعلم بالفاعل وهو الله سبحانه. و«تشييد المساجد» رفع بنائها وإحكامه، من شَيَّد يُشَيِّد تشييداً.

---

(1) أخرجه ابن حبان فى كتاب الصلاة باب المساجد عنوانه النهى عن تباهى المسلمين فى بناء المساجد وزخرفتها ٤/ ٤٩٤ رقم ١٦١٥. وأخرجه أبو داود فى الصلاة باب فى بناء المساجد ٢/ ١١٧. وابن أبى شيبة ١/ ٣٠٩ من طريقين. والبغوى فى شرح السنة ٢/ ٣٤٨.

(2) أخرجه ابن خزيمة فى الصلاة جماع أبواب فضائل المساجد وبنائها وتعظيمها باب كراهة التباهى فى بناء المساجد ٢/ ٢٨١ رقم ١٣٢١. وأبو يعلى ٥/ ١٩٩، ٢٠٠ رقم ٢٨١٧. وقال محققه: إسناده حسن.

(3) أخرجه ابن أبى شيبة فى آخر كتاب الصلوات باب فى المصحف يحلى ٢/ ٥٢٩ و١/ ٣٠٩ و١٠/ ٥٤٥ وهو مروى أيضًا من كلام أبى الدرداء وأبى هريرة وأبى ذر، وهو حسن لغيره. وروى عن أبى الدرداء مرفوعًا ولا يصح. والموقوف له حكم الرفع فإنه مما لا مجال للرأى فيه. وقد أطال د/ سعد آل حميد النفس فى تخريجه فى سنن سعيد بن منصور ٢/ ٤٨٦ رقم ١٦٥.

أما شاد البناء يشيده فمعناه طلاه بالجص أى الجبس. وقد يطلق شاد وشيد بمعنى واحد وهو الطلاء بالجص. والمعنى: ما أمرنى الله برفع مبانى المساجد، ولا بطلائها. أى لا أتكلف فى ذلك، ويفهم من هذا أنه لا يحسن ذلك، فلو كان يحسن لأمرنى به الله.

«لتزخرفنها» يقال: زَخرف البيت زَخْرَفَةً يعنى زَيَّنَهُ وأكمله. وأصل الزخرف: الذهب. ثم سُمِّى كل زينة زُخْرُفًا. والمعنى: والله لتُزَيِّنُون مساجدكم، فتنقشونها وتلونونها.

«يتباهَوْن بالمساجد» المُبَاهَاةُ: المُفَاخَرَةُ. وتَبَاهَوْا أى تفاخروا. وقوله فى الحديث «يتباهون بالمساجد» أى ببنائها، يقول أحدهم: بنيت مسجدًا، ويقول الآخر: بنيت مسجدين، وهكذا. ويتباهون أيضًا بسعتها وارتفاعها وتزيينها.

«لا يعمرونها إلا قليلاً أو قال يعمرونها قليلاً» معنى الجملتين متقارب، فالثانية هى الأولى بحذف النفى والاستثناء، والأولى تفيد أن عمارتهم لها لا تكون كثيرة أبدًا. أما الثانية فهم يعمرونها قليلاً، وقد يقع الكثرة.

والعمارة هنا العمارة الدينية، يعمرونها بالصلاة فيها، والذكر، ومجالس العلم.

«حَلَّيْتُم مصاحفكم» زَيَّنْتُمُوها. فالحلية: الزينة. وذلك بطلاء ورق المصحف بالذهب، وصناعة جلده وعلبته من أشياء ثمينة.

«وزوّقتم مساجدكم» التزويق: التزيين. وجاء فى رواية أخرى «وزخرفتم» وهما بمعنى واحد.

«فالدمار عليكم» وفى رواية «فالدبار عليكم»[1]. وفى لفظ آخر

(١) رواية ابن أبى شيبة ١/٣٠٩.

«فالدثار عليكم»[1] وهذه الألفاظ كلها بمعنى واحد، وهو الهلاك.

• رواة الأحاديث:

هنا ثلاثة أحاديث، الراوى الأعلى للحديث الأول عبد الله بن عباس وتقدمت ترجمته فى شرح حديث «أبشر بنورين أوتيتهما»[2]، والراوى الأعلى للحديث الثانى أنس بن مالك. وتقدمت ترجمته فى شرح حديث «الصابر على دينه»[3]، والراوى الأعلى للحديث الثالث أُبَىّ بن كعب وأترجم له هنا.

أُبَىُّ بن كعب:

الصحابى الجليل أُبَىُّ بن كعب بن قيس الأنصارى النجارى أبو المنذر. شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، وجمع القرآن فى حياة النبى ﷺ، وعرض على النبى ﷺ، وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا فى العلم والعمل رضى الله عنه. كان أحد الستة أصحاب الفتيا. وأول من كتب للنبى ﷺ، وأول من كتب فى آخر الكتاب: وكتب فلان بن فلان.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: قال النبى ﷺ لأُبَىٍّ: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾[4] قال: وسمانى؟ قال: نعم. فبكى»[5].

وعن أُبَىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال:

---

(1) فى المصاحف لابن أبى داود ص١٦٨ فى نسخة.

(2) ج٢ ص٢٩٧.

(3) ج١ ص٦١.

(4) سورة البينة بكاملها.

(5) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار ١٢٧/٧ رقم ٣٨٠٩.

«يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب فى صدرى وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر»[١] أى هنيئًا لك العلم.

وعن عبد الله بن عباس أن أُبيًّا قال لعمر: يا أمير المؤمنين إنى تلقيت القرآن ممن تلقاه من جبريل وهو رطب[٢].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبى بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل. ألا وإن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٣].

وجمع عمر بن الخطاب الناس يصلون خلف أُبى بن كعب قيام الليل فى رمضان، فكان يصلى بهم عشرين ركعة ويوتر بثلاث، يقرأ فى الركعة مائة آية أو أكثر، يطيل بهم حتى كانوا ينصرفون قبل الفجر بقليل، وكانوا يتوكئون على عصيهم من طول القيام[٤].

مات أُبى سنة اثنتين وعشرين، فقال عمر وكثير من المسلمين: اليوم مات سيد المسلمين[٥].

---

(١) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى ١/٥٥٦ رقم ٨١٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥/٤١، ٤٢ رقم ٢١١١٢ وقال محققه: إسناده صحيح وخرجه من المختارة ١٢١٢ والحاكم ٢/٢٢٥.

(٣) أخرجه ابن حبان ١٦/ ٧٤ رقم ٧١٣١ وأخرجه الترمذى فى المناقب مناقب معاذ بن جبل و... و... ١٠/٢٩٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٠٠، ٤٠١.

(٥) ترجمته فى سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٩ وذكر فى أولها كثيرًا من مصادر ترجمته.

• الشرح:

فضل المساجد:

المساجد أماكن خصصت لعبادة الله سبحانه وتعالى، يُصلَّى فيها، ويذكر الله فيها، وفيها مجالس العلم، ويقرأ فيها القرآن الكريم.

أمر الله سبحانه بإقامتها وعمارتها: فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

فأضاف المساجد له سبحانه، وهذا تشريف عظيم لها، وأثنى على من يعمرونها بالبناء والذكر بأنهم من المهتدين.

وعن عبيد الله بن أبى حفص قال: قال رسول الله ﷺ: «من أجاب داعى الله وأحسن عمارة مساجد الله كانت تحفته بذلك من الله الجنة» قيل: يا رسول الله، ما أحسن عمارة مساجد الله؟ قال «لا يُرفع فيها صوت، ولا يُتكلم فيها بالرفث»[2].

وأمر سبحانه بتخصيصها لطاعته وحده: فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[3].

وعن أنس بن مالك قال: بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ[4] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه[5]، دعوه» فتركوه حتى بال.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٢) أخرجه ابن المبارك وهو مرسل كذا فى الكنز ٧/ ٦٧١.

(٣) سورة الجن، آية: ١٨.

(٤) كلمة زجر أصلها ما هذا؟ ثم اختصرت مه، تقال: مفردة أو مكررة.

(٥) الإزرام: القطع، أى لا تقطعوا عليه تبوله خشية أن يضار أو تتناثر النجاسة.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له «إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر. إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ. قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه[١].

وأمر سبحانه أن تُعَظَّم: فقال سبحانه ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[٢]. ومعنى «أذن الله» أمر الله و«أن ترفع» أى تعظم فتصان عن النقائص كالنجاسات والماديات، والمعاصى كاللغو والرفث، ويجتهد فى عمارتها بالطاعات. وليس المراد الرفع فى المبانى بمعنى تعلية المبنى، وإنما الرفع المعنوى بجعلها للخيرات.

وعن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسجد بيت كل تَقِىّ، وتكفَّل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح[٣] والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله، إلى الجنة»[٤].

وعن سلمان الفارسى عن النبى ﷺ قال: «من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر الله، وحق على المزور أن يكرم الزائر»[٥].

وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها. وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم فى الطهارة باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات ١/ ٢٣٦، ٢٣٧ رقم ٢٨٥. ومعنى «فشنّه عليه» يعنى: صبه عليه.

(٢) سورة النور، آية: ٣٦.

(٣) السعادة.

(٤) ذكره فى مجمع الزوائد ٢/ ٢٢ وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، والبزار وقال: إسناده حسن. قلت ـ الهيثمى ـ: ورجال البزار كلهم رجال الصحيح.

(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير وأحد إسناديه رجاله رجال الصحيح كذا فى مجمع الزوائد ٢/ ٣١.

(٦) أخرجه مسلم فى المساجد باب فضل الجلوس فى مصلاه... وفضل المساجد ١/ ٤٦٤ رقم ٦٧١.

وعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدًا لله تعالى بنى الله له بيتًا فى الجنة»(١).

وهكذا تفيد النصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية أن المساجد يُعتنى ببنائها، ويهتم بجعلها لطاعة الله وحده فلا يُسأل غير الله، ولا يُرجى إلا الله، تُعمر بطاعة الله وذكره، وتُصان عن النقائص، إنها بيوت الله من أقامها أُجر كثيرًا، ومن اعتادها للعبادة نال خيرًا كثيرًا.

وكما أن الإسلام وضع منهجًا لكل نواحى الحياة، فإنه أيضًا وضع منهجًا للبناء، سواء بناء البيوت والمرافق أم بناء المساجد، وهذا الأخير هو المعتنى به هنا:

بناء المساجد:

بيّن رسول الله ﷺ المنهج فى بناء المساجد، والذى يتلخص فيما يلى:

١- بناء المسجد بأقل التكاليف، وبأيسر الوسائل: فحينما أرادوا بناء المسجد النبوى تساءل الصحابة: كيف نبنيه يا رسول الله؟ قال: «عرش كعرش موسى» وسألوا الحسن البصرى: ما عريش موسى؟ فقال: إذا رفع يده بلغ العريش، يعنى السقف(٢).

وتقدم حديث ابن عباس(٣) «ما أُمرت بتشييد المساجد» وفيه نهى عن الإسراف بتعليتها وزخرفتها. وحديث ابن عباس «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى» واضح فى المنع من هذا، وأنه يحرم التكلف والمغالاة

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة باب من بنى مسجدًا ١/٥٤٤ رقم ٤٥٠ ومسلم فى المساجد باب فضل بناء المساجد ١/٣٧٨ رقم ٥٣٣ واللفظ لمسلم.

(٢) مصنف ابن أبى شيبة ١/٣٠٩ والبيهقى فى دلائل النبوة باب ما جاء فى بناء مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ٢/٥٤١، ٥٤٢.

(٣) فى صدر الباب.

فى بنائها.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ابنوا المساجد واتخذوها جُمًّا»[١] يحث على بناء المساجد، وأن تكون كالشاة الجماء التى لا قرن لها، فلا يزاد فى ارتفاعها عن الحاجة.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أراكم ستُشَرِّفُون[٢] مساجدكم بعدى كما شَرَّفت اليهود كنائسها، وكما شَرَّفت النصارى بِيَعَها»[٣].

وعن عبد الله بن عمر قال: نُهينا أن نصلى فى مسجد مشرف[٤]. والمعنى: نهانا رسول الله ﷺ أن نصلى فى مسجد مرتفع البناء.

وهكذا يراعى فى بناء المساجد القصد وعدم الغلو، وأن يكون المبنى وسيلة لا غاية، وإنما الغاية العبادة ورضوان الله سبحانه وتعالى.

٢ـ توسعة المسجد: وعند بناء المسجد يُراعى أن يكون المبنى أوسع مما يحتاجه أهل المنطقة التى يبنى فيها المسجد، بحيث يكفى لسنوات قادمة، ويجعل حوله منطقة خالية لسيارات المصلين أو حاجاتهم.

فعن كعب بن مالك أن النبى ﷺ مرّ على قوم من الأنصار يبنون مسجدًا فقال ﷺ: «أوسعوا مسجدكم تملئوه»[٥] ومعنى الحديث: أوسعوا مسجدكم يبارك الله فيكم فتصحوا ويزيد عددكم فتملئوا المسجد.

---

(١) ابن أبى شيبة ١/٣٠٩. والبيهقى ٢/٤٣٩.

(٢) سترفعون بناءها.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المساجد باب تشييد المساجد ١/ ٢٤٤ رقم ٧٤٠ وفى إسناده مَنْ فيه مقال.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة ١/٣٠٩.

(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير وفيه محمد بن درهم روى عنه شبابة بن سوار وقال: ثقة، وضعفه ابن معين والدارقطنى كذا فى مجمع الزوائد ٢/ ١١. وله شاهد عن أبى قتادة أخرجه ابن خزيمة ٢/ ٢٨٠ رقم ١٣٢٠ وهذا الشاهد أشبه. وأخرجه البيهقى فى الكبرى ٢/ ٤٣٩.

٣ـ قربه للبيوت: فيبنى المسجد وسط كل مجموعة من البيوت، بحيث يسهل على من سكن أبعدها الوصول إليه خمس مرات فى اليوم.

فعن عائشة قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور، وأن تُطَيَّب وتُنَظَّف[1]. و«الدور» هى المنطقة السكنية، فكل مجموعة بيوت أو أخبية أو خيام يقام فيها مسجد، حتى يسهل على الجميع الوصول إليه.

٤ـ اتباع الهَدى النبوى فى البناء: لمعرفة المنهج الإسلامى فى بناء المساجد يجب أن نعرف كيف بنى رسول الله ﷺ مسجده، فإذا كانت النقاط السابقة قد بينت منهجه قولاً، فهذه النقطة تبين منهجه فعلاً.

فعن عبد الله بن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللَّبِن وسَقْفُه الجريد، وعَمَده خَشَبُ النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه فى عهد رسول الله ﷺ باللبِن والجريد وأعاد عَمَده خشبًا. ثم غيَّره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة، وجعل عَمَده من حجارة منقوشة، وسَقَفَه بالساج[2].

وفى حديث أنس وصف شراء رسول الله ﷺ أرض المسجد من بنى النجار، وإعداد الأرض للبناء، ثم يصف أنس البناء فيقول: فصفوا النخل قبلة[3]، وجعلوا عضادتيه[4] حجارة. قال: فكانوا يرتجزون[5]،

---

(١) أخرجه ابن حبان ٤/٥١٣ رقم ١٦٣٤ وقال محققه: إسناده صحيح وأخرجه ابن خزيمة ٢/ ٢٧٠ رقم ١٢٩٤ وأخرجه أحمد ٤٣/٣٩٧.

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة باب بنيان المسجد ١/ ٥٤٠ رقم ٤٤٦.

(٣) أى جعلوا الجدار الذى جهة الكعبة وهى الجهة الجنوبية جعلوه من جذوع النخل.

(٤) العضادة: جانب الباب.

(٥) ينشدون أبياتًا من الشعر من بحر الرجز.

ورسول الله ﷺ معهم وهم يقولون:

اللهم إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخره فانصـر الأنصـــار والمهـاجره[١]

وهكذا كانت السنة فى بنيان المسجد النبوى، القصد وترك الغلو، والاهتمام بالمعنى لا بالمبنى، فلقد كان الاهتمام كل الاهتمام بالدروس وتعليم العلم، كان الاهتمام بالعبادة وتعليم ما جاء به الوحى، كان الاهتمام بشئون الأمة، ينظر إلى ضبط كل ذلك ووزنه بميزان الإسلام.

ومما يصور التواضع الجم والبساطة الشديدة فى بناء مسجده ﷺ مقولة هذا الأعرابى التى سجلها لنا هذا الحديث.

فعن ابن عباس أنه قال: أتى النبىَّ ﷺ أعرابىٌّ فبايعه ثم انصرف فقام ففشج[٢]، فبال. فَهَمَّ الناس به، فقال النبى ﷺ: «لا تقطعوا على الرجل بوله، ثم دعا به فقال «ألست بمسلم؟» قال: بلى. قال «فما حملك على أن بلت فى المسجد؟» قال: والذى بعثك بالحق ما ظننت إلا أنه صَعِيد[٣] من الصُّعُدات، فَبُلْت فيه. فأمر النبى ﷺ بِذَنُوب[٤] من ماء فصب على بوله»[٥].

إنه من تواضع بناء المسجد ظن الأعرابى أنه أرض لم يجر عليها تغيير، ظنها صحراء وترابًا لم تُغير بما يفيد أنها مسجد.

ولقد بلغ من القصد فى بناء مسجده ﷺ أن بعض الأنصار أراد الارتقاء

---

(١) أخرجه مسلم فى المساجد باب ابتناء مسجد النبى ﷺ ١/ ٣٧٣ رقم ٥٢٤.

(٢) الفشج: تفريج ما بين الرِّجْلَيْن.

(٣) تراب أو أرض وجمعه: صُعُدان وصُعُد. وجمع الجمع صُعُدات.

(٤) دلو عظيمة: وجمعها: أَذْنِبَة وذَنَائِب.

(٥) قال فى مجمع الزوائد ٢/ ١٠: رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الكبير، ورجاله رجال الصحيح.

بمستوى مبانى المسجد. وخطوا فى ذلك خطوات، فجمعوا المال وأتوا به رسول الله ﷺ، كما يصوره هذا الحديث:

فعن عبادة بن الصامت قال: قالت الأنصار لى: متى يصلى رسول الله ﷺ إلى هذا الجريد؟ فجمعوا له دنانير[١] فأتوا بها النبى ﷺ، فقالوا: نصلح هذا المسجد ونزينه. فقال: «ليس لى رغبة عن أخى موسى، عريش كعريش موسى»[٢].

لقد كانت الأموال جاهزة للارتقاء بمستوى مبانى مسجده ﷺ، والأفكار المعمارية كانت واقعًا فى حياة الأمة، إلا أنه ﷺ يصر على التقلل فى المبانى، ويبين أن هذه سنته. ولقد كان متقللاً فى مبانى بيوته أكثر من هذا، فلم يضع لبنة على لبنة، وإنما كانت مبنية بجريد النخل، قد طُيِّن هذا الجريد، وأبوابها من نسيج الشعر.

واقتدى به الصحابة فى هذا:

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: مَرّ بى رسول الله ﷺ، وأنا أُطيِّن حائطًا لى من خص، فقال «ما هذا يا عبد الله؟» قلت: حائطًا أصلحه يا رسول الله. قال «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»[٣].

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «رأيتنى مع النبى ﷺ بنيت بيدى بيتًا يُكِنُّنى من المطر، ويظلنى من الشمس، ما أعاننى عليه أحد من خلق الله»[٤] وفى رواية «بيتًا من شعر».

---

(١) عملة ذهبية، مما يشير إلى كثرة المبلغ الذى جمعوه، وفخامة المبنى الذى كانوا يريدونه.

(٢) قال فى مجمع الزوائد ٢/ ١٦: رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه عيسى بن سنان ضعفه أحمد وغيره، ووثقه العجلى وابن حبان وابن خراش فى رواية. وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة باب بناء مسجد رسول الله ﷺ ٢/ ٥٤٢.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى. راجع جامع الأصول ١/ ٦١٥.

(٤) أخرجه البخارى في الاستئذان باب ما جاء فى البنيان ١١/ ٩٢ رقم ٦٣٠٢.

هكذا اقتدوا به ﷺ، فتقللوا فى الأبنية، وجعلوها بأيسر الوسائل، كل ذلك لأن العبادة عندهم هى الهدف الأسمى.

ولقد سار أبو بكر الصديق على نهج رسول الله ﷺ، فلما وجد المبنى قد ضعفت أجزاؤه، وأن جذوع النخل التى هى أعمدته، والجريد الذى هو سقفه قد نَخِرَت، وبدأ البِلَى والتفتت يظهر فيها، غيّرها فوضع جذوعًا مكان جذوع وجريدًا مكان جريد، لم يزد على ذلك.

وكذلك عمر بن الخطاب فإنه سار على نهج رسول الله ﷺ، فى بنيان المسجد، فعلى الرغم من كثرة الأموال فى زمانه إلا أنه جدّد بناء المسجد ووسعه على الهَدْى النبوى، فالأعمدة جذوع النخل، والسقف من جَرِيد النخل، ماغير ولا ارتفع وإنما فقط وسّع، وهذا من هَدْيه ﷺ.

وفى عهد عثمان بن عفان، وقد زاد المال فغير بناء المسجد، فوسّعه كثيرًا، وبنى الجدران بالحجارة المنقوشة والجبس، وجعل الأعمدة من الحجارة المنقوشة، وسَقَفَ المسجد بخشب من أجود الأنواع يسمى «الساج» وهكذا حسّن عثمان مبنى المسجد النبوى وزاد فيه، إلا أن الصحابة لم يرقهم ذلك:

فعن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد، فكره الناس ذلك، فأحبوا أن يدعه على هيئته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدًا لله بنى الله له فى الجنة مثله»[1].

لقد أنكر بعض الصحابة على عثمان فخامة البناء، وعثمان يرى أن رسول الله ﷺ استعمل الحجارة فى بناء عضادتى المسجد، فما المانع أن يستعمل الحجارة أكثر، لأنها تعيش أكثر؟ إنه لم يزخرف، ولم يجعل

(١) أخرجه مسلم فى المساجد باب فضل بناء المساجد ١/ ٣٧٨ رقم ٢٥/ ٥٣٣.

البناء عاليًا، ولم يقصد التباهى وإنما قصد المتانة والتوسعة، ليعيش المبنى كثيرًا، ويسع الناس.

المساجد وبيوت الناس:

واضح من الأحاديث التى فى صدر الباب والتى سيقت فى الشرح أن الأصل فى بناء المساجد الاقتصاد، وأنه يحرم الإسراف والتكلف فى تعليتها، أما المتانة والتوسعة فهذا يؤجر فاعله.

ولكن ماذا وقد أسرف الناس وتكلفوا فى بناء بيوتهم، ولو أن المساجد لم يُفعل بها ذلك فقد يُستهان بها؟ والجواب: إن على الناس أن يتعلموا الاقتصاد فى بناء بيوتهم وجميع أبنيتهم، وليس لنا أن نسرف فى بناء المساجد من أجل خطأ الناس فى مبانيهم. إن الأمر دين، أوصانا بأن نقتصد فى المبانى، ورفض رسول الله ﷺ الإسراف، ولم يقبل المال الذى جُمع من أجل أن يتغير مبنى المسجد من الجريد إلى الخشب. ومن الجذوع إلى الحجارة. وأمر ﷺ بالاقتصاد نصًا فقال «عريشًا كعريش موسى» وقال «ما أمرت بتشييد المساجد» وقد تقدم ذلك.

إن الناس بمغالاتهم فى المبانى خالفوا السنة:

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أما إن كل بناء وبالٌ على صاحبه إلا ما لا إلا ما لا»[1] أى إلا ما لا بد للإنسان منه مما يستره من الحر والبرد والسباع وغير ذلك. وكُررت الكلمة للتأكيد.

وعن أنس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «كل بناء وأشار بيده على رأسه أكثر من هذا[2] فهو وبال على صاحبه يوم القيامة»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أكثر من ارتفاع يد الإنسان إلى أعلى.

(٣) أخرجه الطبرانى بإسناد جيد كذا فى الترغيب ٣/ ٣١.

وعن حارثة بن مُضَرِّب قال: «أتينا خبابًا نعوده[١]، وقد اكتوى سبع كَيَّات فقال: لقد تطاول مرضى، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تتمنَّوْا الموت» لتمنيت، وقال: يُؤجر الرجل فى نفقته كلها إلا التراب، أو قال فى التراب»[٢]. فى رواية ابن ماجه: «إلا فى البناء».

وهكذا بينت السنة النبوية المنهج السوى فى المبانى وأنه:

١- تكون المبانى بمقدار الحاجة.

٢- ارتفاعها بمقدار طول الإنسان ورفع يده.

٣- ما زاد عن ذلك فلا أجر على بنائه، وإنما هو وبال على صاحبه يوم القيامة.

هكذا السنة فى بناء البيوت والأمكنة، وكذلك فى بناء المساجد، فإذا خالف الناس السنة النبوية فى أبنيتهم فليس هذا مبررًا لأن نخالفه فى بناء المساجد.

المبانى والتقدم:

وقد يقول قائل: إننا بذلك نرفض الكثير من التقدم والمدنية، فأين هذا من الأبنية العالية، والفيلات والقصور، وكسوة الجدران بالأقمشة الفخمة، والستائر المزركشة، والأرضيات الصناعية ذات الألوان الزاهية، والأسقف المستعارة التى تخرج منها الإضاءة خلسة، وتكييف الهواء مع المحافظة على الجمال.

وأجيب: ليس فى هذا يُنفق المال، وإنما ينفق فيما يفيد الأمة، ينفق فى

(١) نزوره وهو مريض.

(٢) أخرجه الترمذى فى القيامة باب... ٧/ ١٨٥ وصححه. وأخرجه ابن ماجه فى الزهد باب فى البناء والخراب ٢/ ١٣٩٤ رقم ٤١٦٣ وراجع البخارى رقم ٥٦٧٢.

التعليم والصحة، والزراعة والصناعة، والسلاح والتجارة، حتى تصبح الأمة عزيزة مرهوبة الجانب، متقدمة فى هذه الجوانب، لها شخصيتها المستقلة، تعيش صدرًا لا ذيلاً.

لقد تقلل ﷺ فى المبانى، فى بناء المسجد وفى بناء الدور، وجعل قدرة الأمة فيما يفيد، وتبعه فى ذلك صدر الأمة فعزّت الأمة وقويت.

التباهى بالمساجد:

فى حديث أنس الذى فى صدر الباب «يأتى على الناس زمان يتباهَوْن بالمساجد، لا يعمرونها إلا قليلاً» وفى لفظ آخر «نهى رسول الله ﷺ أن يتباهى الناس فى المساجد»[1].

وفى هذا تحذير من أمرين:

الأول: التباهى والتفاخر بالمساجد، فلا تباهى بالمساجد لا قولاً ولا فعلاً.

أما قولاً: فكأن يقول قائل: بنيت مسجدًا ارتفاعه كذا، ويقول آخر: بنيت مسجدين، ويقول ثالث: بنيت مسجدًا ومدرسة و... و... ويقول رابع: زينت مسجدى بكذا، ويقول خامس زينت مسجدى فهو أفضل من مسجد فلان.

وأما فعلاً: فلا يرفع أحد مبانى مسجده مباهاة، ولا يزينه مراءاة، ولا يعدد مآذنه افتخارًا، ولا يكثر إضاءته اشتهارًا، وإنما على الجميع أن يتبع منهج الإسلام فى البناء عمومًا، وفى بناء المسجد خصوصًا.

إن الحديث يحذر من التباهى ببناء المساجد، ويبين أنه من علامات

---

(١) أخرجه ابن حبان ٤/ ٤٩٢ رقم ١٦١٣ وقال محققه: إسناده صحيح. وخرجه.

الساعة، وانهيار الدنيا، وأنه مما أُحدث فى الدين مع تقدم نهى رسول الله ﷺ عنه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أراكم ستُشَرِّفُون مساجدكم بعدى كما شرَّفت اليهود كنائسها، وكما شرَّفت النصارى بِيَعَها»[١]. والمعنى: ستجعلون بناء المساجد عاليًا مرتفعًا للتباهى، كما فعل اليهود والنصارى، رفعوا مبانى الكنائس والبيع حينما حرفوا كتبهم وبدلوها.

إن الأصل فى عمل المسلم أن يكون ابتغاء مرضاة الله، فكذلك المساجد، الأصل فى إقامتها أن تكون بصدق وإخلاص، يرجو بانيها بذلك رضوان الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[٢].

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣].

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المساجد باب تشييد المساجد ١/ ٢٤٤ رقم ٧٤٠ ونقل محققه عن الزوائد: إسناده ضعيف. فيه جبارة بن المُغَلس وهو كذاب. قلت ـ د. عبد المهدى ـ: ما كذب وإنما أخطأ عليه بعض من روى عنه. راجع التهذيب ٢/ ٥٨ ولذا قال الحافظ فى التعليق على ترجمة باب بنيان المساجد رقم ٦٢ من كتاب الصلاة قال على الحديث الذى يليه فى ابن ماجه: وفيه جبارة: فى إسناده مقال.

(٢) سورة الزمر، آية: ١١.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم.

بنى مسجدًا لله تعالى (قال بُكَيْر[1]: حسبت أنه قال: يبتغى به وجه الله) بنى الله له بيتًا فى الجنة» وقال ابن عيسى[2] فى روايته «مثله فى الجنة»[3].

وعن أبى أُمامة الباهلى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شىء له» [فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: لا شىء له] ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»[4].

هذا هو الأصل فى عمل المسلم الإخلاص لله رب العالمين، لا يريد به شهرة ولا افتخارًا، لا يريد به رياء ولا سمعة.

فعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: «من بنى لله مسجدًا لا يريد به رياء ولا سمعة بنى الله له بيتًا فى الجنة»[5].

إن التباهى يُخرج العمل من دائرة الإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى إلى دائرة حظوظ النفس والرياء، وبالتالى ينقلب العمل من الطاعة إلى المعصية.

الثانى: ويحذر الحديث أيضًا من قلة عمارة المساجد بالصلاة والذكر: «يأتى على الناس زمان يتباهون بالمساجد، لا يعمرونها إلا قليلاً».

(١) أحد رجال الإسناد.

(٢) أحد رجال الإسناد.

(٣) أخرجه مسلم فى المساجد باب فضل بناء المساجد ١/ ٣٧٨ رقم ٥٣٣.

(٤) أخرجه النسائى فى الجهاد باب من غزا يلتمس الأجر والذكر ٦/ ٢٢ قال فى جامع الأصول ٢/ ٥٨٤: وسنده حسن. وما بين القوسين زيادة من طبعة المكنز ص٥٠٩ وهى فى جامع الأصول.

(٥) قال فى مجمع الزوائد ٢/ ٨: رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه المثنى بن الصباح ضعفه يحيى القطان وجماعة، ووثقه ابن معين فى رواية وضعفه فى أخرى.

إن عمارة المساجد بالبناء الشرعى والقيام على شئونها، والمحافظة على الصلاة فيها، والجلوس لقراءة القرآن والذكر فيها، كل ذلك شأن عباد الله الصالحين، وقد جاء ذلك فى القرآن والسنة:

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

هكذا نصت الآية على أن عمارة المساجد إنما تكون من المؤمنين المصلين المزكين الذين يخشون الله وحده، ثم وعدهم الله خيراً فقال ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و«عسى» من الله للتحقيق أى هم فعلاً من المهتدين.

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا عليه بالإيمان[2]. قال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾»[3].

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سبعة يُظلُّهُم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٨.

(٢) هكذا نص ابن خزيمة وابن حبان. وقال ابن حبان. وقوله «عليه» بمعنى «له» وهو هكذا عند غيرهما.

(٣) أخرجه ابن خزيمة ٢/٣٧٩ رقم ١٥٠٢ وابن حبان ٦/٥ رقم ١٧٢١ وصححاه وصححه محقق صحيح ابن خزيمة وضعفه محقق ابن حبان، وتعجب من الذين صححوه أو حسنوه، قلت: الرأى مع من صحح فـ«دراج» كان واضحًا أمام ابن حبان، وعرّف به، ووثق شيخه، و«دراج» وثقه البعض، وضعفه آخرون، ولم يذكر ابن عدى هذا الحديث فيما ينكر عليه. هذا والآية تعضد الحديث تمامًا.

أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[١].

يفيد الحديثان أن الشأن فى المؤمن أنه روّاح غداء إلى المسجد، لا يخرج منه إلا وقلبه يحنُّ إليه، يعمر المسجد بالعبادة والإصلاح، على هذا يجب أن تكون الأمة فى كل الأزمنة والأمكنة.

وعن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «المسجد بيتُ كل تَقىٍّ، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله، إلى الجنة»[٢].

هكذا تبين النصوص أن المسلم يَعْمُر المساجد بالبناء والعبادة فيها، يحرص على ذلك ويحن له، ويُكثر منه، ولهذا أثره الطيب عليه فى الدنيا والآخرة.

وقد جاءت نصوص أخرى تحذر من هجر المساجد، وتبين حال الفريق المقابل للفريق السابق، فإذا كان عُمار المساجد لهم البشرى بالهداية والرضوان، فإن هاجرى المساجد عكس ذلك، وفى الحديث معنا «يأتى على أمتى زمان يتباهَوْن بالمساجد ولا يعمرونها إلا قليلاً» فيه نوع عتب ولوم على التباهى والتفاخر بالمساجد، وأيضًا نوع عتب ولوم على قلة عمارتها.

إن الشأن فى المسلم أنه مخلص فى بناء المسجد، لا يبتغى بذلك فخرًا ولا رياء، والشأن فيه أيضًا أنه حريص على الصلاة فى المسجد، وحضور مجالس العلم، والمشاركة فى أعمال الخير والطاعة، يحرص على ذلك،

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما كذا فى الترغيب ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٦/ ٢٥٤ رقم ٦١٤٣، والأوسط، وأخرجه البزار وقال: إسناده حسن.

وعلى استدامة ذلك.

وهناك نصوص أخرى مع الحديث الذى معنا، من ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

والمعنى: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يُصلى فيها، ويُتلى فيها القرآن، ويذكر الله فيها، وعطلها عن الطاعات التى وضعت لها من تعلم العلم وتعليمه، والقعود للاعتكاف، وانتظار الصلاة، إنه لا أحد أظلم من هذا، فظلمه بلغ غاية البشاعة، ولا يُقارَنُ به أى ظلم آخر.

إن المساجد لا يصح أن تُعَطَّل، ولا يصح أن تُهجر، ولا يصح أن يتكاسل المسلم عن عمارتها بكل أنواع العمارة، فمن فعل ذلك أرعبه الله وأرعبه المسلمون، وأذله الله وأذله المسلمون، وله فى الآخرة عذاب عظيم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر»[2].

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الجفاء كل الجفاء، والكفر والنفاق من سمع منادى الله ينادى بالصلاة ويدعو إلى الفلاح فلا يجيبه»[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١١٤.

(٢) أخرجه ابن حبان ٥/ ٤١٥ رقم ٢٠٦٤ وصححه وخرجه محققه.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير جزء ٢٠ رقم ٣٩٤، ٣٩٥ وأخرجه أحمد ٢٤/ ٣٩٠ رقم ١٥٦٢٧ وهو حديث حسن فابن لهيعة تابعه رشدين، وزبان - بالباء الموحدة - بن فائد ضعفه ابن معين ووثقه أبو حاتم كذا فى مجمع الزوائد ٢/ ٤١، ٤٢.

وسئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار، ويقوم الليل، لا يشهد جمعة ولا جماعة؟ فقال: هو فى النار[1].

وهكذا تحذر النصوص من التباهى والتفاخر ببناء المساجد، وتحذر أيضًا من عدم عمارتها، فإنها إنما تبنى بالإخلاص والصدق، وتعمر بالطاعة والذكر، وبذا يصل المسلم لما يريده من رضوان الله ومغفرته.

زخرفة المسجد: زخرفة المسجد تزيينه بأى شىء:

فنقش الجدران بالألوان أو الرسومات أو الأحجار الملونة أو الرخام مختلف الألوان.

ونقش السقف بالألوان أو الرسومات.

وفرش الأرض بالفرش ذات الألوان أو الرسومات.

وتعليق اللوحات على الجدران.

وتعليق الثريات على الجدران أو فى السقف.

والأنوار الكثيرة داخل المسجد وخارجه وعلى المآذن.

ووضع الستائر على الجدران والمنبر.

وتزيين المنبر بالألوان والرسومات، أو بتداخل الأخشاب والأحجار.

والمبالغة فى ارتفاع المنبر وطوله.

والساعات الكبيرة، وربما تدق.

والرسومات فى الجدران والسقف والأعمدة غائرة أو بارزة.

ورفع المبانى وتعليتها، ورفع الشرفات فوقها.

(١) أخرجه الترمذى فى الصلاة باب ما جاء فيمن يسمع النداء فلا يجيب ١/ ٦٣٣ رقم ٢١٨.

وكثرة الأعمدة وضخامتها.

والتكلف فى بناء المساجد.

وإقامة المآذن وتعليتها، ونقشها وإضاءتها.

وصنع القباب فوقها ـ أى فوق المساجد ـ.

ومجمل القول أن كل ما كان من هذا القبيل، مما فيه تكلف أو زينة تشغل المصلى فهو من زخرفة المسجد.

وفى الأحاديث التى فى صدر الباب نهى عن كل ذلك، وإبانة أنه ليس من الإسلام، وأن على الأمة أن تحذر ذلك، ولا تتبع فيه سبيل اليهود والنصارى.

فحديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد» وقال ابن عباس: «لتزخرفنها كما زخرفتها اليهود والنصارى» يدل على عدم شرعية رفع المبانى وتزيينها، وقول ابن عباس: لتزخرفنها...» فيه عتب ولوم على فعل ذلك، وبيان أنه من فعل الأمم الأخرى، ونحن منهيون عن مشابهتهم.

وحديث أنس عن رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمان يتباهون بالمساجد، لا يعمرونها إلا قليلاً» فيه تحريم التباهى، وتحريم هجر المساجد.

وحديث أُبى: «إذا حليتم مصاحفكم، وزوقتم مساجدكم فالدمار عليكم» وهو مروى من كلام أُبى ومن كلام أبى الدرداء ومن كلام أبى هريرة، ومن كلام أبى ذر لكنه مما له حكم المرفوع، لأنه لا يقال من قبل الرأى، فهو مما استفاده الصحابة من رسول الله ﷺ[1]. وفيه التحذير من

(١) وقد أخرجه عبد الرزاق مرفوعًا عن إسماعيل بن عياش عن حسين بن عبيد الله بن يسار قال: =

زخرفة المساجد، فإن ذلك دليل الانحراف عن الشرع. وذلك ينتج عنه غضب الله تعالى.

وفى حديث جبير بن مطعم «ولا تُبنى - المساجد - بالتصاوير، ولا تُزين بالقوارير». ونص الحديث كاملاً:

عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسلُّ السيوف ولا تُنثَرُ النَّبْلُ فى المساجد، ولا يُحلف بالله فى المسجد، ولا يُمنع القائلة فى المساجد مقيمًا ولا ضيفًا، ولا تُبنى بالتصاوير، ولا تُزين بالقوارير، فإنما بنيت بالأمانة وشُرِّفت بالكرامة»(١).

وأمر عمر بن الخطاب بتجديد مسجد النبى ﷺ وقال للمسئول عن البناء: أَكِنَّ الناس من المطر، وإياك أن تُحَمِّر - أو تُصَفِّر - فَتَفْتِنَ المسلمين(٢).

وقال عمر أيضًا: ما ساء عمل قوم قَطُّ إلا زخرفوا مساجدهم(٣).

وعن علىّ بن أبى طالب قال: إن القوم إذا زينوا مساجدهم فسدت أعمالهم(٤).

وعن أبى حَصِين - عثمان بن عاصم بن حصين(٥) - قال: كان يُقال:

= حدثنى بعض أشياخنا أن النبى ﷺ قال: «تُزخرف مساجدكم كما زخرفت اليهود والنصارى بِيَعَها» أخرجه ٣/ ١٥٣ رقم ٥١٣١.

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٢/ ١٣٩ رقم ١٥٨٩ وقال فى مجمع الزوائد ٢/ ٢٥: رواه الطبرانى فى الكبير وفيه بشر بن جبلة وهو ضعيف.

(٢) ذكره البخارى معلقًا فى كتاب الصلاة باب بنيان المسجد ١/ ٥٣٩ قبل حديث رقم ٤٤٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المساجد باب تشييد المساجد ١/ ٢٤٤ رقم ٧٤١ ونقل محققه عن الزوائد أن شيخ ابن ماجه جبارة بن المغلس كذاب. قلت: بل هو ضعيف.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ١٥٤ رقم ٥١٣٤.

(٥) الأسدى الكوفى، أحد العلماء الأفذاذ، وهو أحد التابعين، توفى ١٢٨هـ. تهذيب ٧/ ١٢٦.

إذا ساء عمل أمة زيَّنوا مساجدهم[١].

وواضح من هذه النصوص أن الزخرفة حرام، وفيها مخالفات شرعية متعددة، منها:

١ـ أنها أمر نهى عنه الإسلام، وحذر منه ومما يترتب عليه من أضرار، كما فى حديث «إذا حليتم مصاحفكم وزوقتم مساجدكم فالدمار عليكم».

٢ـ الزخرفة تَشَبُّهٌ بالأمم الأخرى، وهذا أمر محرم، كما فى حديث «ليس منا من تشبه بغيرنا»[٢] وحديث «من تَشَبَّه بقوم فهو منهم»[٣].

٣ـ والزخرفة تتعارض مع منهج الإسلام فى تحريم الإسراف، فهى إسراف وإضاعة للأموال فيما لا يفيد. وقد روى عن ابن مسعود أنه مَرَّ على مسجد مزخرف فقال: لعن الله من زخرفه، المساكين أحوج من الأساطين ـ الأعمدة ـ.

٤ـ والزخرفة تمثل نوعًا من الخلل الفكرى فى الأمة، إذ تجعل فاعليها يهتمون بما لا يفيد، فكيف تنفق الأموال وجهود العمال فى تجميل جدار، أو تزيين أعمدة؟! ولذا بين ﷺ أن الذين يتباهون بالمساجد لا يعمرونها إلا قليلاً، وأثر عن الصحابة ـ كما تقدم ـ أن زخرفة المساجد مقترنة بفساد الأعمال، وأن الأمم الأخرى ما زخرفوا أماكن عبادتهم إلا بعد أن

---

(١) أخرجه أحمد فى الزهد ص١٤٨ رقم ٤٤٢. آخر زهد يوسف. وقبل زهد أيوب بقليل.

(٢) أخرجه الترمذى فى الاستئذان باب كراهية إشارة اليد فى السلام ٧/ ٤٧٢ وقال: إسناده ضعيف، ويشهد له الذى بعده، وغيره.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٨/ ١٧٩ رقم ٨٣٢٧ والبزار عن حذيفة كما فى كشف الأستار ١/ ٨٦ رقم ١٤٤ وأخرجه أبو داود وأخرجه أحمد ٩/ ١٢٣ رقم ٥١١٤ وص ١٢٦ رقم ٥١١٥ وهو حديث حسن يرتقى بالشواهد إلى الصحيح. وراجع ج٢ ص٤٧ من هذا الكتاب.

حرفوا كتبهم.

٥ـ والزخرفة تشغل المصلى، وتضيع عليه الخشوع فى الصلاة، وهذا فى غاية الخطورة. فانشغال المصلى عن الصلاة يجعل الصلاة لا ثواب عليها، وقد يجعلها باطلة!! وقد رفض ﷺ الزخرفة فى محيط الصلاة: فعن أنس: كان قِرَامٌ[١] لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النبى ﷺ: «أميطى عنا قِرَامَكِ هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرضُ فى صلاتى»[٢].

وعن عائشة أن النبى ﷺ صلى فى خميصة[٣] لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخميصتى هذه إلى أبى جَهْم، وائتونى بأَنْبجانية[٤] أبى جهم، فإنها ألهتنى آنفًا عن صلاتى» وفى لفظ آخر «كنت أنظر إلى علمها وأنا فى الصلاة فأخاف أن تفتننى»[٥] أهدى أبو جهم ـ عبيد الله بن حذيفة القرشى الصحابى المشهور ـ كساء لرسول الله ﷺ، هذا الكساء فيه رسومات، فخشى ﷺ أن تشغله هذه الرسومات، فأرسل هـذا الكساء إلى أبى جهم، وحتى لا ينكسر خاطره يظن أن رسول الله لم يقبل هديته، طلب ﷺ منه كساء لا رسم فيه «أنبجانى» يُعَلِّمُ الأمةَ ﷺ أن الرسوم والصور والأشياء الظاهرة قد تؤثر على المصلى، فيجب البعد عنها، أرسلها إلى أبى جهم ليستعملها فى غير الصلاة.

إن عثمان بن عفان حينما أعاد بناء المسجد النبوى، وضع الصُّنَّاع

---

(١) ستر رقيق من صوف ذو ألوان.
(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة باب إن صلى فى مصلَّب أو تصاوير هل تفسد صلاته؟ ١/ ٤٨٤ رقم ٣٧٤.
(٣) كساء مربع له أعلام.
(٤) كساء غليظ لا علم له.
(٥) أخرجه البخارى فى الصلاة باب إذا صلى فى ثوب له أعلام ١/ ٤٨٢ رقم ٣٧٣.

زينات فى السقف، فرفض ذلك عثمان.

فعن عطاء الخراسانى قال: لما بُنى المسجد فى عهد عثمان جعلوا فى سقفه أبرجة[1]، فكان الداخل إذا دخل يسمو بصره إليها، فبلغ ذلك عثمان فأمر بها فنزعت[2].

إن المساجد إنما بنيت للتخلص من ماديات الحياة وزخرفها، وللتفرغ لطاعة الله وعبادته، والتزخرف عكس ذلك تمامًا، ومن هنا منع منه الإسلام، ودعا للبساطة فى بناء المساجد.

تحلية المصاحف: فى الأحاديث التى نحن بصدد شرحها حديث أبى بن كعب: إذا حليتم مصاحفكم، وزوقتم مساجدكم فالدمار عليكم. وهذا القول مروى عن عدد من الصحابة، لكنه له حكم المرفوع، أى حكم المضاف إلى رسول الله ﷺ، فإنه مما لا مجال للرأى فيه. وهذا الكلام إما إخبار بأن الأمة لو حلت المصاحف، وزخرفت المساجد حل بها الهلاك، وإما دعاء على الأمة بالهلاك إذا حلت المصاحف وزخرفت المساجد.

وهذا الحديث يفيد التحذير من تحلية المصاحف، وأنه لا يصح أن تُزخرف وأن تُزين فلا تُلون حافة المصحف بلون الذهب، ولا جلدته، ولا تُزين علبته، ولا يُطبع بألوان متعددة.

إن تحلية المصحف صرف الطاقة الإيمانية فى غير موضعها، فحب المسلم كلام الله يجب أن يظهر فى صورة تعلمه وتعليمه، لا فى تحليته وتزيينه.

إن تعظيم القرآن الكريم إنما هو فى العمل به، وذلك إنما يكون بتدبره

(١) زينات.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة ٢/ ٤٦ كتاب الصلاة باب الصلاة فى البيت فيه تماثيل.

وحمل النفس على نواهيه فتُجتنب، وعلى أوامره فتُمتثل.

فعن برد بن سنان قال: ما أساءت أمة العمل إلا زينت مصاحفها ومساجدها[١].

إن الاهتمام بالمظهر الخارجى دليل السطحية، والبعد عن الجوهر. فالاهتمام بزينة المصحف دليل على عدم فقه ما فيه!! وطريق انحراف العمل عما فيه.

وعن عبد الله بن مسعود أنه أُتى بمصحف قد زُيِّن وذُهِّب فقال: إن أحسن ما زُين به المصحف تلاوته فى الحق[٢].

وعن عبد الله بن عباس أنه رأى مصحفًا يُحلى فقال: تُغرون به السُّراق، زينته فى جوفه[٣]. يريد ابن عباس أن تحلية المصحف تُغرى اللصوص بسرقته، والمصحف لا يحتاج تحلية، فجماله وعظمته بما فيه، فهو كلام الله، ودين الله الذى يُسعد البشرية.

وهكذا يتضح أن الإسلام ينهى عن تحلية المصحف، وأن خير ما يُعظم به العمل والانقياد لما فيه، كما سيأتى فى العنوان الآتى:

واجب الأمة تجاه المصحف: المصحف: اسم للأوراق التى كُتب فيها كلام الله المنزل على رسوله محمد، مجتمعة بين دفتين. وبتعبير آخر المصحف هو القرآن الكريم مكتوبًا.

---

(١) أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف ص٣٤١ رقم ٤٧٦ وقال محققه: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٩/ ١٧٠ رقم ٨٨٤٦، وقال فى مجمع الزوائد ٧/ ١٦٨: رجاله ثقات، وأخرجه ابن أبى شيبة ١٠/ ٥٤٦ رقم ١٠٢٨٤، وأخرجه عبد الرزاق ٤/ ٣٢٣ رقم ٧٩٤٧. وأخرجه ابن أبى داود فى المصاحف ص٣٤٢ رقم ٤٨٣.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة ١٠/ ٥٤٦ رقم ١٠٢٨٢. وابن أبى داود فى المصاحف ص٣٤٣ رقم ٤٨٥.

وأصل كلمة «مُصْحَف»: الجامع للصحف المكتوبة بين الدَّفَّتَيْن[(١)]، ولذا أطلق على الصفحات التى كتب فيها القرآن «مصحف» وشاع ذلك بين المسلمين، حتى أصبح عَلَمًا على ذلك. فإذا قيل: «مصحف» فإنه ينصرف إلى كلام الله المكتوب فى أوراق، المجموع بين دفتين، ولا ينصرف إلى غيره.

وهكذا فكلمة «المصحف» عزيزة عند المسلمين.

ويهمنى هنا أن أُعَرِّف بما يجب على الأمة تجاه هذا الكتاب العظيم:

١ـ العمل به:

العمل بالقرآن من أعظم الواجبات على المسلمين، يجب عليهم أن يفهموه، وأن يعملوا به. قال الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾[(٢)]. وفى هذا بيان مصدر القرآن وأنه وحى الله إلى رسوله، وفيه أيضًا بيان قدر القرآن، وأنه «مبارك» يسعد البشرية كل السعادة، فعلى البشرية أن تتدبره وتتفهمه وتعمل به، فهذا سبيل سعادتها.

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[(٣)]. إنه يدل البشرية على الصراط المستقيم ويأخذ بأيديهم إلى المنهج القويم.

ويقول سبحانه: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[(٤)]. هذا هو الكتاب الذى اشتمل على سبل الهدى يقينًا، واشتمل على الحق والصدق أكيدًا.

---

(١) يسمى «الجلدتين» أو «الغلافين».

(٢) سورة ص، آية: ٢٩.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢.

وغير هذه الآيات آيات أخرى كثيرة تبين عظمة القرآن، ووجوب العمل به. وجاءت أيضًا أحاديث فى السنة النبوية تبين ذلك:

فعن أبى شُريح الخُزَاعِىِّ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله ﷺ؟» قالوا: بلى: قال: «فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا»[1].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[2].

وعن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه»[3].

فى هذه الأحاديث أمر بالعمل بالقرآن والسنة، فذلك العصمة من الضلال، والسلامة من الهلاك، وهو سبيل الهُدَى والتُّقَى.

٢. التحذير من عدم العمل به:

جاءت نصوص كثيرة تحذر من عدم العمل بالقرآن الكريم، وأن ذلك يورث الغواية والضلال، ويؤدى إلى خسران الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ

---

(١) أخرجه ابن حبان ١/ ٣٢٩ رقم ١٢٢. وأخرجه ابن أبى شيبة ١٠/ ٤٨١ رقم ١٠٠٥٥، وأخرجه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح كذا فى مجمع الزوائد ١/ ١٦٩.

(٢) أخرجه مسلم فى الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٢ رقم ٤٣ ـ ٨٦٧.

(٣) أخرجه الحاكم ١/ ٩٣ بسند حسن. وأخرج له شاهدًا عن أبى هريرة. وأخرجه مالك فى الموطأ بلاغًا، وأخرجه البيهقى.

أضلُّ ممَّن اتَّبعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾[2]. ومعنى: أعرض عن ذكرى: أعرض عن نصوص دين الله من كتاب وسنة، إذ الذكر معناه الوحى.

ويحذر رسول الله ﷺ فى كثير من أحاديثه من عدم العمل بالقرآن الكريم:

* فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بعدى من أمتى (أو سيكون بعدى من أمتى) قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة، ثم لا يعودون فيه. هم شر الخلق والخليقة»[3].

يحذر ﷺ من طوائف ستظهر فى الأمة، يقرءون القرآن لكن لا يعملون به، ويبين أنهم يخسرون إيمانهم، وهم شر الخلق أى الناس، وشر الخليقة أى كل المخلوقات.

* وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه، أو على ظهر بعيره، أو على قدميه حتى يأتيه الموت.

(١) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٣ ـ ١٢٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢/ ٧٥٠ رقم ١٥٨ ـ ١٠٦٧.

وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئًا يقرأ كتاب الله، ولا يرعوى إلى شىء منه»[1]. ومعنى «لا يرعوى إلى شىء منه» لا يلتفت إلى شىء منه.

ففى هذين الحديثين تحذير من ترك العمل بالقرآن، ففاعل ذلك من شر الناس، يخرج من الدين ولا يدرى، وينكر كتاب الله ولا ينتبه.

ولقد كان السلف يعرفون هذه الحقيقة، وحذروا من ذلك كل التحذير:

فعن الحسن البصرى قال: إن هذا القرآن قد قرأه صبيان وعبيد، لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوْله[2]: قال الله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، وما تدبر آياته إلا اتباعه بعلمه، والله ما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن كله وما أُسقِط منه حرفًا واحدًا، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له فى خلق ولا عمل. وحتى إن أحدهم ليقول: والله إنى لأقرأ السورة فى نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقُراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا؟ لا كثّر الله فى المسلمين من هؤلاء[3].

٢- الاجتهاد فى تعلمه وتعليمه:

حث الإسلام على الاجتهاد فى تعلم القرآن وتعليمه:

* قال الله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[4]. أى تعلم الكتاب

---

(١) أخرجه أحمد ١٧/ ٤٢١ وحسنه محققه بالشواهد. وأخرجه الحاكم ٢/ ٦٧، ٦٨ وصححه ووافقه الذهبى. وفى مسند أحمد تخريج كثير له.

(٢) الأوْل: المآل من آل يئول إذا رجع وصار، ورباعيُه أوّل تأويلاً. أى إنهم لا يستطيعون تفسير القرآن وتأويله.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣٦٣ رقم ٥٩٨٤ والفريابى فى فضائل القرآن ص٢٤٦، ٢٤٧ رقم ١٧٧ وابن نصر فى قيام الليل ص٧٢، ٧٣ وأخذته بطريق النص المختار.

(٤) سورة مريم، آية: ١٢.

بجد وحرص واجتهاد فهذا طريق النوال. وهذا حث لنا أن نكون على هذا الدرب.

* وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]. أى جاهدوا فى امتثال أوامر الله ونواهيه، فعملوا بما علموا، هؤلاء يهديهم الله صراطه المستقيم، ويشرح صدورهم للحق، وفيه حث للأمة فى كل زمان ومكان أن يجتهد كل واحد فى فهم دين الله، والعمل به، فهذا سبيل القبول.

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسى بيده لهو أشد تَفَصِّيًا من الإبل فى عُقُلها»[٢] والمعنى: داوموا قراءة القرآن، وإلا تفلت منكم، فإنه سريع التفلت، كما أن الإبل قوية التفلت من رباطها.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبى ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل نُسِّى، واستذكروا القرآن، فإنه أشد تَفَصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَم»[٣] ينكر ﷺ أن يقول المسلم نسيت آية كذا وكذا «كيت وكيت» يعبر بهما عن الجُمَل الكثيرة والحديث الطويل، فإن «نَسِيتُ» تفيد أن له دخلاً فى النسيان، وذلك بعدم ملازمة تلاوة القرآن واستذكاره. أما «نُسِّيتُ» فهذه التى تقال، ذلك أنها تشعر أن نسيانه لأمر خارج عن إرادته، وفيه حث على مداومة قراءة القرآن، وأن ترك القراءة حتى ينسى لا يصح أن يكون من المسلم. ثم يحث ﷺ على استذكار القرآن وذلك بالمواظبة على تلاوته والحرص على المذاكرة به، فإنه شديد

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩ آخر آية.
(٢) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب استذكار القرآن ٩/ ٧٩ رقم ٥٠٣٣.
(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب استذكار القرآن ٩/ ٧٩ رقم ٥٠٣٢.

التفلت والذهاب من صدور الرجال شأن النَّعَم أى الإبل تتفلت من قيدها، وتحرص على الفكاك من عقالها.

وعن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار[1]. ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[2] وليس المراد بالحسد هنا تمنى زوال نعمة على الغير، وإنما المراد أنه لا يجوز التسابق والحرص على التقدم إلا فى القيام بالقرآن تلاوة وطاعة معظم أوقات الليل والنهار، وكذلك إنفاق المال معظم ساعات الليل والنهار؛ ففى ذلك فليتنافس المتنافسون، وفيه حث على الاجتهاد فى تلاوة القرآن الكريم، وأيضًا الاجتهاد فى فهم معانيه، والامتثال لما فيه، إن أمر فيمتثل، وإن نهى فيُجتَنَب.

٤. معرفة قدره:

يجب على المسلم أن يعرف قدر القرآن الكريم، وأنه كلام الله سبحانه، وأنه لا مثل له فى هذه الحياة، فهو الحق الكامل، أنزله الله على رسوله محمد ﷺ. وتكفل سبحانه وتعالى بحفظه، على مدى الأعوام والقرون، وتكفّل ببيانه فبينه لرسوله، وبلغ رسول الله ﷺ الأمة القرآن وبيان القرآن، وذلك بسنته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾[3].

(١) آناء الليل وآناء النهار: ساعات الليل وساعات النهار. وآناء جمع إِنْىٌ مثل نِحْىٌ وأنحاء. وأيضًا جمع إِنًى مثل مِعًى وأمعاء.

(٢) أخرجه البخارى رقم ٥٠٢٥ وأخرجه مسلم رقم ٨١٥ واللفظ له.

(٣) سورة المائدة، آية: ٤٨.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٣).

هكذا القرآن، هو الحق الذى أنزله الله إلى نبيه محمد ﷺ، شاهداً على الرسل والأمم والكتب السابقة، تكفل سبحانه وتعالى بحفظه وبيانه لرسوله، وعلى رسوله أن يبينه للأمة.

وكثير من الآيات تبين قدر القرآن الكريم، من ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٥).

وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٦).

وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٧).

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩.
(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.
(٣) سورة القيامة، آية: ١٦ ـ ١٩.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢.
(٥) سورة الإسراء، آية: ١٠٥.
(٦) سورة إبراهيم، آية: ١.
(٧) سورة هود، آية: ١.

وآيات غير ذلك كثير، تقدم بعضها فى الواجب الأول على الأمة «العمل بالقرآن الكريم»(١).

وعرّف رسول الله ﷺ بقدر القرآن الكريم فى كثير من أحاديثه، تقدم بعضها فى الواجب الأول أيضًا(٢)، وأزيد هنا:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «ما من الأنبياء نبى إلا أُعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(٣). إن الله سبحانه أعطى الأنبياء من المعجزات ما أقام الدليل على صدقهم، بيد أن معجزات كل الأنبياء كانت حسية تقنع من رآها، أما رسول الله محمد ﷺ فكانت معجزته الكبرى القرآن الكريم، وهو وحى معجز بكثير من الأوجه، ومن هنا يظل إعجازه أمام الأجيال داعيًا إلى الله، يقيم الله به الحجة على الخلق فيؤمن أهل الإنصاف، فتكثر أمة الإسلام.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٤) إن المجتمعين لتلاوة القرآن وتدارسه يُنزل الله عليهم الطمأنينة والوقار، فتستريح أبدانهم ويسعد بالهم، ويعمهم سبحانه برحمته، وتحيط بهم الملائكة حفاوة واحترامًا، وَيَذْكُرُهُم الله فى الملأ الأعلى، وهذا كله

---

(١) ص٢٤٤.

(٢) ص٢٤٥.

(٣) أخرجه البخارى فى أول كتاب فضائل القرآن ٣/٩ رقم ٤٩٨١ وفى الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى ﷺ بعثت بجوامع الكلم ٢٤٧/١٣ رقم ٧٢٧٤، وأخرجه مسلم فى الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ١/ ١٣٤ رقم ١٥٢.

(٤) أخرجه مسلم فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٤/ ٢٠٧٤ رقم ٢٦٩٩.

دليل على رضوان الله عليهم وإكرامه سبحانه لهم.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عز وجل أهلين من الناس». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»(١) يبين ﷺ قدر الذين يتلون القرآن كثيرًا ليلاً ونهارًا، ويعملون به بأنهم أولياء الله وأحباؤه؛ ذلك أنهم يتلون كلامه، ويستقيمون على دينه.

٥ـ التحذير من التقصير فى حقه:

وعلى المسلم أن لا يُقصر فى حق القرآن الكريم، ولقد جاءت أحاديث نبوية تحذر من نقائص يرتكبها البعض حيال القرآن الكريم، من ذلك:

ـ **طلب الدنيا به**: فلا يصح أن تُطلب الدنيا بالقرآن، وإنما يُقام بكل حقوقه احتسابًا، أى رجاء رضوان الله سبحانه، فمن تعلمه فليتعلمه لله، ومن علمه فليعلمه لله، ومن تفقه فيه فليتفقه فيه لله، فليأخذ بأسباب فهم القرآن، وما مَنَّ الله به عليه وتأكد صحته فليعلمه للآخرين، إن القرآن لا يصح أن تُطلب به الدنيا:

* فعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهى به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٥٥٦ وقال: قد روى هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها، وقال الذهبى: هذا أجودها وأخرجه أحمد ١٩/ ٢٩٦ رقم ١٢٢٧٩ وقال محققه: إسناده حسن من أجل عبد الرحمن بن بُديل العقيلى. وباقى رجاله ثقات رجال الصحيح. وذكر أنه ورد فى أحمد رقم ١٢٢٩٢ ورقم ١٣٥٤٢.

(٢) قال فى الفتح ٩/ ١٠٠ شرح حديث ٥٠٥٩: أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن وأخرجه الحاكم وصححه.

* وعن يحيى بن أبى كثير رفع الحديث إلى النبى ﷺ قال: «سيقرأ القرآن ثلاثة، رجل يقرؤه ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه من الله، فذلك ثوابه على الله. ورجل يقرؤه رياء وسمعة ليأكل به فى الدنيا، فذلك عليه لا له. ورجل يقرؤه فلا تجاوز قراءته ترقوته»[1].

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[2]. و«عرض الدنيا» المال أو الجاه.

* وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تُماروا به السفهاء، ولا تخيّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[3] ومعنى: «ولا تخيروا به المجالس»، أى لا تطلبوا الوجاهة وصدارة المجالس. والمعنى أن العلم لا يطلب للتباهى أى التفاخر، وللتمارى أى الجدل، ولا للوجاهة، فمن فعل ذلك عوقب بالنار، نعوذ بالله من ذلك.

* وعن أبى هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأُتى به فعرفه ـ الله ـ نعَمَه فَعَرَفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يُقال: جرىء، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتى به فعرّفه نعمه فعرفها.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣٧٠ رقم ٦٠٠٠ وهو مرسل.

(٢) أخرجه ابن حبان ١/ ٢٧٩ رقم ٧٨ وفيه تخريجه، وصححه محققه.

(٣) أخرجه ابن حبان ١/ ٢٧٨ رقم ٧٧، وحكم محققه أنه: صحيح لغيره.

قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمتُه، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتى به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقى فى النار»[1].

وهكذا تفيد النصوص أن المصحف إنما يقرأ ابتغاء مرضاة الله، لا نطلب به دنيا، لا نقرؤه طلبًا للوجاهة ولا للسمعة، لا نقرؤه للرياء ولا للمفاخرة، لا نقرؤه لجمع المال ولا للجدال. فمن فعل شيئًا من ذلك فقد أبعد نفسه عن الجنة، وجعل نفسه من أهل النار.

وأما أخذ المعلمين الأجرة على تحفيظ القرآن فإن هذا جائز، نظرًا لأنهم قصروا أوقاتهم على التحفيظ، ولأنهم يُعلمون القراءة والكتابة وحفظ القرآن. ولو أنهم لم يشترطوا ويتركوا للمتعلم أو وليه تقدير ذلك لكان أفضل؛ إذ إنه يصبح من باب الهدية[2].

وكذلك يجوز أخذ الأجرة على الرقية، دل على هذين ـ أجرة التعليم وأجرة الرقية ـ حديث: عبد الله بن عباس أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ مروا بماء[3] فيهم لديغ[4] فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ٣/١٥١٣ رقم ١٥٢ ـ ١٩٠٥.

(٢) راجع البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/٤٥٧.

(٣) أى بقوم نزول على ماء.

(٤) أصابته عقرب، فافرغت من سُمها فى جسمه.

فيكم من راق؟ إن فى الماء رجلاً لديغًا، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء[١]، فبرأ فجاء[٢] بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك[٣]، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرًا، حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرًا! فقال رسول الله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»[٤].

- **نسيانه:** ومما يجب أن نحذره نسيان القرآن الكريم، سواء نسيانه بعد حفظه نظرًا أو غيبًا، أو نسيان تفسيره والعمل به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٥]. إن الله سبحانه يسر حفظ القرآن وفهمه فهل من طالب علم بالقرآن فيعينه الله عليه، وهل من طالب علم بمعنى القرآن والعمل به فيشرح الله صدره به، فمن أراد شيئًا من ذلك أو كل ذلك فالله ميسره له.

وعن الضحاك: ما تعلم أحد القرآن فنسيه إلا بذنب، ثم قرأ ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٦] وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن[٧].

وعن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ أنه قال: «وما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقى الله أجذم»[٨]. والجذم: القطع. والمعنى مقطوع الحجة،

---

(١) جمع شاة. وكانوا قد اتفقوا على أن يدفع أهل اللديغ ثلاثين شاة للصحابة.

(٢) الراقى من الصحابة.

(٣) كرهوا أن يذبحوا من الغنم حتى يسألوا رسول الله: أحلال أم حرام؟ وإنما أكلوا الطعام وشربوا اللبن الذى قُدم لهم مع الغنم.

(٤) أخرجه البخارى فى الطب باب الشروط فى الرقية بفاتحة الكتاب ١٠/١٩٨ رقم ٥٧٣٧.

(٥) سورة القمر، آية: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٦) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٧) أخرجه ابن نصر فى قيام الليل ص٧٤.

(٨) أخرجه أحمد ٣٧/ ١٢٠ رقم ٢٢٤٥٦ وص٤١٩ رقم ٢٢٧٥٨ وص٤٤٤ رقم ٢٢٧٨١ وفيه =

أى لا حجة له ولا لسان يتكلم به.

وعن عبد الرحمن بن شبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تَجْفُوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»[١] ومعنى: (لا تغلوا فيه) أى: لا تبالغوا فى تفسيره، فتزيدوا عما يحتمله النص. ومعنى (ولا تجفوا عنه) أى: لا تقصروا فى تفسيره، والجملتان فيهما النهى عن الإفراط والتفريط، وإنما التوسط.

وعن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢]. إن القرآن لا يُفسر بالرأى المجرد، وإنما يُفسر بناء على علوم أخرى، فإذا استغلق معنى كلمة أو جملة فلا بد من الرجوع إلى اللغة العربية، وإذا جاءت آية مجملة فالسنة النبوية تبينها، وقد تُبيِّن آيةٌ آيةً أخرى، وقد يرد تفسير آية في حديث نبوى، وقد يفسر صحابى آية، وهم أدرى بأسباب النزول وملابسات الوحى، وهكذا فهناك علوم يعتمد عليها التفسير حتى يكون صحيحًا يؤجر فاعله، أما من فسره دون الاعتماد على هذه العلوم، فحتى لو أصاب فهو آثم، لأن إصابته إنما حصلت اتفاقًا، وهذا لا يصح مع القرآن الكريم.

وهكذا تفيد النصوص أن القرآن لا يصح أن يُنسى، سواء فى حفظه أو تفسيره والعمل به، وأنه لا يُنسى إلا بشؤم معصيـة، ومن نسى القرآن لقى الله وقد ضيّع حجته، إن القرآن يُفهم وفق قواعد وأصول، فلا

= تخريجات كثيرة من غيره. وبين محققه ما فى إسناده من أسباب ضعف. وهو فى أبى داود فى الوتر باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه ٤/ ٣٤٤ وعبد الرزاق ٣/ ٣٦٥ رقم ٥٩٨٩ والدارمى ٢/ ٥٢٩ رقم ٣٣٤٠.

(١) أخرجه أحمد ٢٤/ ٢٨٨ وصححه محققه وخرجه.

(٢) أخرجه أبو داود فى العلم باب الكلام فى كتاب الله بلا علم ١٠/ ٨٤.

إفراط ولا تفريط، ولا اعتماد على الرأى، وإنما لا بد من الاعتماد على القرآن الكريم يُحفظ مع الاعتماد على أصول القراءة وعلى السُّنة النبوية وعلى علوم اللغة، وعلوم السنة، وعلوم القرآن، وعلوم أصول الفقه، ولقد تكلم العلماء فى شروط المفسر ضمن علوم القرآن الكريم، فمن جمع هذه الشروط جاز له أن يفسر القرآن الكريم، وما فسره فعليه أن يحافظ عليه حتى لا ينساه أو ينسى العمل به، ومن لم يجمعها فليقرأ تفسير مَنْ جمعها على أن يكون مؤهلاً لفهم كتب الأئمة. وعليه أن يدارس القرآن مع العلماء وطلاب العلم، فما فهمه فليعمل به، وليحذر نسيانه.

٦ـ معرفة الواجب على أهله:

أهل القرآن أولياء الله وخاصته من خلقه، هم أهل حب الله ورضوانه. إلا أن هذا له شروط، يجب عليهم أن يقوموا بها، وعلى أهل الخير أن يحملوهم عليها ويساعدوهم، من ذلك:

ـ **سلامة قراءة القرآن الكريم:** فعليهم أن يأخذوه عن شيخ له إسناده، ودقيق فى الأداء، وذلك حتى يكون إسنادهم متصلاً، وقراءتهم سليمة.

قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]. أى اتل القرآن بطمأنينة وتؤدة مع مراعاة الأحكام.

قال ابن عباس: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ بيِّنْهُ تَبْيِينًا[2].

وقال علىّ بن أبى طالب: الترتيل هو تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف[3].

(١) سورة المزمل، آية: ٤.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن منيع فى مسنده ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبى حاتم كذا فى الدر المنثور ٦/ ٢٧٧.

(٣) النشر فى القراءات العشر ١/ ٢٠٩.

والأمر فى قول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ يفيد الوجوب، وأن تجويد القرآن فرض عين على من يقرأ القرآن الكريم.

وعن موسى بن يزيد الكندى قال: كان ابن مسعود يُقرئ رجلاً فقرأ «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» مرسلة. فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها النبى ﷺ. فقال: وكيف أقرأكها؟ قال: أقرأنيها «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» فمدّها[1].

لقد قرأ الرجل الآية مرسلة أى مقصورة بدون مدٍّ فى المتصل فى كلمة «الفقراء» فبين له ابن مسعود أن رسول الله لم يعلمه هكذا، وإنما قرأها ﷺ بمد المتصل. وهذا يدل على أن أحكام القراءة يجب أن تُتبع كما رويت عن رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يُقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ، وارق، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[2].

فعلى أهل القرآن أن يجودوه، ويأخذوه عن شيخ، ويتقنوا قراءته.

- فهم معانيه: وعلى أهل القرآن أن يجتهدوا فى فهم القرآن الكريم، فإنه إنما أنزله الله لنفهمه ولنعمل به، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3]. والمعنى: إن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله ﷺ هذا القرآن مباركًا أى فيه الخير كل الخير، وفيه الهدى كل الهدى، أنزله سبحانه لتتدبره الأمة أى تتفهم ما فيه من

(١) ذكره فى الدر ٣/ ٢٥٠ وعزاه لسعيد بن منصور والطبرانى وابن مردويه.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى والحاكم وصححه والبيهقى فى السنن، كذا فى الدر ٦/ ٢٧٧.

(٣) سورة ص، آية: ٢٩.

تكاليف، من عقائد سليمة، وعبادات صحيحة، وأخلاق كريمة، وليتأمل أصحاب العقول ما فيه من آيات كونية دل عليها، تأخذ بأيديهم إلى الرشاد والفلاح.

وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

والمعنى: إن الله أنزل عليك القرآن يا محمد فلا تتضايق من جحود الكافرين، وإنما أنذر به وذكر أهل الإيمان، وعلى المؤمنين أن يتبعوا ما أنزل الله عليك، ولا يتبعوا غيره، فالخير فيه دون سواه.

وفى هذا أمر لنا أن نعمل بالقرآن الكريم، نتفهمه ونقتدى به، نجعله مصدر معارفنا، وهادينا إلى صراط الله المستقيم.

- **العمل به:** سبق أن بينت أن الواجب على الأمة العمل بالقرآن الكريم، لكنى وأنا أتحدث عن الواجب على أهل القرآن الكريم أرى أن هذا الواجب عليهم يزيد عن الواجب على الأمة، فأردت أن أذكر لهم ما عندى من نصوص:

فعن حذيفة قال: يا معشر القُراء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا[2].

يناشد حذيفة العلماء العُباد أن يستقيموا على الكتاب والسنة ليفوزوا بالسبق إلى الإسلام والعمل بالكتاب والسنة، ويحذرهم من مخالفة الكتاب والسنة فذلك الضلال البعيد. وفيه حث لأهل القرآن أن

(١) سورة الأعراف، آية: ١ - ٣.

(٢) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣/ ٢٥٠ رقم ٧٢٨٢.

يستقيموا، وتحذير لهم من الاعوجاج بمخالفة الكتاب أو السنة.

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغى لصاحب القرآن أن يحد مع من حد، ولا يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله تعالى»[1].

ويقول عبد الله بن مسعود: «ينبغى لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغى لحامل القرآن أن يكون سكّيتًا ليّنًا، ولا ينبغى له أن يكون جافيًا ولا مماريًا ولا صيَّاحًا ولا صخابًا ولَا حَدِّيدًا»[2].

إذا نام العوام فحامل القرآن يسهر فى قراءة القرآن.

وإذا أفطر العوام فحامل القرآن صائم يجتهد فى العبادة.

وإذا فرح الناس فحامل القرآن مشغول بما يحذره القرآن من الاغترار بالدنيا ونسيان الآخرة.

وإذا ضحك الناس فحامل القرآن يبكى خشوعًا.

وإذا خاض الناس فى القيل والقال فحامل القرآن ساكت، حدثه القرآن أنه سيحاسب على كل كلمة.

وإذا تكبر الناس فحامل القرآن لله خاشع.

وحامل القرآن يجب أن يتحلى بمكارم الأخلاق، فليكن ساكتًا سكوت الخاشعين.

---

(١) أخرجه الحاكم فى فضائل القرآن باب أخبار فى فضائل القرآن جملة ١/ ٥٥٢ وصححه.

(٢) ذكره فى إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٠، ٢١ وعزاه إلى حلية الأولياء.

وحامل القرآن عليه أن يبتعد عن مساوئ الأخلاق، يبتعد عن الغلظة والجدل، وكثرة الصياح، وشدة الصوت، وحدة الغضب.

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ سُئل: أى الناس أحسن قراءة؟ قال: «الذى إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله عز وجل»[(١)]. إنه يتأمل ما فيه من جلال الله سبحانه وآيات قدرته وحكمته، يتأمل ما فيه من عظيم العقيدة والعبادة، يتأمل ما حل بالعصاة المذنبين، يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد، والمواثيق والعهود، ويتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيبكى ويبكى كثيراً.

- **الاجتهاد فى تلاوته:** وعلى أهل القرآن أن يجتهدوا فى تلاوته، يقرءونه آناء الليل وآناء النهار، يسهرون وقلّما ينامون.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد؛ يقول الصيام: رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعنى فيه، فيشفعان»[(٢)]. ليس كل من امتنع عن الطعام بالنهار شفع له الصيام، وإنما لا بد من البعد عن الشهوات والمسارعة فى الطاعات. وليس كل من حفظ القرآن شفع له القرآن وإنما لا بد من كثرة التلاوة، ودقة التأمل وعمق الفهم، ثم الاتباع والعمل.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجىء يوم القيامة القرآن كالرجل الشاب فيقول لصاحبه: أنا الذى

(١) أخرجه عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن أبى داود فى الشريعة والطبرانى كذا فى إتحاف السادة المتقين ٥/ ١١٨ وفى إتحاف الخيرة المهرة ٨/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه الحاكم فى فضائل القرآن باب الصيام والقرآن يشفعان ١/ ٥٥٤ وقال: صحيح على شرط مسلم.

أسهرت ليلك وأظمأت نهارك»[1].

هكذا يكون القرآن محبًا لأهله، شافعًا لهم لكن لأولئك الذين اجتهدوا فى تلاوته والعمل به، فأسهروا به ليلهم، وصاموا عملاً به نهارهم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله أى الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، وما الحال المرتحل؟ قال: «يضرب من أول القرآن إلى آخره، ومن آخره إلى أوله»[2]. والمعنى: أفضل الأعمال أن يكون المسلم مداومًا على قراءة القرآن الكريم، يقرأ فإذا انتهى يفكر متى سيعود، ويحرص على سرعة العود، لا يغيب عن القرآن، وهو دائم القراءة لا يفتر.

٧. حمايته:

ويجب على كل مسلم أن يحمى المصحف، والذى هو كلام الله، يستوى فى ذلك الحماية الحسية والمعنوية.

وأعنى بالحماية الحسية: أن يُحمى من التحريف والتغيير والتبديل، فيُحرص أن يظل كما أوحاه الله إلى رسوله، وكما كتبه كُتّاب الوحى أمام رسول الله ﷺ، يظل على مصحف عثمان رضى الله عنه، ويحفظه الخلف على نطق السلف، فكل من أراد حفظ المصحف فلا بد أن يأخذه عن شيخ أخذه هذا الشيخ عن شيخه، وهكذا، فالقرآن يحفظ:

* فى الصدور يحفظ كل جيل على الجيل الذى قبله، كى يظل

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٥٥٦ وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الحاكم فى فضائل القرآن باب فضيلة الحال المرتحل ١/ ٥٦٨ والترمذى فى آخر القراءات ٨/ ٢٧٤ والطبرانى ١٢/ ١٦٨ رقم ١٢٧٨٣، وفى إسناده عندهم صالح المرى وهو ضعيف.

الإسناد متصلاً إلى رسول الله، إلى أمين الوحى جبريل، إلى رب العزة جل جلاله، ينطقه الخلف على نطق السلف، وهكذا عبر أجيال الأمة.

* وفى السطور فيكتب على الخط العثمانى، ويُطبع على هذا بكل تدقيق، بحيث لا يقع فيه أى خطأ، لا فى الحروف ولا فى النقط ولا فى الشكل.

وأما الحماية المعنوية: فبأن تُزال عنه أى شبهة، فأعداء الإسلام يكيدون للمصحف بكل أنواع الكيد:

يحاولون تشويه تاريخه.

يحاولون إثارة الإشكالات على معانيه.

يحاولون تغيير أى قدر من كلماته.

يحاولون النيل منه بمعارضته بأى قضية يدّعونها، وأنها تعارض القرآن.

وغير ذلك من محاولاتهم ومؤامراتهم. وواجب المسلمين تجاه ذلك صدها وتفنيدها، واجب المسلمين إزاء ذلك أن يكونوا واثقين بكتاب الله فلا تؤثر فيهم هذه الشبهات وهذه الافتراءات، وعلى كل مسلم أن يحمى المصحف كل بحسب حاله، فالعلماء يدفعون هذه الافتراءات، والإعلاميون يشيعون دفوع العلماء، ورجال الأعمال يساعدون العلماء والإعلاميين، وهكذا حتى يظل المصحف محميًا، والمسلمون مثابون على هذا.

إن الله سبحانه قد تكفل بحفظ دينه، وذلك بحفظ أصوله القرآن الكريم والسنة النبوية، فأيَّد سبحانه هذين المصدرين وهيأ لهما كل أسباب الخلود، والمسلمون يبذلون فى ذلك كل الجهد رجاء رضوان الله سبحانه.

ومن أعظم الكيد للقرآن الكريم والسنة النبوية محاولة أعداء الإسلام

إبعادهما عن حياة المسلمين، فيحاولون إيقاع المسلمين فيما يخالف القرآن والسنة، ويحاولون إيهام المسلمين أن ما عند الكفرة أجمل وأحسن، ويحاولون فرض المخالفات بواسطة السلطان، وعلى كل مسلم ومسلمة أن نعمل على الالتزام بالقرآن، وحمايته من الإبعاد عن الحياة، والعمل به على أتم وجه.

٨ـ العمل على إشاعته فى البشرية:

واجب على كل مسلم أن يجتهد فى إشاعة القرآن الكريم بين البشرية، فيشاع بين المسلمين، ويشاع بين غير المسلمين، وعلينا أن نُعلم البشرية كلها قدر القرآن الكريم، وفوائده العظيمة، علينا أن نُعلم الدنيا الخير الذى فى الإسلام، نُعلم الدنيا ذلك ونحن مرفوعو الرأس، واثقون بعظمة الإسلام، وأهميته العظمى للبشرية.

إن الله سبحانه وتعالى أكرم المسلمين بالكثير من القدرات، وكلفنا سبحانه أن نبلغ الإسلام الدنيا كلها، لكنى ألاحظ أننا لم نبلغ الإسلام لأهل بلاد الإسلام، ولم نبلغه لبقية البشرية!! وقَوِىَ الغَزْوُ الفكرى حتى أخذ الكثيرين من أبناء الإسلام، وقَوِىَ الإعلام المضاد للإسلام فى كثير من الدول حتى شوه الإسلام أمام الناس.

والمسلمون فى قدرتهم أن يصدوا هذه الهجمات، وأن يبلغوا دين الله قيامًا بالواجب عليهم لدينهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[1]. وهذه الآية توبيخ وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يُنوِّهوا بذكره فى الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم. وفى هذا تحذير لعلماء الإسلام أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما عندهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا[1].

إن الله سبحانه أمر رسوله بالبلاغ فقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[2]. وهذا أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، ولقد بلغ ﷺ على خير وجه، وقال فى حجة الوداع فى خطبته: «ألا هل بلّغتُ؟» قالوا: نعم. قال «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثم قال «فليبلِّغ الشاهد الغائب، فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع» يقول ابن عباس: فوالذى نفسى بيده إنها لوصيته إلى أمته[3].

وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال: «بلغوا عنى ولو آية»[4].

إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله بالبلاغ، فبلغ، وأشهد أمته ممن حضر حجة الوداع على ذلك، وأمرهم أن يبلغوا عنه، وأمرهم أمرًا عامًا «بلغوا عنى ولو آية» فكل الأمة عليهم أن يبلغوا، وأن ينشروا القرآن والإسلام فى كل أرجاء المعمورة.

---

(١) من تفسير ابن كثير ١/٤٣٦ بتصرف يسير.
(٢) سورة المائدة، آية: ٦٧.
(٣) أخرجه البخارى فى عدة مواضع، منها ١٧٣٩، ١٧٤١ ومسلم أيضًا فى مواضع منها ١٢١٨.
(٤) أخرجه البخارى رقم ٣٤٦١.

وقال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

إن هذه النصوص وغيرها تأمرنا أن نبلغ القرآن لكل البشرية، وأن نُعَرِّف بالإسلام فى كل الدنيا.

وجاءت نصوص أخرى تحذر من كتمان العلم، تحذر من عدم تبليغ الإسلام:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من كتم علمًا تلجم بلجام من نار يوم القيامة»(٣).

والآية والحديث تفيدان حرمة التقصير فى نشر القرآن، وأن من يفعل ذلك آثم وله عذاب الآخرة.

إن كل مسلم عليه أن يبلغ دين الله إلى كل خلق الله. يسلك فى ذلك كل السبل:

● من نشر القرآن الكريم بدءًا من:

* مكاتب تحفيظ القرآن، فيعد المكان والشيخ، ويدعو طلاب الحفظ، ويتعهد المكان والشيخ والتلاميذ.

* وإقامة معاهد تجويد القرآن وتفسيره.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٩، ١٦٠.

(٣) أخرجه ابن حبان ١/ ٢٩٧ رقم ٩٥، والحاكم ١/ ١٠١ وصححه.

* والعمل على طباعة المصحف على خير وجه.
* وإشاعة كتب التفسير.
* وإقامة إذاعات للقرآن الكريم.
* وإقامة المحطات الفضائية لنشر القرآن على مسامع الدنيا.
* وإقامة المعاهد والجامعات الإسلامية، والاهتمام بمناهجها.

● ونشر السنة النبوية؛ وذلك بما يلى:

* إقامة دروس السنة النبوية.
* تشجيع دارسيها.
* نشر كتبها على خير وجه.
* إقامة إذاعات لنشرها.
* إقامة قنوات فضائية لتعليمها.
* إقامة المعاهد والجامعات لتدريسها.

● ونشر الفقه الإسلامى؛ وذلك بما يلى:

* إقامة دروس الفقه الإسلامى.
* إقامة مجامع للفقه الإسلامى.
* إشاعة الفتاوى الصادرة من الشيوخ الموثوق بهم، والمجامع الموثوق بها.
* طباعة كتب الفقه الإسلامى، وكتب الفتاوى.
* العمل على عودة الأمة إلى الفقه الإسلامى.
* إقامة إذاعات وفضائيات للفقه الإسلامى.
* إقامة معاهد وجامعات للفقه الإسلامى.

● ونشر الدعوة الإسلامية؛ وذلك بما يلى:

* التعريف بالإسلام، ومزاياه للفرد والمجتمع والبشرية «وهذا الجانب فيه تقصير شديد من الأمة!!».

* إشاعة ذلك بما أمكن من إذاعات وفضائيات.

* طباعة كتب الدعوة والثقافة الإسلامية ونشرها.

إننى أكتب هنا عن إعطاء القرآن الكريم حقه من الذيوع، ولكن مما يوضح هذا أن نعلم أن الأمم الأخرى قد أعدت الوسائل الحديثة لمحاربة الإسلام والقرآن، فالقنوات الفضائية، والإنترنت قد استعملوهما لمحاربة الإسلام،بينما أمتنا لم تعط القرآن حقه من إعلام العالم به، وهذا يبين تقصيرنا فى حق القرآن والإسلام فلننتبه.

٩. تعظيم ذاته:

ومن الواجب على الأمة تعظيم ذات المصحف، فلا يكتب فى الشىء الصغير، ولا تُصغَّر حروفه، ولا يُكتب فى الورق الرخيص، ولا يجلد بالجلد الهزيل، ولا توضع الأقلام فى صفحته، فلربما أضافت نقطة أو شكلاً يجعل القارئ يخطئ، ولا يُترك لصغير لا يعرف قدره يمسه، ولا يُمكن كافر من الحصول عليه.

وبالجملة، فمن الواجب على الأمة تعظيم المصحف بكل أنواع التعظيم، فإنه كلام الله تعالى.

فعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يكره أن تُتخذ المصاحف صغاراً[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٤/٣٢٣ رقم ٧٩٤٥ وابن أبى شيبة ١٠/٥٤٣ رقم ١٠٢٧٣ وابن أبى داود فى المصاحف ص٣٠٨ رقم ٤٠٦.

وكان هذا ديدنا عند كل الصحابة، فكانوا جميعًا يرون أن لا يكتب القرآن فى الشىء الصغير:

فعن إبراهيم النخعى قال: كانوا يكرهون أن يكتبوا المصاحف فى الشىء الصغير[1].

وعنه أيضًا قال: كان يقال: عظموا المصاحف[2]. أى اكتبوها كبارًا.

وإبراهيم بن يزيد النخعى تابعى فحينما يقول: «كانوا...» أو «كان يقال...» فالمقصود الصحابة رضوان الله عليهم، فهم الذين كانوا يحرصون على تعظيم المصاحف وكتابتها فى الشىء الكبير.

وعن أبى حكيمة العبدى قال: «كنا نكتب المصاحف بالكوفة فيمر علينا علىٌّ ونحن نكتب فيقوم[3] فيقول: أَجِلّ قلمك[4]. قال: فقططت[5] منه ثم كتبت فقال: هكذا نَوِّرْه ما نَوَّر الله»[6].

إن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه على رسوله ﷺ، وبين سبحانه عظمة كتابه وعلو شأن رسوله، فى كثير من الآيات، ففهم الصحابة أن يُعظم المصحف، وأن يكرم رسول الله ﷺ، وكان من وجوه تعظيم المصحف أن يكتب فى أشياء كبيرة، وأن يكتب فى الأشياء الطاهرة، وأن يكتب بالخط الواضح، وأن تصان صفحة المصحف فلا يزاد فيها شىء:

فعن عبد الله بن مسعود قال: جردوا القرآن ولا تخلطوا به ما ليس فيه[7].

---

(١) أخرجه فى المصاحف ص٣٠٨.

(٢) أخرجه فى المصاحف ص٣٠٧، ٣٠٨، وعبد الرزاق ٤/٣٢٣ رقم ٧٩٤٦.

(٣) أى يقف.

(٤) أى عظِّمه، واجعله على خير حال.

(٥) أى قطعت من مقدمته شيئًا.

(٦) أخرجه ابن أبى شيبة ١٠/٥٤٣، ٥٤٤.

(٧) أخرجه فى المصاحف ص٣١٩، ٣٢٠.

وعبد الله بن مسعود هذا رأى خطًا فى المصحف فحكّه، وقال: لا تخلطوا فيه غيره[1].

وجاء النهى عن تصغير المصحف فإنه مما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فهو كلام الله جل جلاله، روى ذلك عن عدد من علماء السلف، وسارت عليه الأمة طول عمرها:

فعن مجاهد أنه كان يكره أن يقول: مصيحف ومسيجد[2]، وروى ذلك عن إبراهيم النخعى وعن غيرهما.

وعن سعيد بن المسيب قال: لا يقول أحدكم مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل[3].

هكذا عظم السلف المصحف:

* **فيكتب فى صحف كبيرة**: وما نراه الآن من طباعته فى أحجام صغيرة، أو كتابة سور من القرآن فى وريقات صغيرة، فهذا ليس محمودًا.

* **ويُكتب بخط واضح**: وما نراه من كتابته بخط دقيق، فليس ذلك محمودًا، وكذلك ما نراه على صفحات ملونة، مما يجعل الخط غير واضح، فهذا أيضًا ليس محمودًا. وربما وصل إلى التحريم إذا أثرت الألوان على صحة القراءة.

* **وتصان صفحة المصحف**: فلا يزاد فيها شىء، ولا يشار فيها بالقلم، ولا يوضع فيها خط ولا نقط.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة ١٠/٥٤٩ رقم ١٠٢٩٨.
(٢) أخرجه فى المصاحف ص٣٤٨.
(٣) أخرجه فى المصاحف ص٣٤٩ رقم ٤٩٨.

* **ولا يُسمى المصحف بالتصغير:** فلا يقال «مصيحف» تصغير مصحف. وإنما يقال «مصحف» بالتكبير.

* **ويُعتَنى بالمصحف:** فإذا وضع فعلى مكان طاهر، ويوضع فوق الأشياء، ولا يوضع شيء فوقه.

* **ويُحْرَص على نظافته وحُسن هيئته وجلاله:** فهو كلام الله، وأصل دين الله سبحانه وتعالى.

* **ويُحْرَص على حُسن طباعته:** فتكون غاية فى الدقة، وفى أعلى درجات الوضوح.

وبعد: فهذه التفاتة إلى ما يجب علينا تجاه المصحف، أوجزتها كى أوضح بها المسلك الذى به نحترم القرآن الكريم، ونقوم بحقه علينا، ونُشبع عاطفة حبنا لكلام الله عز وجل.

إن حب المسلم لكلام الله لا يصح أن يُشبع بالأمور الشكلية من زخرفة علبة المصحف، أو جلدته، أو أوراقه، أو حامله، وإنما حب المسلم للقرآن الكريم يجب أن يكون دافعًا للعمل بما فيه، والاجتهاد فى تعلمه وتعليمه، يجب أن يكون دافعًا للقيام بما يُشيع القرآن بين البشرية، قراءة وحفظًا، طباعة وصونًا، وأيضًا بما يُشيع العمل به، يجب أن يكون دافعًا لحماية المصحف من كيد أعدائه، وأن يكون دافعًا لإعظامه وإعلائه، كل حسب طاقته وعمله.

• وجه الإعجاز فى الأحاديث:

يخبر رسول الله ﷺ أن الأمة إذا غالت فى أبنية المساجد وزخرفتها، وتفننت فى تحلية المصاحف وتزيينها فهذا مؤذن بضعفها وضياعها!!

لقد رسم ﷺ لها المنهج فى بناء المساجد، وفى احترام المصاحف، وبين أن المساجد لا تبنى على أساس التكلف والمغالاة، ولا على أساس التفاخر والمباهاة، وإنما تبنى على أساس الاقتصاد فى المبانى والاهتمام كل الاهتمام بالمعانى. إن المساجد يُهتم بجودة بنائها وتوسعتها، وتُعْمَر بالصلاة والطاعة. واحترام المصاحف والقيام بواجبها لا يكون بالتكلف فى تزيينها وزخرفتها، وإنما بالعلم بما فيها من كلام الله سبحانه، وتدبر معانيها، والعمل بما فيها، احترام المصاحف يكون بتعريف البشرية بها وإظهارها.

إن الإسلام يركز على الجوهر، يركز على النفع ويهتم بالغاية، ولقد فهمت الأمة ذلك فسارت على هذا النحو. إلا أن رسول الله ﷺ يحذر من أمر سيحدث بعده، ألا وهو اهتمام الأمة بزخرفة المساجد وتزيين المصاحف، ويبين أنه إذا اهتمت الأمة بالزخرف والمظهر فإنها ستضعف وتهون «إذا حليتم مصاحفكم، وزوقتم مساجدكم فالدمار عليكم».

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ، فاهتم الكثيرون بزخرفة المساجد دون التعبد فيها!!

واهتم الكثيرون بتزيين المصاحف دون العمل بما فيها!!

واهتم الكثيرون فى عموم الحياة بالمظهر دون الجوهر!!

وتحققت النتيجة التى أخبر ﷺ بترتبها على ذلك!! فضعفت الأمة وهانت!! فقوى أعداؤها عليها، وضعف إنتاجها، وانصرف إلى اللهو الكثيرون منها!!

لقد تحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، وما ذلك إلا لأنه مما علمه الله العليم الخبير، وهذا دليل على صدق رسالته، وثبوت وصحة سنته ﷺ.

• **الدروس المستفادة:**

١ـ المساجد تبنى بمبدأ القصد، فلا تكلف ولا غلو، فنوسعها ونقوى بناءها، لكن لا نُزخرف.

٢ـ المساجد ليست للتباهى ولا للتفاخر، وإنما تبنى ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

٣ـ على المسلم أن يجتهد فى عمارة المساجد، فى بنائها على منهج الإسلام، وإنارتها قصدًا، ونظافتها، وتطييبها، وكثرة التعبد فيها، فهذا الذى يثاب عليه. أما الزخرفة فلا ثواب عليها، وإنما يأثم فاعلها.

٤ـ على الأمة أن تقوم بواجبها نحو القرآن الكريم، من تعلمه وتعليمه، والعمل به وتبليغه، أما الزينة فليست هدفًا، وإنما نهى الإسلام عنها.

٥ـ الأساس فى حياة المسلمين القصد، فلا تصح المباهاة فى المبانى، ولا التكلف فى المساكن والفرش، ولا الإسراف فى المطاعم والمشارب.

٦ـ هذه الأحاديث التى نحن بصدد شرحها، والتى أخبر فيها ﷺ عن أمور ستحدث فحدثت كما أخبر ﷺ، هذه الأحاديث تقوى إيماننا برسالة سيدنا رسول الله ﷺ، فهى مما علمه الله، ودليل صدق على تأييد الله سبحانه وتعالى له ﷺ.

٧ـ وهذه الأحاديث تدل على صحة السنة النبوية وثبوتها، فالواقع يؤيد صحتها، وهذا يزيدنا إيمانًا بها.

* * *

الإخبار بشدة الزمان لانعكاس الأحوال

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستَأتى على الناس سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤْتَمَنُ فيها الخَائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنطقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ» قيل: وما الرُّوَيْبِضَةُ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «السَّفِيهُ يتكلَّمُ فى أَمْرِ العامَّةِ»(١).

• **المعانى:**

«سنون» جمع سَنَة، والسنة اسم جنس مؤنث وهى العام. منقوصة، والذاهب منها يجوز أن يكون هاءً، أو واوًا. بدليل جمعها سنهات وسنوات، جُمعت جمع مذكر سالم، لأنها مما أُلحق به فى إعرابه، وقد تلزم الياء، ويُجعل الإعراب على النون، فنقول هذه سنينٌ، وعشت سنينًا، وصنعه فى سنينٍ ومنه حديث «اللهم اجعلها عليهم سنينًا كسنين يوسف» فى رواية.

والسنة أيضًا: الجدب. يقال: أخذتهم السَّنَةُ؛ إذا أجدبوا وأُقحطوا.

«خَدَّاعَةٌ» تكثر فيها الأمطار، وتقل الزروع والثمار. سميت بذلك لأنها تطمعهم فى الخصب بالمطر ثم تخلف. وقد جاء هذا التفسير فى

---

(١) أخرجه أحمد ١٣/ ٢٩١ رقم ٧٩١٢ و١٤/ ١٧١ رقم ٨٤٥٩، وحسنه محققه فيهما لكن بالمتابع والشواهد. وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٦٥ وصححه ووافقه الذهبى. وفى ص٥١٢ وصححه أيضًا وأقره الذهبى. وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١٣٤٠ رقم ٤٠٣٦. وله شاهد عن أنس أخرجه أحمد ٢١/ ٢٤، ٢٥ وحسنه محققه بالشواهد. وشاهد عن عوف بن مالك أخرجه الطبرانى ١٨/ ٦٧ رقم ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥ وحسنه محققه من الطريق رقم ١٢٤.

حديث عوف بن مالك والذى نصه «يكون أمام الدجال سنون خوادع يكثر فيها المطر، ويقل فيها النبت، ويُكَذَّبُ فيها الصادق . . .» الحديث. والمراد أنها سنون تنعكس فيها الأحوال: فيكثر المطر ولا زرع، ويصدق الكاذب، ويُكذب الصادق إلى آخر ما جاء فى أحاديث الباب، وسيأتى فى الشرح إن شاء الله.

«الرُّوَيْبِضَةُ» هذه تصغير اسم الفاعل من رَبَضَ، يَرْبِض، رَبْضًا، ورُبُوضًا.

واسم الفاعل: رَابض. صُغِّرَ فصار: رُوَيْبِض. ثم زيدت فيه الهاء للمبالغة فى وصفه، فصار رويبضة.

ومادة «رَبَض» معناها العجز وضياع الهمة.

وعليه «فالرويبضة» هو الذى عجز عن معالى الأمور، وقعد عن طلبها.

ولقد جاء تفسير هذه الكلمة فى روايات هذا الحديث، فجاء:

١- «السفيه يتكلم فى أمر العامة»: و«السفيه»: الخفيف العقل الذى لا دراية له بالأمور. و«يتكلم فى أمر العامة» أى فى أمر الكثيرين، أو أمر الأمة كلها. جاء فى رواية «يتكلم فى أمر الناس».

٢- و«الفويسق يتكلم فى أمر العامة»: و«الفويسق» تصغير «فاسق» والفاسق: هو مَنْ خرج عن تكاليف الإسلام كلها أو بعضها، فلم يلتزم بأوامر الله، أو لم يجتنب نواهيه سبحانه.

٣- و«الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة»: و«التافه» ضعيف العقل، قليل الخبرة.

٤- و«مَنْ لا يُؤْبَهُ له» أى من لا يُنْتَبَهُ له، ولا يُهتَمّ به.

ومنه يتضح أن الرويبضة هو: قليل العقل والدين.

• راوى الحديث:

الصحابى الجليل أبو هريرة الذى هاجر من اليمن إلى مدينة رسول الله ﷺ، فحظى بصحبة رسول الله أربع سنوات متفرغًا لطلب العلم، ودعا له رسول الله ﷺ أن يحفظ ولا ينسى، وعاش بعد رسول الله ﷺ قرابة نصف قرن فى المدينة النبوية، فعلَّم الكثيرين، رضى الله عنه وأرضاه، ولقد تقدمت ترجمته[1].

• الشرح:

التحذير من انعكاس الأحوال:

يحذر ﷺ الأجيال المتأخرة من الأمة من انعكاس الأحوال وانقلاب الحقائق، حينما تسند الأمور لغير أهلها!! ويُصَدَّق الكاذب! ويُكَذَّب الصادق! ويؤتمن الخائن! ويخون الأمين! ويتولى أمور العامة من لا دين له ولا خبرة!! وتشيع الفاحشة، ويشهد المرء قبل أن يُسأل الشهادة، ويحلف المرء دون أن يُطلب منه الحلف، ويظهر سوء الجوار، وقطيعة الأرحام، ويسعد بالدنيا الفساق والكفار!! ويظهر النفاق، وترفع الأمانة، وتُقبض الرحمة.

متى ذلك؟

ولقد بينت الأحاديث وقت ذلك، ففى رواية لحديث الباب يقول ﷺ: «قبل الساعة سنون خداعة يصدق فيها الكاذب...» الحديث. وفى حديث أنس: «إن أمام الدجال سنين خداعة يكذب فيها الصادق...» الحديث. ومعنى هذا أن تغيُّر الأحوال هذا مؤذن بخراب الدنيا وانتهاء

(١) فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص٧٤ شرح حديث «بدأ الإسلام غريبًا».

العالم، وأن الواجب على الأمة أن تحتاط منه وتحذره.

السنوات الخداعات:

بيّن ﷺ فى هذا الحديث أن أزمنة كثرة المطر وقلة الزروع والثمار إنما هو من جراء الذنوب حينما تنقلب الأمور وتنعكس الأحوال، فيُصدق الكاذب ويُتعامل معه وكأنه صادق، بينما يُكذب الصادق ويُتعامل معه وكأنه كاذب، تسند الأعمال إلى أهل الهوى واللهو واللعب، ويستبعد أهل الدين والاستقامة والخلق. ولقد أكثرت الأحاديث من متغيرات الأحوال، وبعض هذه ظهر فى زماننا، فالمياه كثيرة إلا أن الأرض لا تُنتج مما جعل المزارعين يستعملون الكيماويات والهرمونات حتى تظهر الزروع والثمار.

إن معظم الأراضى الآن عجزت عن الإنتاج، وَوَضْعُ الكيماويات والهرمونات ضار بصحة الآكلين، فالغذاء الذى يُطلب للصحة أصبح سببًا للضعف والمرض، وربما الوفاة!! انقلبت الأحوال لما غير الناس من أحوالهم.

إن نصوص الكتاب والسنة تفيد أن المعاصى هى أوسع أبواب المصائب وانعكاسات الأحوال، وقد جاء فى رواية لهذا الحديث «وتشيع فيها الفاحشة»[1] أى الذنوب بأنواعها.

وجاء فى حديث أبى موسى «لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتاب الله عارًا[2]. ويكون الإسلام غريبًا، حتى تبدو الشحناء بين الناس. وحتى يُقبض العلم. ويهرم الزمان. وينقص عمر البشر. وتنقص السنون

(١) عند الحاكم ٤/ ٥١٢.

(٢) بعض الأمة الآن يرى حفظ القرآن أو العمل به تأخرا!!

والثمرات. ويؤتمن التهماء. ويتهم الأمناء. ويُصدق الكاذب. ويُكذب الصادق... ويكثر المطر. ويقل الثمر...»[1].

تصديق الكاذب وتكذيب الصادق:

يشيع فى الناس فى السنين الخداعة تصديق الكاذب:

فهناك أناس عندهم قدرة عجيبة على الكلام، يجادلون ويُزينون ما يريدون كما عند التجار، يزين السلعة جدًا إذا كان بائعًا، ويصفها بأوصاف غالبًا ما تكون غير موجودة فيها، ويدعى أن سعره أرخص الأسعار، ويدعى أن الموجود منها عند غيره ردىء ومعيب!!

أما حينما يشترى من المنتج فإنه يقلل من شأن السلعة كثيرًا، ويُهون من صفاتها، وربما دمر نفسية المنتج من ادعاء عيوب فيها.

وكثير من أصحاب الأعمال يحبون هذا الصنف من الناس الذى يمدح إذا باع، ويذم إذا اشترى، يعتبرونه ماهرًا فى عمله، فيساعدونه على كذبه بوصفه بالمهارة على كذبه. أما إذا وجدوا من يصدق إذا باع، فيذكر ما فى السلعة من محاسن بمقدار ما فيها، ويصدق إذا اشترى فيذكر ما فى السلعة من مزايا وما فيها من عيوب، فهذا ليس ماهرًا فى رأيهم!! إنه عكس سابقه!! إنهم يُقدرون الكاذب، ويستهينون بالصادق، مما فيه انعكاس الأحوال.

ورسول الله ﷺ ينهى عن هذا تمامًا، ويبين أن التاجر المسلم لا يصح أن يكون هكذا:

فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أطيبَ الكَسْبِ

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى قال السيوطى ـ كنز ١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥ رقم ٣٨٥٧٧ ـ ولا بأس بسنده.

كَسْبُ التجَّار، الذين إذا حدَّثوا لم يَكْذِبُوا، وإذا ائتُمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يُخْلِفُوا، وإذا اشتروا لم يَذُمّوا، وإذا باعوا لم يُطَرُّوا[1]، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا[2]، وإذا كان لهم لم يُعسِّروا[3]»[4].

هكذا يكون المسلم صادقًا فى كل معاملاته وتصرفاته، رحيمًا بخلق الله، لم يُماطل فى أداء ما عليه، ويُمهل الفقير ولا يشدد عليه.

وظهر فى الناس أيضًا من عمله الكلام!! يتكلم نيابة عن الناس، فيدافع عن من تقدم للقضاء، ويحاول تبرئته مما ارتكب من جرم، يحتال فى هذا كل الاحتيال، وربما عرف شيئًا من القانون فيستعمله فى جعل الجانى بريئًا، غير مبالٍ بأنه صادق أو كاذب، ويُصدق الناس هذا الصنف من البشر، ويتعاملون معه وكأنه صادق!! لقد ظهر هذا فى كثير من نواحى الحياة، فى الضرائب والجمارك، والتوثيق، حتى وصل إلى البحوث العلمية، أناس يكذبون ويتعامل الناس معهم وكأنهم صادقون!! أناس يكذبون وتعتمد الهيئات عليهم وكأنهم صادقون!!.

ورسول الله ﷺ يحذر من ذلك، ويبين أن هذا الصنف يُبغضه الله، وظهوره فى الأمة دليل انحرافها عن الجادة، وسبيل ضعفها وربما هلاكها:

فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُبغض البليغ

---

(١) يقال: طرّى الثوب تطرية إذا مدحه. ورواية الأصبهانى «وإذا باعوا لم يمدحوا».

(٢) لم يتأخروا فى أداء ما عليهم، من المماطلة والتى هى التأخير.

(٣) لم يشددوا على المدين ولم يضيقوا عليه، وإنما يؤجلونه حتى يوسر.

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ٦/٤٨٨، ٤٨٩ رقم ٤٥١٣ وقال محققه: إسناده لا بأس به وأخرجه الأصبهانى فى الترغيب ١/٣٣٤، ٣٣٥ رقم ٧٦٩. وأخرجه ابن عدى فى الكامل فى ترجمة ثور بن يزيد ٢/ ٥٣٠.

من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»[١] والمعنى: إن الله يكره المبالغ فى فصاحة الكلام والتقعر فيه، هذا الذى يدير لسانه فى فيه مبالغة فى إظهار الفصاحة، كما تلف البقرة الحشائش بألسنتها.

وعن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم، كما تأكل البقر بألسنتها»[٢] والمعنى: إنه سيظهر فى آخر الزمان أناس مهنتهم الكلام، ولا يميزون بين الحلال والحرام، كما أن البقرة حينما تلوى الحشائش بلسانها لا تميز بين الحلو والمر، بل تلف الكل[٣].

إن الأصل فى أمور الحياة أن تكون سهلة، والأصل فى الناس أن يكونوا على دراية بالإسلام، بحيث يستطيع كل إنسان أن يعرف ما له وما عليه، ولو رُفع الأمر للقضاء استطاع عرض مسألته، ولو كان فى أى دائرة استطاع تخليص أموره بكل يسر وصدق، ولقد كانت الأمة هكذا فى كثير من القرون الأولى. والقياس أن تستمر على هذا المنوال.

هذان نموذجان من الصفة التى يتحدث عنها رسول الله ﷺ، وغير هذين النموذجين كثير:

- فالأسر تُزوِّج الشاب الفهلوى الذى يستطيع الوصول لمراده بالكذب أو الاحتيال، ولا تُزوِّج الشاب الصادق.

---

(١) أخرجه الترمذى فى الأدب باب ما جاء فى الفصاحة والبيان ٨/١٤٥، ١٤٦، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه أبو داود فى الأدب أيضًا باب ما جاء فى التشدق فى الكلام ١٣/٣٤٧ وأخرجه أحمد ٣/١٠٢، ١٠٣ و١٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣/١٥٣ رقم ١٥٩٧ وقال محققه: حسن لغيره. وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ص١٣٩ رقم ٤١٠.

(٣) راجع فيض القدير ٤/١٣١.

والهيئات تقبل الناس دون مراعاة للأخلاق، فهيئات الطب ترخص لكل من درس دون مراعاة للأخلاق، والهيئات العسكرية تقبل بناء على الكفاءة البدنية ودون مراعاة للأمور الخُلُقية!! بل ربما فضلوا من لا خلق له على من له خلق!!

وتصور طبيبًا بدون أخلاق، أو جيشًا بدون أخلاق، أو شرطة بدون أخلاق، أو أى هيئة فى أى أمة بدون أخلاق كيف يكون حال هذه الأمة؟ بدهى أنها ستكون أمة ذاهبة، قد حل بها الهلاك، ودهمها الردى.

سألنى طبيب قائلاً: إذا كان طبيب يعمل فى مستشفى يعطونه أجرًا قليلاً، فراح ينفخ عمله ليزيد أجره، فما حكم ذلك؟

قلت له: ما معنى ينفخ عمله؟

قال: يُجرى لمريض عملية، ثم يخبر أهله أنه يحتاج عملية أخرى، بينما هو لا يحتاجها.

قلت له: اضرب مثالاً.

قال: مريض دخل هذه المستشفى لتجرى له عملية فتاق، فقلت لأهله: إنه يحتاج أيضًا إجراء عملية الزائدة. فقالوا: اعملها. فلم أعملها لأنه لم يكن محتاجًا إجراءها. لكنى ادعيت أننى عملتها له، وكتبت ذلك فى الورق ليزيد أجرى.

قلت: وماذا لو أن هذا المريض شكا أعراض الزائدة فذهب إلى طبيب، فقال له: نُجرى لك الزائدة فقال: لقد سبق أن أجريت لى؟ قلت له: إنك بهذا غاش وآكل حرام.

وهكذا تُدمر الأمة عند إسناد الأمور لغير الصادقين، وإذا ائتُمَنت الأمة

الكاذبين، فلازم ذلك أن تبعد الصادقين، والأمران دمار.

إن تصديق الكاذب بإسناد الأعمال إليه عون على إشاعة الكذب، والتعامل مع من لا خُلق له تضييع للأخلاق، وكذلك فتصديق الصادق باختياره للأعمال عون على إشاعة الصدق، والتعامل مع صاحب الأخلاق الكريمة دون سواه نصر للأخلاق، وحمل للجميع على الأخلاق، وفى هذا خير كثير للأمة بأسرها.

إن التعامل مع الذين يكذبون أو يغشون أو يسرقون هو تشجيع للرذيلة، وفى ذلك الشر الخطير، أما قصر التعامل على الصادقين فإنه تشجيع للفضيلة، وفى ذلك الخير الكثير.

نعم قَلَّ الصادقون! لكن لو شاع فى الأمة التعامل مع الصادق دون غيره، فإن هذا يقوى الأخلاق، ويجعل الكثيرين يلتزمون بالفضيلة، أما لو شاع فى الأمة التعامل مع الصادق وغيره فإنه تضيع الأخلاق وتضيع الأمة.

فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عَجَاجَةٌ، لا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون منكرًا»[(١)].

ومعنى «يأخذ الله شريطته من أهل الأرض» أى يأخذ أهل الخير والدين، الذين هم أحباؤه وأولياؤه، يقبضهم سبحانه فيموتون وهم على الخير.

---

(١) أخرجه أحمد ١١/ ٥٥١ رقم ٦٩٦٤ وقال محققه: رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه عنعنة الحسن، وذكر عدداً من شواهده. قلت: عنعنة الحسن البصرى لا تضر فإنه من الطبقة الثانية التى احتمل الأئمة تدليسها. وقال الهيثمى ٨/ ١٣: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٣٥ وصححه ووافقه الذهبى.

ومعنى: «فيبقى فيها عجاجة» أى يبقى فى الأرض أراذل الناس ومن لا خير فيهم، وعليهم تقوم الساعة.

إن أهل الخير الذين يعرفون المعروف وينكرون المنكر هم أساس استقرار الحياة وخيريتها، فعلينا أن نحرص على ذلك، نقدر أهل الخير ونصدقهم، ونسند الأعمال إليهم ونثق بهم، فإسناد الأمور إلى الصادق خير وسعادة للأمة، وإسناد الأمور إلى الكاذب شر خطير على الأمة.

ائتمان الخائن وتخوين الأمين:

ويحذرنا رسول الله ﷺ فى الحديث الذى نحن بصدد شرحه من أن نأتمن الخائن، ومن أن نُخون الأمين، فذلك من انقلاب الحقائق وانعكاس الأمور، وهذا يؤدى لهلاك الأمة وشقائها.

فعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، يظهر النفاق، وتُرفع الأمانة، وتُقبض الرحمة، ويُتهم الأمين، ويُؤتمن غير الأمين، أناخ بكم الشُّرْفُ الجُون[1]». قالوا: وما الشرف الجُون يا رسول الله؟ قال: «فتن كقطع الليل المظلم»[2].

هكذا تنقلب الأحوال قبل الفتن، التى ستكون قبل قيام القيامة، يحذرنا ﷺ ذلك، ويبين أن على الأمة أن تنأى بنفسها عن ذلك، فلنفتش عن النفاق خشية أن يكون حل بنا ونحن لا ندرى، ولنجتهد فى الحفاظ على الأمانة، وتقدير الأمناء، وتحذير غير الأمناء، لنحرص على شيوع الرحمة بيننا، فهذا سبيل سلامة الأمة وسعادتها.

---

(١) الشُّرْفُ: جمع شارف وهى الناقة المسنّة. و«الجُون» جمع جَوْن وهو الأسود. والمعنى النوق السود. شبه الفتن فى تتابعها بالنوق المسنة السود.

(٢) أخرجه ابن حبان ١٥/٩٩ رقم ٦٧٠٦ وأخرجه الحاكم ٤/٥٧٩ وصححه ووافقه الذهبى.

نعم لقد قلّ الأمين وكثر الخائن!! لكن على الأمة أن تُقدِّر الأمين، وأن تحرص على التعامل معه، وعلينا أن نبتعد عن الخائن فلا نتعامل معه، ففى ذلك سلامتنا، وفيه دفع بالمجتمع إلى الخير، نشجع بذلك على الفضيلة وترك الرذيلة.

لقد كثرت الخيانة فى التجارة والصناعة وفى الكثير من وسائل الحياة، شجع على ذلك قبول الناس الخيانة، وقبول التعامل مع فاعلها، بل احترامه وإكرامه. وهذا ضياع ودمار للأخلاق، وفيه تضييع للأمة. والنصوص من القرآن والسنة تحذر ذلك، وتبين أنه شؤم ولا يصح الرضا به.

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنقضى الدنيا حتى تكون عند لُكَعِ بن لُكَعٍ»[1]. و«اللكع» أصله: العبد. ثم استعمل فى الحمق والذم. والمعنى أنها تكون لمن لا دين له ولا خلق. كما جاء فى حديث أم سلمة: «ويكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع لا يؤمن بالله ورسوله»[2].

كلام الرويبضة فى أمور الأمة:

ويبين ﷺ فى الحديث الذى نحن بصدد شرحه أنه من أسباب انحدار الأمة أن يتكلم الفاسق فى أمور الأمة!! يقول ﷺ: «وينطق فيها الرويبضة» قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «السفيه يتكلم فى أمر العامة» أى أنه فى السنين الخداعة يتكلم الذى لا رأى له ولا دين فى أمور الأمة. أى تنقلب الأحوال، وتنعكس الحقائق، فبعد أن كان يتكلم

(١) أخرجه ابن حبان ١٥/ ١١٦ رقم ٦٧٢١.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٨/ ٢٨٢ رقم ٨٦٤٣.

فى أمور الأمة الصالحون الحكماء، العقلاء الحلماء، تتغير الأمور ويتكلم الذين لا دين لهم!! وبالتالى لا عقل لهم. مما يضعف الأمة ويؤخرها. حتى تهلك!!

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اقتراب الساعة أن تُرفع الأشرار، وتُوضع الأخيار، ويُفتح القول، ويُخزن العمل، ويُقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد ينكرها» قيل: وما المثناة؟ قال: «ما اكتتبت سوى كتاب الله عز وجل»[1].

والمعنى: إن من مقدمات فناء الدنيا تقدم الأشرار واعتلاءهم مناصب الصدارة فى الأمة، وتأخر الأخيار، واستبعادهم عن مناصب الصدارة، فالرأى للأشرار، ولا يؤبه بالأخيار!! ويكثر الكلام ويقل العمل، فالأحكام معروفة ولا عمل، وتكثر القراءة لكنها ليست لكتاب الله، الذى هو الحق كل الحق، وإنما يقرأ الناس كتبًا ومؤلفات بعيدة عن كتاب الله، لا تدل على دين ولا على خلق، وربما كان منها ما يدمر الدين والخلق.

وفى هذا الحديث بيان صدارة من لا دين لهم ولا خلق، وأنهم يتولون وسائل معرفة الأمة!! فيتكلمون ويكتبون ما لم يُنزل الله على رسوله، فينحرفون بالأمة عن صراط الله المستقيم.

العلاج: إذا انحدرت الأمة هذه الانحدارات، فانقلبت الأمور ونزل البلاء فما العلاج؟

إن رسول الله ﷺ إذ يخبر بهذه الأمور:

سنون خداعة، تُمطر السماء ولا تُنبت الأرض!!

ويُصدق الكاذب، ويُكذب الصادق!!

(١) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٥٤ وصححه ووافقه الذهبى.

وائتمان الخائن، وتخوين الأمين!!

وتولى الفاسق الصدارة فى الأمور العامة!!

إنه ﷺ إذ يخبر بأن ذلك سيكون، إنما يُحذر من وقوعه. وهذا هو العلاج، العلاج هو التمسك بالإسلام، وهو الاستمرارية على الحق، فلا نصدق الكاذب، وإنما نصدق الصادق، ونتعامل معه. ولا نأتمن الخائن، وإنما نأتمن الأمين، ولا يتولى الصدارة إلا المتمسك بدينه، الكفء فى عمله، فبذلك تستقيم الأمة وتزداد قوة، وبذلك لا تزول النعم وإنما تستمر، فتمطر السماء وتنبت الأرض.

وفى حديث آخر يبين ﷺ هذا العلاج:

فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنت يا عبد الله[1] إذا بَقِيتَ فى حثالة من الناس[2]؟» قال: وذاك ما هم يا رسول الله؟ قال: «ذاك إذا مرجت[3] أماناتهم وعهودهم، وصاروا هكذا ـ وشبك بين أصابعه ـ» قال: فكيف بى يا رسول الله ؟ قال: «تعمل ما تعرف، ودع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع عوام الناس»[4].

إنه ﷺ يبين أنه إذا ساء الناس وتغيروا فلم يلتزموا بالإسلام، فانحرفوا خلقيًا حتى إن الأمانات لا تؤدى، والعهود لا يوفى بها، واختلف الناس وتنازعوا، إذا حدث ذلك فعلى من أراد الخير أن لا يتغير معهم، بل يثبت على الإسلام، عليه أن يتمسك بالحق،ويستمر على الخير.

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) الذين لا خلق لهم ولا دين.

(٣) اختلفت وفسدت.

(٤) أخرجه ابن حبان ١٣/٢٧٩ رقم ٥٩٥٠ وبعده، وفيه تخريجه.

إن العلاج يتلخص فى أن يُصلح كل إنسان من نفسه، وأن يتمسك بدينه، غير مبالٍ بضلال الناس، فلا يقلدهم فى باطلهم، وإنما يتبع الإسلام فى أوامره ونواهيه.

• وجه إعجاز الحديث:

يخبر ﷺ أنه سيأتى زمان تنقلب فيه الأحوال وتنعكس الأمور، وبشؤم ذلك لا تنبت الأرض على الرغم من نزول المطر.

وعَدّ ﷺ فى هذا الحديث من انقلاب الأحوال ما يأتى:

* نزول المطر والأرض لا تنبت.

* تصديق الكاذب، ويصبح صاحب الكلمة، وتُسند له الأعمال. أما الصادق فإنه يُكذب!!

* ائتمان الخائن، فيصبح المتصرف فى الأموال والأعمال!! وتصدر منه الخيانات ويظل فى الصدارة، فلا تفىء الأمة إلى الأمين، وإنما تظل مصرة على الخائن، انتكست الفطر وانقلبت الموازين.

* ويتصدر الأمة ويخطط لأمورها العامة (الرويبضة) الإنسان الذى لا خلق له ولا دين!!

يخبر ﷺ أن كل ذلك سيحدث، فيحدث كما أخبر، فكثير من عالمنا الإسلامى أصبح يُسند الأمور إلى من لا دين له ولا خلق، ويستبعد صاحب الدين والخلق!!

أصبحت الأمور معكوسة على المستوى الفردى والمستوى العام، يؤتمن الخائن ويخون الأمين. ويُستبعد أهل الكفاءة والتخصص، ويتصدر الأمور طلاب المناصب، حتى إننا نعجب من إسناد الأمور للماديين،

واستبعاد الكفاءات ممن لهم خلق، ويُصور الماديون أصحاب الأخلاق على أنهم لا يصلحون، وعلى أنهم رجعيون... إلخ.

إن الإسلام يُصلح كل نواحى الحياة، وصاحب الدين والخلق هو الذى يَصْلُح ويُصْلِح، لكن انقلبت الأحوال!!

وعلى الرغم من إخبار رسول الله ﷺ بذلك لم تنتبه الأمة، وسقطت فى دائرة انعكاس الأحوال، وهذا الحديث يناديها إلى الصراط المستقيم، وأحاديث أخرى فى موضوعه، منها:

* عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع؛ لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1] أى احرص على زواج المتدينة وإلا التصقت يدك بالتراب أى افتقرت.

وعن أبى حاتم المُزَنِى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقُه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد».

قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه[2]؟

قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[3].

وعن حكيم بن حِزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيِّعَان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صَدَقا وبيّنا بورك لهما فى بيعهما، وإن

---

(١) أخرجه البخارى رقم ٥٠٩٠. ومسلم رقم ١٤٦٦.

(٢) وإن كان فيه قلة مال وضعف حسب.

(٣) أخرجه الترمذى فى النكاح باب ما جاء فى من ترضون دينه فزوجوه ٤/ ٢٠٥ وحسنه. وأخرج ابن ماجه شاهداً له عن أبى هريرة ١/ ٦٣٢ رقم ١٩٦٧ والحاكم ٢/ ١٦٤، ١٦٥ وصححه وتعقبه الذهبى.

كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما»[1].

والمعنى: إن كلاً من البائع والمشترى له الخيار أن يمضى البيع أو لا يمضيه ما داما فى مجلس العقد، فإن بين كل واحد منهما ما فى سلعته أو ماله من عيب، وصدق فى ذكر محاسنه بارك الله لهما، أما إن كتما العيب أو كتم أحدهما أو كذبا فى ذكر المحاسن فإن الله يمحق بركة بيعهما.

وهكذا تبين النصوص مع حديث الباب أن الإسلام يوصى الأمة بتصديق الصادق، واحترام المتمسك بدينه، وائتمان الأمين، والبعد عن الخائن. إن المؤهل الأساسى فى الإنسان هو الدين والخلق، فهو بهما إنسان صادق أمين، ومثل هذا هو الذى يعتلى المناصب، وتسند إليه الأعمال.

لقد أخبر ﷺ أن الأمة سيعتريها الضعف فتبتعد عن دينها فتنقلب الحقائق، وتنعكس الأحوال، فوقع الأمر كما أخبر ﷺ، وهذا من أعلام نبوته، وأدلة صحة سنته ﷺ.

• الدروس المستفادة:

- على الأمة بأسرها كل فى موضعه إسناد الأمر إلى من هو أهل له.
- الأهلية فى الإسلام هى: الدين والكفاءة. أما إذا عدم الدين فقد عدمت الأهلية، فالفاسق لا يخاف الله ولا يبالى آلحرام يعمل أم الحلال.
- إذا انقلبت الأمور فأُسند الأمر إلى من لا دين له ضاعت البركة من الأرض.

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع باب إذا بين المتبايعان ولم يكتما ونصحا ٤/٣٠٩ رقم ٢٠٧٩.

- من انقلاب الأمور تصديق الكاذب وتكذيب الصادق... إلخ.

- من ضياع البركة أن يوجد الماء والأرض ولكن لا محاصيل بسهولة وإنما بتكاليف عالية، ومحاصيل ضارة.

- يجب أن يراعى الدين والخلق فى أصحاب المناصب، ولا يصح أن يتولاها من لا دين له أو من لا خلق له، ذلك أن الدين يُرشد العقل ويُوقظ الضمير.

- وفى الحديث معجزة له ﷺ إذ أخبر عن أمور فوقعت كما أخبر.

- وفى الحديث دليل على صحة السنة النبوية وسلامتها.

* * *

الإخبار عن شيوع الفجور

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمانٌ يُخيَّر فيه الرجل بين العَجْزِ والفُجُورِ، فمن أدرك ذلك الزمان فليخْتَرْ العجزَ علَى الفجورِ»(١).

● **المعانى:**

«يأتى على الناس زمان» أى أن هذا سيحدث بعد زمانه ﷺ.

«يُخير فيه الرجل بين العجز والفجور» العجز هو: الضعف وعدم القدرة، سواء القدرة العضلية أو المالية أو الفكرية؛ والعجز أيضًا هو: عدم إدراك المراد، وذلك بأنه يفوته أو يسبقه إليه غيره.

والفجور: الوقوع فى المعاصى والمحارم.

ومعنى «يخير الرجل بين العجز والفجور» أى يُخيره أميره ـ سواء كان أمير العامة أو أمير مجموعة ـ يخيره بين أن يخرج عن طاعة الله وبين أن يوصف بالعجز فيبعد ويقهر، أو يصبح الإنسان فى حياته بين أمرين، إما

---

(١) أخرجه الحاكم فى الفتن والملاحم باب سيأتى زمان يخير فيه الرجل بين العجز والفجور ٤/٤٣٨. أخرجه من طريقين: الأول من طريق الثورى عن داود بن أبى هند عن شيخ عن أبى هريرة. والثانى: من طريق عباد بن العوام عن داود بن أبى هند عن سعيد بن أبى خيرة عن أبى هريرة. فعلم المجهول الذى فى طريق سفيان. ومن هنا صححه الحاكم ووافقه الذهبى. هذا والذى فى النسخة التى اعتمدت عليها سعيد بن أبى جبيرة والصواب ما أثبته. وأخرجه أحمد ١٣/١٦٩ رقم ٧٧٤٤ و١٥/٤٧٨ رقم ٩٧٦٧ والبيهقى فى الشعب ١٠/٥٥٣ والزهد ص١٢٩ رقم ٢٣١ وفى الآداب ص١١٩ رقم ٣٥٧ وله مزيد تخريج ودراسة فى كتابى «أحاديث وتخريجها» وأرجح تصحيح الحاكم والذهبى.

الوقوع فى المعاصى وإما الاستقامة على دين الله تعالى.

ومثال الأول: أن يوصف الإنسان بالعجز عن المناصب السياسية لأنه لا يشرب الخمر!!

أو أن يوصف بالعجز عن المناصب المالية لأنه لا يستحل الربا.

ومثال الثانى: أن يصبح الإنسان فى عمل فيه اختلاط النساء بالرجال، فإما أن يمزح مع النساء ويقع فى المعصية ويكون فاجرًا. وإما أن يصبح عاجزًا عن مجاراة الوضع، حتى ربما أُبعد عنه، وحينئذ يوصف بالجمود أو العجز.

وهكذا فى المثالين وغيرهما يصبح من لا يفجر يسمى عاجزًا!!

«فمن أدرك ذلك الزمان» من الأمة وأجيالها المتعاقبة.

«فليختر العجز على الفجور» أى فعليه أن يختار العجز، يوصف به، أو يُحرم من بعض المنافع بسببه، يختاره حتى لا يقع فى معصية، يختار العجز، ويفضله على الفجور، الذى هو معصية الله تعالى.

• **راوى الحديث:**

أبو هريرة: وقد تقدمت ترجمته عند شرح حديث: «بدأ الإسلام غريبًا...»[1].

• **الشرح:**

المسلمون بين الماضى والحاضر:

خلق الله الإنسان وأعطاه المقدرة على اختيار الخير أو الشر، والخير هو الدين الذى ارتضاه الله للإنسانية الإسلام، والشر ما عداه. قال تعالى:

---

(١) ج١ ص٧٤ من هذا الكتاب.

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[1] أى طريق الخير أو الشر. وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2].

وعاش المسلمون قرونًا وهم مجتمعون على الخير متعاونون عليه، فالأمير لا يدعو إلا إلى الخير، والكبير لا يَقبَل إلا الخير. ثم تغيرت الأحوال، وأصبح الناس على غير هدى السلف، وهذا الذى حذر منه ﷺ فى هذا الحديث، وأن الفجور سيتاح، بل سيفرض!! وأن المعاصى ستكثر، وعلى العاقل أن يختار طريق الاستقامة على دين الله تعالى، مهما بدا ذلك شاقًا.

أصبح الناس يدعون بعضهم بعضًا إلى الفجور، ومن لم يفجر فهو عاجز.

وأصبحت الأحوال تفرض على الإنسان الفجور، وإلا فهو عاجز، لا ينال الكثير من الدنيا.

نماذج للعجز والفجور:

إن واقع المسلمين الآن فى كثير من الأحوال فيه تخيير بين العجز والفجور، وأوضح ذلك بصور منه:

١ـ إن بطانة الكثيرين من الكبار ـ حكام أو مديرين أو أغنياء ـ يجاملون أسيادهم هؤلاء بالثناء عليهم وعلى أعمالهم بما ليس حقًا، هذه البطانة المخادعة يقبلها الكبار، ويسندون إليهم الأعمال والمناصب، وهذا المخادع المزور يسمى «واصل» و«مرن» وأما من يَصْدُق هؤلاء الكبار، فإنهم

(١) سورة البلد، آية: ١٠.
(٢) سورة طه، آية: ١٢٣، ١٢٤.

يعتبرونه لا يصلح لإسناد الأعمال إليه، يعتبرونه جامدًا، يعتبرونه «عاجزًا».

وإلى ذلك تشير السنة النبوية:

فعن عبد الله بن مسعود أنه ذكر الفتنة فقال: إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه شىء منه، يأتى الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا فيقسم له بالله: إنك لذيت وذيت[1] فيرجع ما خلى من حاجته بشىء، وقد أسخط الله عليه[2].

وهذا الحديث وإن كان من كلام ابن مسعود، فإنه له حكم الرفع، أى أنه مما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ.

وهكذا يصبح المرء بين أن يجامل بالباطل فيكون فاجرًا، وبين أن لا يجامل فيستبعد من المناصب والأعمال ويسمى «عاجزًا».

٢ - والناس فى الحياة مع الآخرين إذا تعاملوا بالأخلاق الكريمة وُصِفُوا بالضعف والعجز. وإذا تعاملوا بالسوء «الفجور» وُصفوا بالقوة والغلبة!! فأصبح الإنسان مخيرًا بين العجز والفجور، أصبح إما أن يعيش قاسيًا جبارًا، وإما أن يطغى عليه الآخرون.

والإسلام يأمر بالعفو والصفح، ويحث على الصبر والتواضع:

يقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[3].

ويقول سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ

(١) يمدحه كثيرًا. وكلمة «ذيت وذيت» كناية عن الأمر والذى هو هنا الكلام بالمدح، مثل «كيت وكيت» و«كذا وكذا».

(٢) أخرجه الحاكم فى الفتن باب بعضكم على بعض شهود ٤/٤٣٧ وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٤].

وهكذا أزاح الإسلام الفكر المادى، وأبان أن العفو لا يؤدى إلى الذل وإنما يؤدى إلى العز، وأن التواضع ليس ضياعًا أو هزيمة، وإنما يرفع الله فاعله. وعليه فإن بدا للإنسان أنه إما أن يفجر، وإما أن يتهم بالعجز ويستضعف، فليعلم أن عليه أن يبتعد عن الفجور، ولن يضيع بين الناس ـ وإن قالوا عنه: إنه عاجز ـ فإن الله سيعزه ويعلى قدره.

٣ـ والشباب والشابات عند الزواج فى مجموعهم مخيرون بين العجز والفجور!!

فإما الإباحية والتى هى فجور، وإما العجز. فالشاب الملتزم عند كثير من الأسر يعتبرونه «جامدًا» و«عاجزًا»!! فإما أن يتحرر من ضوابط الدين، ويذهب بزوجته إلى أماكن الفسوق، ويعمل فى مجالات الحرام فيكون فاجرًا حتى يُزوج!!

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٣، ١٣٤.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٤) أخرجه مسلم فى البر باب استحباب العفو والتواضع ٤/٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨.

وإما أن يلتزم بأحكام دينه فيوصف بالعجز ولا يزوج!!

والفتاة الملتزمة عند كثير من الأسر جامدة «عاجزة» فإما أن تسير مع تيارات الإباحية والانحلال حتى يتزوجها الشاب العلمانى وترضى أسرته عنها، وإلا فهى فى نظرهم بانضباطها على دين الله جامدة «عاجزة» لا تصلح أن يتزوجها ابنهم.

والإسلام يوصى الشباب بالالتزام بدين الله مهما قال الآخرون، ومهما تندَّر المتندِّرون، فقول الفساق لا وزن له.

٤- كثير من أعمال الدول والحكومات أصبح يشترط فيها أن يكون الموظف متحللاً من أحكام دينه، فرجال يُمنعون من إطلاق لحاهم، ونساء يُرْغمون على العُرْى والسفور، وأناس كثيرون يجارون التيار فيعادون الإسلام حتى تسند إليهم المناصب، وهكذا أصبح الكثيرون مخيرين بين أن يقال عليهم متحررون، وذلك بسبب فجورهم وبعدهم عن الإسلام وبين أن يقال عليهم «عاجزون» بسبب عدم قدرتهم على مجاراة تيار الإباحية والعلمانية «البعد عن الإسلام» فلا تسند إليهم المناصب.

ولقد استشرى هذا الداء وشاع، شخصيات كبيرة يجدون أنفسهم بين الميل عن الحق فيُرضى عليهم فى المحيط الخاص بهم، وبين الالتزام بالحق فلا يرضى عنهم، وإنما يحاربون، وهؤلاء جميعًا يوصيهم الإسلام بالثبات على الحق.

٥- كثير من الأعمال هى فجور ومعاصٍ، يقوم بها كثير من أفراد وهيئات الأمة، كغناء النساء سافرات، ورقصهن وميوعتهن على بصر وسمع العالم، ورجال يغنون وحولهم النساء يتمايلن عليهم ويرقصن فى

أحوال هى المجون والخنا. وأناس يقدمون المخدرات، ويخدمون السهرات الماجنة، والمجالس الخليعة إلى غير ذلك مما أشيع تحت اسم الفن والمزاج، ومن له أدنى خلق يستغيث مما فيه من مجون وخلاعة، والقائمون بهذه الأعمال أناس عَرَّضوا أنفسهم للشر، وأوقعوها فى الفتن، وأصبح الإنسان منهم مخيرًا بين هذا الفجور يفعله، وبين أن يُنصف نفسه فيترك هذا الفجور، فيوصف بالعجز ويترك هذا العمل.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾[1].

٦ـ وفى كثير من مجالات الحياة أصبح الأمين مُخونًا، والخائن مؤتمنًا ـ كما فى الحديث السابق[2] ـ فتسند الأعمال للخائن ويوصف بأنه الكفء الذى يصلح، ويستبعد الأمين ويطرد ويوصف بأنه عاجز، وما ذلك إلا لأن الأول يستطيع جلب المال لأصحاب العمل والرؤساء بالرشوة والسرقة والكذب والخيانة، أما الثانى فلا يسمح له دينه وخلقه بذلك.

وأصبح الأول والثانى كلاهما مخير بين العجز والفجور.

وهكذا كثر الفجور فى الحياة، وأتيحت الفرصة للفجرة العصاة، واشتدت الفتنة فاستبعد الإنسان الصالح من مجالات الحياة بدعوى أنه عاجز، وما هو بعاجز عن العمل والإنتاج وإنما هو عاجز عن الفجور الذى أصبح لغة الوقت!!

---

(١) سورة هود، آية: ١١٢، ١١٣.

(٢) ص٢٧٤.

ما المخرج؟

ويتساءل العاقل: نعم شاع الفجور وذاع، وأصبح الكثيرون مخيرين بين العجز، والفجور، وللفجور بريقه وإغراءاته، فما المخرج من هذه الفتنة؟

والجواب: لقد رسم الحديث الذى معنا طريق النجاة، وذلك فى قوله ﷺ: «فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور» أى فليبتعد عن المعاصى تمامًا، لا تجره أساليب الحياة المحرمة إلى الحرام، ولا تغريه المناصب والمكاسب المحرمة لارتكاب الآثام، وإنما ليكن على هدى الإسلام، وليتذكر الآيات الواردة فى الوعيد على ارتكاب المعاصى:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

وليتذكر أيضًا الآيات الواردة فى فضل الاستقامة والالتزام بالخير:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[4].

يتذكر ذلك ليعى أن الفجور شؤم، وآثاره وخيمة، وعقوبة الله عليه أليمة.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٣.

هذا العجز ليس شيئًا:

واضح مما سبق أن العجز المراد هنا ليس العجز عن أساليب الحياة القويمة، إنه ليس ضعفًا بدنيًا، ولا ضعفًا فكريًا، وإنما هو ترك الأساليب المنحرفة، والبعد عن المسالك المعوجة، إنه البعد عن التآمر والكذب والخداع، إنه العجز عن الباطل، إنه ترك المعاصى من أجل الاستقامة على دين الله، وعليه فهو زين لا شين.

صورة: أراد شخص إنشاء شركة، وعين فتاة تساعده فى ذلك، فاجتهدت معه حتى تكونت الشركة، وسارت خطوات طيبة، وكثر مال الرجل، فأعلن عن حاجة الشركة إلى موظفة جميلة، وتقدمت فتيات فاختار واحدة منهن، فأخذت تلاعبه وتلاطفه، فرأى أن وجود الفتاة الأولى يضايقه فأنزلها من الإدارة مع العاملات فى الشركة، وأصبح يخلو بهذه الفتاة اللعوب!! فهل إبعاد الأولى لعجزها، لا، وإنما هو لالتزامها.

إن رفضها ملاعبة صاحب الشركة، اعتبره المدير عجزًا، لكنه العجز عن المعصية، وهذا لا يشين، وإنما يزين.

ومن هنا فقوله ﷺ: «فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور» ليس معناه اختيار الضعف أو التقوقع، وإنما معناه اختيار العجز عن المعصية، اختيار البعد عن معصية الله تعالى، وترك الفجور والمعاصى، واختيار العمل بالقرآن والسنة يأتمر بما فيهما من أوامر، وينتهى عما فيهما من نواه، وفى ذلك الخير كل الخير.

التوفيق بين الأحاديث:

إن حديث الباب الذى نحن بصدد شرحه يحث على اختيار العجز على الفجور، بينما هناك أحاديث تحذر من العجز، منها:

حديث عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضىُّ عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبى ﷺ: «إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبى الله ونعم الوكيل»(١).

وحديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والجُبن والهَرَم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر»(٢).

يحذر ﷺ من العجز، ويستعيذ بالله منه، بينما فى حديث الباب ينصح به، وأن على المسلم أن يختاره على الفجور، ولا تعارض بين هذين الحديثين وحديث الباب، ذلك أن حديث الباب فيه «العجز» بمعنى عدم القدرة على الباطل، فلا يستطيع أن يكذب ولا أن يحتال، إنه العَجز الذى يقابل «الفجور» أما «العجز» فى حديث عوف بن مالك وأنس فهو الضعف والتقصير والتهاون فى إحكام الأسباب. إن العجز فى حديث الباب وحديث عوف وأنس ليس معناه واحدًا حتى تتعارض الأحاديث، وإنما المعنى مختلف، فلا تعارض بين الأحاديث وإنما هى متوافقة.

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية باب الرجل يحلف على حقه ١١/٥٤، ٥٥ وأخرجه أحمد ٣٩/٤٠٨ رقم ٢٣٩٨٣، والنسائى فى عمل اليوم والليلة ص٤٠٣ رقم ٦٢٦ وحسنه محققه، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة ص١٢٦ رقم ٣٤٩ وحسنه محققه نقلاً عن محقق كتاب النسائى، وذكر المحققان: أن سيف هو الشامى وثقه العجلى وابن حبان. وبقية ابن الوليد مدلس لكنه صرح بالتحديث عند الإمام أحمد، وروايته عن شامى.

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب ما يتعوذ من الجبن ٦/٣٦ رقم ٢٨٢٣ وفى غير هذا.

• وجه إعجاز الحديث:

فى وقت النبوة حيث لا فجور، ولا يستبعد التقى، والكل على طاعة الله سبحانه، والأمة على الكتاب والسنة، فى هذا الوقت المشرق، يحذر ﷺ أنه سيأتى على الناس زمان يستبعد التقى ويوصف بالعجز، ويقدم الفاجر ويوصف بالمهارة، فيوصينا رسول الله ﷺ أن نستمسك بالخير، ولا يغرينا الشر، أن نقبل الوصف بالعجز ونحن على طاعة الله، ولا نقبل أن نوصف بالبراعة ونحن على الفجور والمعاصى.

ويتحقق ما أخبر به ﷺ، ونراه واقعًا فى حياتنا، فالمجتهد فى دينه، المبتعد عن الحرام، أصبح يستبعد، الشاب الملتزم بالأخلاق يستبعد من المناصب والأعمال، والفتاة الملتزمة تستبعد حتى من فصول الدراسة:

دخل مسئول كبير دائرة عمله، فرأى أحد الموظفين ملتحيًا، فصرخ: مثلك عندى؟ مشكلة!!

لقد أفزعت اللحية هذا المسئول، وأصبح الموظف عاجزًا يستبعد ويضطهد!!.

وطلب مسئول كبير أحد الموظفين فى دائرة عمله، فلما جاءه قال له: إنك لن تجلس على كرسيِّ هذا - كرسى المدير - مهما طالت خبرتك وعظمت مهارتك، وما ذلك إلا بسبب لحيتك.

واشترت مجموعة من الناس مصنعًا فوجدوا فيه رجلين ملتحيين، فخيروهما بين حلق اللحية وبين الفصل من العمل!!

وفى كثير من الهيئات لا يستطيع أى أحد من موظفيها أن يطلق لحيته. ويضطهد فيها المصلى حتى الفصل من العمل. ويوصف المتدين بالتطرف والإرهاب، بينما الساقط الفاجر توسد إليه المناصب، وتغدق

عليه المكاسب!!

يتحقق ما أخبر به ﷺ، وأصبح المسلم بين الفجور أو العجز، بين المعصية أو الاستبعاد والقهر.

ويوصينا ﷺ أن لا نسقط فى الفجور، ولنثبت على الحق، نتمسك به، ونستقيم عليه، مما يدل على أنه يمكن التمسك بالحق، ولن يغلق الباب أمام طلاب الحق، فيتحقق ما أخبر به ﷺ أيضًا، فلا زالت جماعات الإسلام فى كل مكان متمسكة بدينها، على الرغم من الفتن والمؤامرات، تعرض الإسلام أمام الدنيا فى كامل صورته، وبهى تشريعاته.

• الدروس المستفادة من الحديث:

- ستتغير الأحوال ويكثر الميل، وينظر للملتزم على أنه عاجز، وينظر للمنحرف على أنه ماهر!!

- على أهل الخير أن يلتزموا بالكتاب والسنة حتى وإن قيل عنهم إنهم عاجزون أو رجعيون أو ضالون أو إرهابيون، فهذا من إجرام القائلين، ولا ينبغى أن يفت فى عضد الصالحين.

- على العاقل - حتى ولو كان غير صالح - أن لا يغتر بالفاسق الكاذب المخادع، وإنما عليه أن يقدر الصالح الأمين.

- على وجهاء الأمة أن يظهروا مبدأ تقديم أصحاب الدين والمروءة وإبعاد الدجالين الفساق، وأن يعملوا على إشاعة هذا المبدأ حتى تسعد الأمة، وتكثر الفضيلة، وتندثر الرذيلة.

- فى هذا الحديث معجزتان لرسول الله ﷺ:

إذ أخبر أن كثيرًا من الناس سيقدمون أهل الدس والخداع. ويبعدون أهل الصدق والصلاح فوُجد كما أخبر.

وأخبر أن الخير سيظل موجودًا، وسيظل طريق الخير واضحًا فظل بحمد الله مشهورًا ذائعًا.

ـ [illegible] هذا الحديث دليل على أن السنة النبوية من وحى الله إلى رسوله، وهى ثابتة صحيحة على طول الزمان وإلى قيام الساعة.

* * *

الإخبار عن ضعف الأمة أمام المنكر

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيْتَ أُمتى تَهَابُ فلا تقول للظالم يا ظالم فقد تُوُدِّعَ منهم»[١].

• المعانى:

«إذا رأيت» فى رواية[٢] «إذا رأيتم» والخطاب للأمة فى كل زمان ومكان. والمعنى: إذا وجدت أمتى. . .

«أمتى» أى أمة الإجابة، يعنى المسلمين، والمراد معظمهم.

«تهاب» أى تخاف.

«فلا تقول للظالم يا ظالم» فى رواية «إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم». و«الظالم» المراد به الذى يجور على غيره فيظلمهم بإيذائهم. أو أخذ شىء من ممتلكاتهم. ويطلق أيضًا على من يتعدى حدود الله، أى يرتكب المعاصى كالمرتشى والغاش، أو تارك الصلاة ومانع الزكاة.

فكل من ارتكب منكرًا فهو ظالم.

---

(١) أخرجه الحاكم فى كتاب الأحكام باب الخصمان يقعدان بين يدى الحاكم ٤/ ٩٦ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى. وأخرجه أحمد ١١/ ٧٣ رقم ٦٥٢١ وص ٣٩٠ رقم ٦٧٧٦ وص٣٩٤ رقم ٦٧٨٤. وأخرجه البيهقى فى الشعب ١٠/ ٤٥ ـ ٤٧ رقم ٧١٤٠ ومن الأئمة من يصحح سماع محمد بن مسلم أبو الزبير المكى من عبد الله بن عمرو فيصحح الحديث من هؤلاء الإمام الليث بن سعد، ومنهم من يرى أنها رواية مرسلة من هؤلاء يحيى ابن معين وأبو حاتم، وأرى اتصال الرواية وصحة الحديث. والتفصيل فى كتاب «نماذج لدراسة أحاديث».

(٢) عند أحمد ١١/ ٧٣.

والظلم ثلاثة:

١- ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ودون ذلك المعاصى ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

٢- ظلم بين الإنسان وبين الناس، ومنه قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

ومعنى «إنما السبيل» أى إنما الإثم واللوم.

٣- وظلم الإنسان نفسه، ومنه قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾[3].

وكل هذه الأقسام فيها ظلم للنفس، فإن الإنسان أول ما يَهُمّ بالظلم فقد ظلم نفسه.

ومعنى: أن الأمة تهاب أن تقول للظالم يا ظالم. أى إنها لا تنكر عليه الظلم. ولا تنهاه عنه، ولا تمنعه منه، تجبن عن ذلك، أو تستهتر.

وليس المراد أن الأمة تتقاعس عن إنكار الظلم على الظالم فقط، وإنما المراد أنها تتقاعس عن إنكار المنكر عمومًا، فتترك فَعَلَة المنكر يرتكبونه دون اكتراث، فالمعاصى تكثر يومًا بعد يوم، من تعاطى المخدرات، والربا والكسب الحرام، والاختلاط وتزاحم الرجال والنساء، وظهور الزنا والأطفال غير الشرعيين، وغير هذا كثير يحدث والأمة صامتة، وكأن هذا ليس منكرًا، أو كأنها أمة ليست مأمورة بإنكار المنكر!

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.
(٢) سورة الشورى، آية: ٤٢.
(٣) سورة فاطر، آية: ٣٢.

«فقد تُوُدِّع منهم» أى تُركوا ومعاصيهم، تصيبهم المصائب بشؤم معاصيهم، وقد حُرمُوا عناية الله ورعايته، من التوديع والذى هو الترك.

أو هو من تَودَّعْتُ الشىء، أى صنته فى مَيْدَع، أى ثوب لُف فيه، ليكون كالغلاف له؛ أى فقد صاروا بحيث يُتَصوَّن منهم ويُتَحفَّظ، كما يُتوقى شرار الناس.

والمعنى: أنهم إذا لم ينكروا على الظالم شاع الشر، فأصبحوا كثيرى الشر، يُتقون ولا توفيق لهم ولا عناية.

إنهم إذا خافوا على أنفسهم من هذا القول «يا ظالم» فتركوه كانوا مما هو أشد منه وأعظم من القول والعمل أخوف، وكانوا إلى أن يدعوا جهاد المشركين خوفًا على أنفسهم وأموالهم أقرب، وإذا صاروا كذلك فقد استوى وجودهم وعدمهم، فلا خير يرجى ولا فائدة تنتظر.

• راوى الحديث:

عبد الله بن عمرو بن العاص: الصحابى ابن الصحابى، أبوه عمرو بن العاص داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل فى الفطنة والدهاء والحزم.

أسلم عبد الله قبل أبيه، وهاجر قبل أبيه أيضًا، هاجر بعد سنة سبع، وأبوه أكبر منه بإحدى عشرة سنة أو نحوها.

وكان اسم عبد الله فى الجاهلية العاص، فلما أسلم غيره رسول الله ﷺ بعبد الله.

له مناقب وفضائل ومقام راسخ فى العلم والعمل.

كان يعرف أصول تحصيل العلم، يصور شيئًا من ذلك:

* ما رُوِى عنه قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش، وقالوا: تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم فى الرضا والغضب؟ قال: فأمسكت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق، وأشار بيده إلى فيه»[(١)].

لقد تأكد من المصدر، وهذا مبدأ عظيم.

* وعن أبى هريرة قال: ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منى؛ إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[(٢)].

لقد أخذ عبد الله بن عمرو بكل الوسائل الممكنة لحفظ العلم، فكان يحفظ ويكتب.

* وعن عبد الله بن عمرو قال: ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط. فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من فى رسول الله ﷺ. وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها[(٣)].

كان عبد الله مجتهداً فى طلب العلم، فسمع من رسول الله ﷺ ومن كبار الصحابة وسمع منه كثيرون من الصحابة والتابعين.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب العلم باب الأمر بكتابة العلم ١/ ١٠٤، ١٠٥، من عدة طرق وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى. وأخرجه أبو داود فى العلم باب كتابة العلم ١٠/ ٧٩. وأخرجه الدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١/ ١٠٣.

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب كتابة العلم ١/ ٢٠٦ والترمذى فى العلم باب الرخصة فى كتابة العلم ٧/ ٤٢٩ وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه الدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١/ ١٠٥. وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/ ٣٠٥ رقم ٣٩٤ وفيه تخريجه. وأنه فيه ليث بن أبى سليم ضعيف لكنه توبع.

قال فيه رسول الله ﷺ: «إن عمرو بن العاص من صالحى قريش[١]، نعم أهل البيت عبد الله، وأبو عبد الله، وأم عبد الله»[٢].

كان عبد الله مجتهدًا فى العبادة كثيرًا، أوغل فيها بقوة، فكان يقرأ القرآن كله فى ليلة، ويصوم النهار، ويقوم الليل، فأوصاه رسول الله ﷺ بالترفق.

أخرج البخارى عنه قال: أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّته[٣] فيسألها عن بَعْلِها[٤]، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًا[٥]، ولم يفتش لنا كنفًا[٦] منذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه[٧] ذكر للنبى ﷺ، فقال: القنى به. فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قلت: أصوم كل يوم. قال: وكيف تختم؟ قلت: كل ليلة. قال صم فى كل شهر ثلاثة. واقرأ القرآن فى كل شهر. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: صم ثلاثة أيام فى الجمعة. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: أفطر يومين وصم يومًا. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ فى كل سبع ليالٍ مرة.

فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أنى كبرت وضعفت فكان

---

(١) أى من صالح من أسلم عند فتح مكة.

(٢) أم عبد الله بن عمرو وهى: ريطة بنت منبه بن الحجاج اسلمت وبايعت. والحديث اخرجه أحمد فى فضائل الصحابة ٢/ ٩١١ - ٩١٣ عن طلحة وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب اخرجهما مرسلين، وأخرجه فى المسند ٣/ ٦ رقم ١٣٨١، ١٣٨٢، وفيهما مزيد من تخريجه.

(٣) زوجة ابنه.

(٤) زوجها أى عبد الله بن عمرو.

(٥) لم ينم فى فراشها.

(٦) ولم يضع يده على جسمها.

(٧) على عمرو بن العاص.

يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذى يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى، وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئًا فارق النبى ﷺ عليه[1].

هكذا كان عبد الله بن عمرو فى عبادته، يجتهد ويجتهد.

وكان كثير البكاء، يُغلق عليه بابه ويبكى حتى رمصت عيناه.

توفى رضى الله عنه سنة خمس وستين، ودُفن بداره فى مصر[2].

• الشرح:

يخبرنا ﷺ أن الأمة إذا تركت الظالم فلم تنكر عليه خوفًا منه، وضعفًا فى إنكار المنكر، فإن الله سبحانه وتعالى يمنعها مدده، ويحرمها عنايته.

والظلم يشمل كل المنكرات، فعلى الأمة أن تنكر على كل من يفعل منكرًا، تنكر على الغاش والراشى والمرتشى، وعلى المزور. وعلى السارق والزانى. على من لا يعطى الأجير أجره، وعلى الأجير الذى لا يتقن عمله. تنكر على الذى يطفف الكيل والميزان إذا اشترى، ويبخسه إذا باع، تنكر على عاق والديه ومؤذى جيرانه. . . إلخ.

سر التعبير بالظلم:

وإنما عبر ﷺ بالظلم «إذا رأيت أُمتى تهاب فلا تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم» عبر ﷺ بالظلم لبشاعته، ولأنه يشمل كل المنكرات، فكل منكر ظلم، يظلم فيه الإنسان نفسه، ويظلم غيره ممن يضار بهذا المنكر. فالغاش مثلاً ظالم لنفسه، لأنه سيلقى جزاءه على ذلك ابتلاءات

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب فى كم يقرأ القرآن ٩/ ٩٤ رقم ٥٠٥٢.

(٢) راجع فى ترجمته: سير أعلام النبلاء ٣/ ٧٩ وفيه كثير من مصادر ترجمته، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٧، ومجمع الزوائد ٩/ ٣٥٤، ومستدرك الحاكم ٣/ ٥٢٥.

فى الدنيا، وعذابًا أليمًا فى الآخرة، وهو أيضًا ظالم لغيره ممن أضير بشراء السلعة المغشوشة.

ولقد أصبحت خطورة المنكر بشعة، فالغاش فى الطعام يضر الكثيرين فى أغلى شىء عندهم، فى صحتهم وحياتهم. والغاش فى الأدوية جرمه خطير، وشره مستطير، وبحسب ذلك يكون الذنب، وبحسب ذلك يجب أن يكون إنكار الآخرين، وإلا أصبح الناس دمارًا على أنفسهم، وحرموا عناية الله تعالى!!

إنه ﷺ يؤكد على الأمة أن تقول للظالم «أنت ظالم» تبين له حقيقة أمره، ومخالفته للمنقول من آيات الوحى، والمعقول عند أصحاب الآراء السديدة. نقول لكل فاعل منكر «أنت ظالم» ظالم لنفسك وللآخرين، نقول ذلك على وجه النصيحة، وللأخذ بيده إلى الاستقامة، وعدم الإضرار بنفسه وبالآخرين.

التحذير من الظلم:

جاءت آيات وأحاديث تحذر من الظلم، الظلم بأعم معانيه، الذى هو الكفر والمعاصى، وظلم الآخرين، وظلم الإنسان نفسه.

* فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1]. أى من خالف أحكام الله وشرعه فأولئك هم الآثمون. عرّف سبحانه وتعالى بذلك الظلم، وأنه مخالفة دين الله سبحانه وتعالى.

* وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

حينما نزلت هذه الآية تساءل الصحابة مع رسول الله ﷺ قائلين: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)].

وهكذا يتضح أن من الظلم ما هو شرك، وأن الذين يسلم إيمانهم من الشرك فهؤلاء لا خوف عليهم من غضب الله، وهم من أهل الهداية والاستقامة.

* وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[(٢)].

يبين سبحانه عاقبة الظلم الذى هو الشرك وأنه الهلاك.

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[(٣)].

الظلم هنا هو الاعتداء عى حقوق الغير، هو ظلم عباد الله، والوعيد فيه شديد، فهم يأكلون ما لا خير فيه، وإنما فيه الهلاك والدمار، وفى الآخرة يعذبون فى جهنم.

* وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[(٤)].

الظلم هنا ظلم النفس بالتقصير فى الالتزام بأحكام الدين، بأن يفعل المؤمن بعض السيئات، أو يقصر فى شىء من الواجبات. ومثل هذا يمحص بالابتلاء، أو يحبس فى الموقف فى الآخرة، وهذا شديد وشاق

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان، والحديث أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء باب قول الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ ٦/٤٦٥ رقم ٣٤٢٩.

(٢) سورة يونس، آية: ١٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١٠.

(٤) سورة فاطر، آية: ٣٢.

يكفر عنه ذنوبه، حتى يحظى بالشفاعة، نسأل الله التوفيق.

• وهكذا يتضح أن الظلم شؤم، سواء كان تفريطًا فى حق الله، أو تعديًا على الخلائق، أو تضييعًا لشيء من التكاليف الشرعية.

* وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[1].

والمعنى: احذروا الظلم وابتعدوا عنه فإنه ظلمات يوم القيامة، يجعل صاحبه لا يهتدى للسير على الصراط فيسقط فى جهنم.

* وعن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى[2]، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...»[3].

* وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يملى للظالم، فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»[4]. إن الله يمهل لكنه لا يهمل، فإذا عاقب كان شديدًا.

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[5] دعوة المظلوم مستجابة، فحذار أن تَظْلم، فيدعو المظلوم عليك، فيستجاب له فيك.

---

(١) أخرجه مسلم فى البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٦ ـ ٢٥٧٨.

(٢) أى تنزهت عنه. وتسمى تنزهه سبحانه تحريمًا لما بينهما من المشابهة بالترك والبعد.

(٣) أخرجه مسلم فى البر باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤ رقم ٥٥ ـ ٢٥٧٧.

(٤) سورة هود، آية:١٠٢، والحديث أخرجه مسلم فى الموضع السابق ص١٩٩٧ رقم ٦١ ـ ٢٥٨٣.

(٥) أخرجه البخارى فى الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء ٣/ ٣٥٧ رقم ١٤٩٦ ومسلم فى الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ رقم ٢٩ ـ ١٩.

شؤم عدم إنكار المنكر:

المنكر ما أنكره الشرع، وأخبر أنه معصية، وقد أوجب الله علينا أن ننكره، إما بأيدينا بأن نوقف الظالم عن ظلمه، أو بألسنتنا كأن نقول له: اتق الله ولا تظلم، أو بقلوبنا بأن نكره ذلك ونبغضه.

وقد جاءت آيات وأحاديث تحث على إنكار المنكر، وتبين أن عدم الإنكار شؤم وشر خطير.

* يقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

يأمر سبحانه الأمة أن تكون دعاة للخير، وبخاصة من يحسنون الدعوة، ويفهمون الإسلام، فهؤلاء عليهم أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر، ومن كان كذلك فهو من المفلحين، ثم يحذرنا سبحانه أن نكون كالأمم الأخرى فى تفرقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع معرفتهم الحق فإن ذلك يتسبب فى أبشع أنواع العذاب.

* وقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤، ١٠٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٧٨ ـ ٨١.

يخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. ووصفهم بأنهم كانوا لا ينكرون المنكر على فاعليه، ويوالون الكافرين ويعادون المؤمنين.

ويبين رسول الله ﷺ ذلك فى الحديث الآتى:

* فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾. ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يدى الظالم، ولتأطِرُنَّه على الحق أطرًا[1]، ولتقصُرُنَّه على الحق قصرًا[2] أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[3].

إنه لا بد أن نأخذ على يدى الظالم نمنعه من الظلم، ونحمله على الحق، ونلزمه به، وإلا اختلفنا وطردنا من رحمة الله تعالى!!

* وقام أبو بكر الصديق خطيبًا، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال:

---

(١) أى تحملونه على الحق حملاً.

(٢) أى تلزمونه بالحق إلزامًا.

(٣) أخرجه أبو داود فى الملاحم باب الأمر والنهى ١١/٤٨٧ وأخرجه الترمذى فى التفسير سورة المائدة ٨/٤١٢ وحسنه. والحديث من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه وهو لم يسمع منه فالحديث مرسل، لكن له شاهدًا أخرجه الطبرانى عن أبى موسى ورجاله رجال الصحيح كذا فى المجمع ٧/٢٦٩.

أيها الناس إنكم تقرءون هذه، وتضعونها على غير مواضعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾(١) وإنا سمعنا النبى ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»(٢).

* وعن جابر بن عبد الله وأبى طلحة بن سهل الأنصارى قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا فى موضع ينتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا فى موضع يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب نصرته»(٣).

ليس من شأن المسلم أن يترك اللعّان، أو الطعان يخوض فى أعراض الناس، يظلمهم ويسىء إليهم، وإنما عليه أن يقاوم هذا الظالم ويردعه عن غيِّه.

* وعن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة(٤) قال: «ألا تحدثونى بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية منهم: يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت علينا عجوز من عجائزهم، تحمل على رأسها قُلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها على ركبتيها، فانكسرت قُلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه ثم قالت:

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود فى الملاحم ١١/٤٨٩ رقم ٤٣١٦.

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب باب الرجل يذب عن عرض أخيه ١٣/٢٢٨ وسكت عنه أبو داود والمنذرى. وأخرجه أحمد ٢٦/٢٨٨ رقم ١٦٣٦٨ وحكم محققه بضعفه، وخرجه، وذكر له عددًا من الشواهد. وذكره المنذرى فى الترغيب ٣/ ٣٣٢ وعزاه لأبى داود وسكت عليه.

(٤) أى لما رجع المهاجرون من الصحابة من الحبشة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة.

ستعلم يا غُدَرُ[١] إذا وضع الله الكرسىّ وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانا[٢] يكسبون[٣]، فسوف تعلم أمرى وأمرك عنده غدًا. فقال رسول الله ﷺ: «صدقَتْ ثم صدقَتْ. كيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»[٤].

إن الله لا يكرم من خذل الضعيف، ولا يؤيد من لم يقف مع المظلوم حتى يُؤدَّى إليه حقه.

تحذير الصالحين:

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: «نعم». قيل: بم؟ قال: «بدهنتهم وسكوتهم عن معاصى الله»[٥].

* وعن زينب بنت جحش رضى الله عنها أنها قالت: استيقظ النبى ﷺ من النوم مُحْمَرًا وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وعقد سفيان تسعين أو مائة ـ قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»[٦].

* وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى

---

(١) بمعنى غادر أى يا من لا تلتزم بخلق ولا دين.

(٢) ضمير التثنية يعود على اليدين وحدهما، وعلى الرجلين وحدهما.

(٣) وجمع الضمير هنا لعوده على اليدين والرجلين معًا.

(٤) أخرجه ابن حبان ١١/٣٤٣ ـ ٣٤٥ من طريقين رقم ٥٠٥٨، ٥٠٥٩ وخرجه محققه وقواه وجمع عددًا من شواهده.

(٥) أخرجه البزار ١١/٥١ رقم ٤٧٤٣، والطبرانى فى الكبير ١١/ ٢٧٠ وفى الأوسط وهو ضعيف.

(٦) أخرجه البخارى فى الفتن باب قول النبى ﷺ: ويل للعرب من شر قد اقترب ١٣/١١ رقم ٧٠٥٩.

ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها. قال: إن فيها عبدك فلانًا لم يعصك طرفة عين. قال: اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعَّر(١) لى ساعة قط»(٢).

على الصالحين أن ينكروا المنكر، وإلا فإن البلاء ينزل على الجميع، إن الصلاح يقتضى من صاحبه أن ينصر دين الله، وأن يقف فى وجه المنكر حتى لا يكثر ويشيع، عليه أن يقاوم المنكر ما استطاع، يفكر فى ذلك ويستشير، ويستعين بالصالحين، ينكر بيده بحكمة، وبلسانه بعلم، أما بالقلب فهذا لا أقل منه.

ولم يقف الإسلام عند حد التحذير من المنكر وبيان شؤمه، وإنما تعدى ذلك إلى تفنيد أسباب ترك إنكار المنكر، وبين أن دفع المنكر لن يضر، كما سيأتى فى العنوان التالى:

تفنيد أسباب عدم إنكار المنكر:

قد يتعلل البعض بسبب أو أكثر فى عدم إنكار المنكر، فيرى أنه لو قال للظالم «لا تظلم» أو «أنت ظالم» فقد يؤذيه الظالم، ولو وقف فى وجه الغاش أو المرابى أو المزور فقد يحاربونه فى أمور رزقه، ولقد بيّن الإسلام تفاهة هذه الأسباب، وأنها لا تضر من أنكر المنكر:

* فعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يَمْنَعَنَّ أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يُقرب من

(١) لم يتغير غضبًا وألمًا من فعلهم المعاصى.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٣٣٦/٧ رقم ٧٦٦١. قال فى المجمع ٧/ ٢٧٠: فيه عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف وكلاهما ضعيف. ووثق عمار بن سيف ابنُ المبارك وجماعة، ورضى أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يُذكِّر بعظيم»[١].

* وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقفن عند رجل يُقتل مظلومًا، فإن اللعنة تنزل على من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن عند رجل يُضْرب مظلومًا فإن اللعنة تنزل على من حضره. ولا ينبغى لامرئ شهد مقامًا فيه مقال حق إلا تكلم فيه. فإنه لن يقدم أجله، ولن يحرمه رزقًا هو له»[٢].

إن الذى يجعل الناس لا ينكرون المنكر خوف على أجل أو خوف على رزق، فبيّن ﷺ فى هذين الحديثين أن هذا الخوف فى غير موضعه، فإنه ليس فى طوق أحد أن يقصر عمر آخر، وليس فى طوق أحد أن يضيق رزق آخر، وإنما الآجال بتقدير الله، والأرزاق بتقدير الله.

وقد قال الله تعالى فى حق المجاهدين: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣].

وعن ابن عباس قال: كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال: «يا غلام إنى

---

(١) أخرجه أبو يعلى كذا فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤ وقال: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه أحمد ١٨/ ٥٤ وقال محققه: حديث صحيح دون قوله: «فإنه لا يقرب من أجل...». وأخرجه الترمذى فى الفتن باب ما أخبر النبى ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ٦/ ٤٢٨ القسم الأول من الحديث ضمن حديث طويل وحسنه. وله شاهد عن ابن عباس أخرجه البيهقى فى الشعب ١٠/ ٦٦ رقم ٧١٧٢ وقال محققه: إسناده ضعيف. وحسنه العراقى كما فى إتحاف السادة ٨/ ١٧.

(٢) أخرجه البيهقى فى الموضع السابق رقم ٧١٧٣ وضعفه محققه، وحسنه العراقى كما فى سابقه.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٣ ـ ١٧٥.

أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

إن عقيدة المؤمن أن كل شىء بقضاء الله وقدره، وعليه أن يجتهد فيما يرضى الله، غير مكترث بوساوس شياطين الإنس والجن، أن هذا يضر وهذا يؤذى.

وهكذا بدَّد الإسلام أسباب السلبية، وأزاح كل مانع من إنكار المنكر، فليس فى مقدور البشر ولو اجتمعوا أن يضروا أو ينفعوا. فلا يتخاذل المسلم خوفًا من الناس. وإنما عليه أن يقف مع الحق إجلالاً لله وإعظامًا له سبحانه وتعالى.

إن عقيدة المسلم أن اللائق بالأمة أن تطيع الله، وأن تستقيم على دينه، الكل يسعى فى ذلك، كما ورد عن بعض السلف[٢]: وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوا الله. وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمهما الله يقول لأبيه: وددت أنى غلت بى وبك القدور فى الله تعالى.

إن بواعث إنكار المنكر ودفع الظلم أمور عقدية، فلا بد أن تكون قوية ودائمة، وهذا هو سر تحمل رسول الله ﷺ أذى المشركين بكل جلادة وصبر، وسار الصحابة على هديه، فصبروا وقاوموا المنكر حتى أظهر الله

---

(١) أخرجه الترمذى فى آخر أبواب صفة القيامة ٧/٢١٩. وقال: حسن صحيح.

(٢) هو أبو عبد الرحمن زهير بن نعيم البابى. أخرجه عنه فى الحلية ١٠/ ١٥٠.

دينه وأعز أهله.

لقد تفنن المشركون فى إيذاء رسول الله والصحابة، حاولوا قتله مراراً وقتلوا بعض الصحابة، وآذوه وآذوا أصحابه، وشُج وجهه يوم أُحد، وهو يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[1] وهذا يوضح أن ما لحقهم من أذى ما صرفهم عن نصرة الحق، ولا دعاهم للاعتداء والظلم، وإنما ظلوا فى دائرة الثبات على الحق ونصرته، بكل حكمة وصبر.

إعلاء أسباب إنكار المنكر:

بيّن الإسلام أن الأخذ على يدى الظالم والوقوف فى وجه المنكر إنما هو طاعة، يثيب الله الأمة على ذلك ويثيب الأفراد، فيرضى ويبارك ويستجيب الدعاء.

* قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2]. وفى هذا إعلاء لردع المنكر، وأن الله ينصر الأمة إذا وقفت مع الحق ضد الباطل، وأنه سبحانه يجعل عاقبتهم حميدة.

* وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فىّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول:

---

(١) أخرجه ابن حبان ٣/ ٢٥٤ والآجرى فى الشريعة ٢/ ٢٨٢ رقم ١٠٦١ وفيهما تخريجه وأنه حسن يرتقى بشواهده إلى صحيح لغيره.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٠، ٤١.

فإياى كنت أحق أن تخشى»[١].

إن اللائق بالمسلم أن يقف فى وجه الباطل إعظامًا لله وطاعة له سبحانه فإنه لا يليق بالأمة إلا أن تكون على طاعته سبحانه.

* وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يُنْعِشُ لسانُه حقًا يُعْمَل به بعده، إلا جرى عليه أجره إلى يوم القيامة، ثم وفّاه الله ثوابه يوم القيامة»[٢]. ومعنى: «يُنعش حقًا» أى يُظهره ويُشيعه. فإظهار الحق وإشهاره طاعة عظيمة، يجب على كل من تأهل لها أن يقوم بها.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الأمة الإسلامية متمسكة بالإسلام كله تمسكًا تامًا، كانت أمة تعرف المعروف وبكل حرص تفعله، وتعمل على نشره وعمومه، وكانت تعرف المنكر وتحذره، وتبتعد عنه، وتعمل على إبعاده عن الحياة. كانت أمة دينها قوى، والتزامها به شديد، تؤمن أنه لا يليق أن يوجد المنكر بين أفرادها، ولا فى الحياة عمومًا، وإنما تجتهد فى الخير وطاعة الله تعالى، والله سبحانه يشملها بعنايته ورعايته.

أمة وصفها الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٣].

إنها خير أمة فى البشرية وما ذلك إلا لقيامها على الحق وحراستها الفضيلة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/١٣٢٨ رقم ٤٠٠٨ ونقل محققه عن الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ٢١/ ٣١٤ رقم ١٣٨٠٣ وقال محققه: صحيح لغيره.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

* وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

هذا حال المؤمنين، أحبة متعاونون، وبالحق متمسكون، ولله مطيعون، وبرسوله مقتدون.

* وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وهذا تكليف وتشريف؛ أمر لهم أن يدعوا إلى الخير، ويحموا الحق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى هذا تشريف لهم أيُّما تشريف وتطمين لهم بالفلاح والفوز بخيرى الدنيا والآخرة.

فى هذا الوقت وقت النبوة الطاهر، وفى هذه الحال حال الأمة المستقيمة على الإسلام يخبر رسول الله ﷺ أن أجيالاً ستأتى تزل عن ذلك فى أمرين:

الأول: أنها ستنحرف عن هذه الجادة، حتى إنها ترى المنكر فلا تنكره، وترى الظالم فتخاف أن تنكر عليه، وتهاب أن تقول له: «يا ظالم».

الثانى: أن هذه الأجيال من الأمة سيُحْرَمُون من عون الله وتأييده، جزاء عدم إنكارهم المنكر.

ويتحقق ما أخبر به ﷺ من الناحيتين:

١- فيظهر المنكر فى الأمة، ويكثر الظلم، ويشيع الربا والمخدرات وأكل

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

الأموال بالباطل، وإيذاء الآخرين، يشيع الانحرافات، ويكثر اللهو واللعب، وتهمل العبادات، ويكثر الجهل... كثير وكثير، ولا أحد يُحذر من هذه المعاصى، ولا أحد ينكر على فاعليها.

٢ـ وترفع العناية عن الأمة، فتسلط عليها الأمم، وتنهزم حتى يتحكم فيها الآخرون!! وتبتلى بالأمراض، وشدة الحياة!!

تحقق الأمران معًا: سلبية الأمة، والتوديع منها.

وهذا من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا، والتى هى تحذير لنا، وأننا إذا أردنا العزة التى وعد الله بها المؤمنين فلنلتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن ذلك إنكار المنكر، والأخذ على يدى فاعله، ففى ذلك النصر والتأييد والعون الإلهى.

• الدروس المستفادة:

١ـ وجوب الإنكار على الظالم، وكل فاعل منكر ظالم، سواء لنفسه أو لنفسه وللغير.

٢ـ إذا هابت الأمة أن تأخذ على يدى الظالم سقطت من عين الله.

٣ـ خيرية هذه الأمة وإكرام الله لها مرتهن بالحفاظ على الحق، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٤ـ هذا الحديث من معجزاته ﷺ إذ أخبر بالأمر فوقع كما أخبر.

٥ـ هذا الحديث دليل على صحة السنة وثبوتها؛ إذ يصدقه الواقع.

* * *

الإخبار بظهور المغنيات والخمور والخسف والمسخ

عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «فى هذه الأُمَّة خَسْفٌ وَمَسْخٌ وقَذْفٌ» فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: «إذَا ظَهَرَتِ القِيَانُ، والمَعازِفُ، وشُرِبَتِ الخُمُورُ»[1].

وفى لفظ آخر: «يكون فى هذه الأمة ـ أو فى أمتى ـ خَسْفٌ وَقَذْفٌ ومَسْخٌ» قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهرت المعازفُ وكثرت القيان وشُرِبَت الخُمُورُ»[2].

• **المعانى:**

«فى هذه الأمة»: الجار والمجرور متعلق بفعل صرح به فى الرواية التالية وفى أحاديث أخرى ففى حديث أبى سعيد الخدرى «يكون فى هذه الأمة خسف...» وسيأتى فى الشرح. أى أمة الإسلام. وإنما سيكون فيها الخسف والمسخ وغيرهما من المتالف بشؤم معاصيهم، وحتى يرجعوا إلى الصراط السوى دين الله تبارك وتعالى. وفعل الكون المقدر هنا والمثبت فى الأحاديث الأخرى فعل تام أى سيوجد وسيظهر. و«خسف» فاعل لفعل الكون هذا، وليس اسمًا له ففعل الكون هنا ليس بناسخ.

«خَسْفٌ» يقال خسف الله به الأرض خَسْفًا أى غاب به فيها. وخَسَفَ المكانُ: ذهب فى الأرض. وخُسِفَ بالرجل والقوم إذا أخذته الأرض

---

(١) أخرجه الترمذى فى الفتن باب قبل باب قول النبى ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ٦/٤٥٨.

(٢) لفظ رواية أبى عمرو الدانى فى الفتن ٣/٧٠٩ رقم ٣٤٠ وصححه محققه بالشواهد.

ودخل فيها.

والخسف: إلحاق الأرض الأولى بالثانية[١].

وعليه فمعنى سيكون فى هذه الأمة خسف أى سيغيب الله بعضًا منها فى الأرض، تغوص المنطقة التى هم عليها من الأرض فى الأرض. فلا يبقى لهم أثر. كما قال سبحانه فى شأن قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[٢].

و«مَسْخٌ» يقال مَسَخَهُ. يَمْسَخُهُ مَسْخًا بمعنى حوّل صورته إلى صورة أقبح منها.

ومنه حديث رسول الله ﷺ فى الضب: «إن أمة من الأمم مسخت فأخشى أن يكون منها» وأيضًا حديث ابن عباس: الجانُّ[٣] مسيخ الجن كما مسخت القردة من بنى إسرائيل.

«مسيخ» فعيل بمعنى مفعول من المسخ الذى هو قلب الخلقة من شىء إلى شىء.

و«المسيخ» من الناس الذى لا ملاحة له، ومن الطعام ما لا طعم له[٤].

وهكذا يتضح معنى قوله ﷺ: «فى هذه الأمة خسف ومسخ...» أى سيمسخ الله أفرادًا أو جماعات من هذه الأمة فيجعلهم خلقًا آخر، كما جاء فى حديث آخر:

عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يشرب ناس

---

(١) لسان العرب ٢/١١٥٧.
(٢) سورة القصص، آية: ٨١.
(٣) الحيات الدقاق.
(٤) لسان العرب ٦/٤١٩٩.

من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها، يُضْرَبُ على رءوسهم بالمعازف والقينات، يَخْسِفُ الله بهم الأرض، ويَجْعَلُ منهم القردة والخنازير»[١].

وظاهر هذا أن يغيِّر الله صورتهم إلى صورة قرود أو خنازير. ولا مانع مما هو أقل من ذلك فتشوه صورتهم، وتزول ملاحتهم.

«وقَذْفٌ» يقال: قَذَفَ بالشىء يَقْذِفُ قَذْفًا فانقذف: رمى.

والتقاذف: الترامى.

وقَذفَ المحصنة: سبَّها أو رماها بالزنى.

والقَذْفُ بالحجارة: الرمى بها. يقال: هم بين حاذف وقاذف. وحاذ وقاذ على الترخيم[٢] فالحاذف بالحصى. والقاذف بالحجارة.

والقِذَاف: ما أطقت حمله بيدك ورميته[٣].

وعليه فقوله ﷺ: «فى هذه الأمة... وقذف». أى أن الحجارة تطير من أماكنها وتسقط على الناس.

و«القيان» جمع قَيْنَة. يقال للرجل قَيْن وللمرأة قينة، من قان يَقِينُ قِيَانة وقَيْنًا صار قَيْنًا.

وقان الحديدة قينًا عملها وسواها.

وقانَ الإناء يَقِينُه قَيْنًا أصلحه.

والتقين: التزين بألوان الزينة.

قانت المرأةُ المرأةَ تَقِينُها قينًا. وقَيَّنَتْها: زيَّنَتْها.

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٥/ ١٦٠ رقم ٦٧٥٨.

(٢) الترخيم: حذف الحرف الأخير من الكلمة زياد يقال: زيا وسعاد يقال: سعا.

(٣) لسان العرب ٥/ ٣٥٦٠.

وتَقَيَّنَ الرجل واقتان: تزين.

والقَيْنَةُ: المُغَنِّيَةُ. يقال للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها.

والقينة أيضًا: الماشطة، لأنها تُزَيِّنُ العرائس والنساء(١).

وعليه فقوله ﷺ: «إذا ظهرت القيان» أى إذا وجدت المغنيات اللائى يجعلن الغناء صناعة لهن، مما يكون معه من مخالفات شرعية.

«والمعازف» جمع: معْزَفٌ ومعْزَفَةٌ. وقيل واحدها عَزْفٌ على غير قياس. يقال: عَزَفَ يَعْزِفُ عَزْفًا: لها من اللهو.

والمعازف: الملاهى والملاعب التى يُضْرَبُ بها.

والمِعْزَفُ: ضرب من الطنابير، ويقال أيضًا للعود.

والعَزْفُ: اللعب بالمعازف. وهى الدفوف وغَيْرُها مما يُضرَبُ(٢).

وعليه فقوله ﷺ: «إذا ظهرت القيان والمعازف»: إذا ظهرت المغنيات وأجهزة اللهو واللعب من العود والطنبور والدف وغيرها مما كثُر فى زماننا، إذا ظهرت هذه الأشياء ظهر الخسف فغارت بلاد تحت الأرض وظهر المسخ فشوهت صور أناس وربما انقلبوا قردة وخنازير. وظهر القذف فتطايرت الأحجار وسقطت على الناس.

● راوى الحديث:

عِمران بن حُصَيْن بن عبيد بن خلف أبو نجيد الخزاعى، الصحابى المتعبد، العالم العامل، الفقيه المجاهد.

أسلم هو وأبوه وأخته سنة سبع. وطلب العلم وتقدم فيه. وغزا مع

(١) لسان العرب ٥/٣٧٩٩.

(٢) لسان العرب ٤/٢٩٢٨.

رسول الله ﷺ غير مرة، وكان صاحب راية خزاعة يوم فتح مكة.

بعثه عمر بن الخطاب إلى أهل البصرة ليفقههم ويقضى بينهم، ولقد أخبر الأئمة الأعلام أنه خير من قدم البصرة.

فعن محمد بن سيرين قال: ما قدم البصرة أحد من أصحاب النبى ﷺ يُفَضَّلُ على عمران بن حُصين[١].

وعن محمد بن المنكدر قال: ما قدم أحد البصرة من أصحاب النبى ﷺ يفضل على عمران بن حُصين[٢].

وكان الحسن البصرى يحلف ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران ابن الحُصين[٣].

أرسله عبيد الله بن زياد لجمع الزكاة فجاء ولم يرجع معه درهم فقال له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتنى!! أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ، ووضعناها فى الموضع الذى كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ[٤].

مرض ببطنه فصبر، يقول محمد بن سيرين: سقا بطن عمران بن الحُصين ثلاثين سنة، كل ذلك يُعْرَضُ عليه الكىّ فيأبى أن يكتوى حتى كان قبل وفاته بسنتين فاكتوى[٥].

وكان مجتهدًا فى العبادة كثيرًا، يقول معاوية بن مرة: كان عمران بن

---

(١) الطبقات الكبرى ٤/ ٢٨٧ قال فى الإصابة ٤/ ٧٠٥: أخرجه الطبرانى وابن منده بسند صحيح.

(٢) مستدرك الحاكم ٣/ ٤٧١.

(٣) الزهد لأحمد ص٢٣١ وسير النبلاء ٢/ ٥٠٨.

(٤) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٧١ وصححه وأقره الذهبى.

(٥) الطبقات الكبرى ٤/ ٢٨٨.

الحصين من أشد أصحاب رسول الله ﷺ اجتهاداً فى العبادة[١].

ويقول قتادة: قال عمران بن حصين: وددتُ أنى رماد تذرونى الرياح[٢].

وكانت الملائكة تسلم على عمران، يسمع كلامهم ويكلمهم، وأمره ابن زياد أن يكتوى من مرض بطنه فاكتوى، فذهب عنه ذلك، حتى ذهب أثر الكى رجع إليه كلام الملائكة إياه.

فعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: قال عمران بن حصين رحمه الله: أشعرت أنه كان يُسَلَّمَ علىّ، فلما اكتويت انقطع التسليم. فقلت له: من قِبَلِ رأسك كان يأتيك التسليم أم من قِبَلِ رجليك؟ فقال: لا، من قبل رأسى. قلت: فإنى لا أدرى أن تموت حتى يعود ذلك. فلما كان بعدُ قال: أشَعَرْتَ أن التسليم عاد لى. ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى مات[٣].

عيَّنه عبيد الله بن زياد قاضيًا، فاختصم إليه رجلان، فأقام أحدهما البينة على خصمه، فقضى عمران على هذا الخصم. فقال: قضيت علىّ بجور. فقال عمران: وكيف ذلك؟ قال المحكوم عليه: شُهِدَ عَلَىّ بزور. فقال عمران: هو فى مالى. وذهب إلى عبيد الله بن زياد وطلب منه أن يعفيه من القضاء، وأصرّ على ذلك حتى أعفاه[٤].

روى عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ وعن معقل بن يسار وروى عنه كثيرون.

(١) المستدرك ٣/ ٤٧١.

(٢) الزهد لأحمد ص٢٣١ والطبقات ٤/ ٢٨٧.

(٣) الزهد لأحمد ص٢٣١.

(٤) الطبقات الكبرى ٤/ ٢٨٧ وسير النبلاء ٢/ ٥١٠.

روى عن رسول الله ﷺ مائة وثمانين حديثًا، وأحاديثه فى مسند أحمد كثيرة[١].

توفى عمران بن حصين سنة اثنتين وخمسين[٢].

رضى الله عنه وعن الصحابة والتابعين، وكل أهل لا إله إلا الله أجمعين.

• الشرح:

التحذير من العقوبات:

يحذر ﷺ أمته من عقوبات ستحصل، لا قِبَلَ للمخلوقين بها، ويبيِّنُ ﷺ أن هذه العقوبات إنما هى بسبب ذنوب، يذكر ﷺ هذه الذنوب، فليس هناك عقوبة إلا بذنب.

إنه ﷺ يُلِحُّ على هذا الأمر، وأن الذنوب يترتب عليها العقوبات، يبين ذلك فى الحديث الذى معنا، وفى أحاديث أخرى، يبين الذنب وعقوبته، والذنوب وعقوباتها، كل ذلك كى تحذر الأمةُ الذنوبَ، وتلوذ بطاعة الله سبحانه، لتنجو من غضب الله، وتحظى برضوانه ونعمه سبحانه وتعالى.

إن الله تبارك وتعالى يرسى هذه القاعدة العامة فى كتابه العزيز، فى آيات منها:

قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٣].

---

(١) ج٤ ص٤٢٦ إلى ص٤٤٦ الطبعة الميمنية، وج٣٣ من ص٤٩ - ٢١٢ من حديث رقم ١٩٨١٥ - ٢٠٠١٠، أى خمسة وتسعين ومائة حديث بالمكرر فى طبعة الرسالة.

(٢) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٢/٥٠٨، وتهذيب الكمال ٢٢/٣١٩ وطبقات ابن سعد ٤/٢٨٧، والزهد لأحمد ص٢٣١، ومستدرك الحاكم ٣/ ٤٧٠، والإصابة ٤/٧٠٥.

(٣) سورة الشورى، آية: ٣٠.

ورسول الله ﷺ يركز هذه القاعدة فى أحاديث منها:

حديث علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب فى الدنيا ذنبًا فعوقب به، فالله أعدل من أن يُثنى عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنبًا فى الدنيا فستر الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود فى شىء قد عفا عنه»[1].

وفى هذا الحديث وما فى موضوعه يُفَصِّلُ ﷺ، ويُحذِّر من:

١ـ انخساف الأرض فى أماكن من بلاد المسلمين، تنشقُّ الأرض، وتغوص قطع منها تحت بقية الأرض، وقد يصاحب ذلك زلازل أو فيضانات أو أعاصير، مما يقتل البعض، ويدمر وسائل حياة آخرين.

٢ـ القذف وهو الرمى بالأحجار أو الأتربة، تثور من الصحراء وتحملها الرياح إلى العمران، فتؤذى الناس فى صحتهم ومعايشهم، وتسبب الكثير من الحوادث والمآسى، وقد تتحرك تلال الرمال لترسو على طريق فتقطعه، أو توجد مشكلة معقدة للناس فى حياتهم!!

ولقد حذرنا الله سبحانه وتعالى هذين الأمرين ـ انخساف الأرض والقذف بالأحجار ـ فقال سبحانه: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[2].

يحذر سبحانه الخلق أن يعاقبهم بخسف الأرض بهم فتتحرك وتضطرب، ويُطوى بعضُها أسفل بعض. أو يرسل عليهم ريحًا فيها حصباء تؤذيهم وتضرهم.

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ١٦٥ رقم ٧٧٥ وحسنه محققه.

(٢) سورة الملك، آية: ١٦، ١٧.

ويبيّن سبحانه أنه عاقب بعض السابقين بذلك، فمن ذلك قوم لوط، تَمردوا على رسول الله إليهم لوط عليه السلام، وأصروا على الذنب، وهو إتيان الرجل الرجل!! يستغنى بذلك عن الزواج الذى هو الناموس الصواب للحياة، فعاقبهم الله بخسف الأرض بهم، وإرسال الحجارة عليهم:

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

لما تمادى قوم لوط فى الذنب حلت بهم العقوبة، فقلب الله بلادهم رأسًا على عقب، وأنزل عليهم حجارة كبيرة قوية، قد طبع عليها أسماء أصحابها، فمنهم من أهلك بانقلاب البلاد، ومنهم من أهلك بسقوط الأحجار عليه، فليعتبر المعتبرون.

عن قتادة وغيره قالوا: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها فى جناحه فحواها وطواها فى جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكونسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها فأهلك كل من فيها، ومن كان خارج قراهم فإن الحجارة طاردته، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد[2].

---

(١) سورة هود، آية: ٨٢، ٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٤١/٤.

إن الله سبحانه يحذر الخلق شؤم المعصية، ويبين للمسلمين ما حَلَّ بالأمم الأخرى، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أى أن من عصى فهذه العقوبة تلاحقه، من انخساف الأرض، والرجم بالأحجار.

٣ـ ويحذرنا ﷺ عقوبة «المسخ» ويبين أنه بشؤم المعاصى قد يُمسخ البعض:

يَمْسَخُ خلقتهم الظاهرة بجعلها قبيحة بعد أن كانت جميلة!!

أو تُمسخ خلقتهم الظاهرة بجعلها فى صورة مخلوقات أخرى كالقردة والخنازير!!

أو تُمسخ خلقتهم الباطنة باعوجاج الفكر، وسقم القيم، والضلال بدل الهدى!!

ولقد حذرنا الله ذلك:

فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

حرم الله على بنى إسرائيل صيد الحيتان يوم السبت، فخالفوا وعصوا فصادوها يوم السبت، وشاع ذلك فيهم، حتى أصبح معظمهم على هذا الذنب، وحذرهم بعض الأخيار مغبة الذنب فلم ينتهوا، وسكت بقية الأخيار فلم يحذروهم.

واستمر هذا الأمر فترة، الكثيرون منهم يعصون الله ويصطادون الحيتان

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٥، ٦٦.

يوم السبت فمسخهم الله قردة بشؤم معصيتهم. عبرة للآخرين منهم ومن معاصريهم وما بعدهم، وموعظة للمتقين من أمة الإسلام.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2].

واضح من هذه الآيات أن الله سبحانه مسخ العصاة من بنى إسرائيل قردة وخنازير، كان الشباب قردة، والشيوخ خنازير، كان فيهم نوع إدراك لكن لا ينطقون، مسخهم وعاشوا قليلاً من الزمن، لم ينجبوا بعد المسخ، فالممسوخ لا نسل له، مسخهم الله وأخبر عن ذلك موعظة لكل من كان بعدهم، فيا ليت البشرية تنتبه وتعيش على دين الله الخاتم، دين الإسلام.

عن عبد الله بن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهم من نسل اليهود؟ فقال: «لا؛ إن الله عز وجل لم يلعن قومًا قط فمسخهم فيكون لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله عز وجل على اليهود فمسخهم، جعلهم مثلهم»[3].

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «الحَيَّاتُ من مَسْخِ الجَانِّ كما مُسِخَتِ الخَنَازِيرُ وَالْقِرَدَةُ»[4].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٦٦.

(٣) أخرجه الطيالسى ١/٢٤٣ رقم ٣٠٥ وصححه محققه وخرجه.

(٤) أخرجه ابن حبان ١٢/٤٥٨ رقم ٥٦٤٠.

إن الإنس يمسخون قردة وخنازير، والجن يمسخون حيات، وكل ذلك عقوبة على ذنوب، والحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين الذنب والعقوبة التى عليه.

وقد جاءت أحاديث أخرى فى الموضوع أضافت عقوبات أخرى:

فعن أبى أمامةَ عن النبى ﷺ قال: «يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو فيصبحون قد مسخوا خنازير، وليخسفن بقبائل فيها، وفى دور فيها حتى يصبحوا فيقولوا خسف الليلة ببنى فلان، خسف الليلة بدار بنى فلان، وأرسلت عليهم حصباء حجارة كما أرسلت على قوم لوط، وأرسلت عليهم الريح العقيم، فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم بشربهم الخمر وأكلهم الربا ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وقطيعتهم الرحم قال وذكر خصلة أخرى فنسيتها»[1].

وواضح من هذا الحديث أن من العقوبات:

٤- إرسال الريح العقيم، فالريح منها ما هو خير، ومنها ما هو شر، فهى على أهل الطاعات خير، وعلى أهل المعاصى عذاب، كما فى حديث أبى أمامة هذا «وأرسلت عليهم الريحُ العقيم، فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم».

وعن أُبَىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا الريح، فإنها من رَوْح الله[2]، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به. وتعوّذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»[3].

(١) أخرجه الحاكم ٤/ ٥١٥ وصححه ووافقه الذهبى وأخرجه الطيالسى ٢/ ٤٥٦ رقم ١٢٣٣ وأحمد ٣٦/ ٥٦٤.

(٢) أى رحمة الله بعباده.

(٣) أخرجه أحمد ٣٥/ ٧٦ وصححه محققه وخرجه.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسَّم قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف فى وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية؟ فقال: يا عائشة ما يُؤْمِنِّى أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»(1).

يقول ابن عباس: الريح إذا أثارت سحابًا قالوا: هذا عارض(2).

وعن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فُتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر، ولما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. فكان أهل البوادى فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب»(3).

إن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه عذب أناسًا بالريح:

فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(4).

إن عادًا عصوا رسول ربهم إليهم، فأنذرهم العذاب فاستعجلوا

---

(1) أخرجه البخارى فى التفسير باب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ...﴾ ٨/٥٧٨ رقم ٤٨٢٨، ٤٨٢٩.

(2) أخرجه البخارى معلقًا قبل الحديث السابق. ووصله ابن حجر من تفسير ابن أبى حاتم والطبرى.

(3) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١٢/٤٢. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/١١٣: فيه مسلم الملائى وهو ضعيف.

(4) سورة الحاقة، آية: ٦ ـ ٧.

العذاب، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من جثته.

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[2]. أرسل الله عليهم بشؤم معاصيهم ريحًا عقيمًا لا تنتج وإنما تفسد!! ما أتت على شىء إلا جعلته هالكًا باليًا.

وهكذا توضح الآيات والأحاديث أن الريح قد تكون مدمرة، عقابًا يرسله الله على العصاة، وجاء الحديث الذى يرويه أبو أمامة ليبين المعاصى والتى تتسبب فى العقوبات ومنها الريح المدمرة.

إن الريح عقوبة يرسلها الله على العصاة، وإذا كان قد عذب بها عادًا لعتوهم، فإنه عذب بها المشركين حينما طغوا وحاربوا المسلمين:

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[3].

يخبر ربنا عن حال المسلمين فى غزوة الخندق، وأن المشركين واليهود اجتمعوا على حرب المسلمين، فأرسل الله على المشركين واليهود ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيئًا. ولا توقد لهم

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٤١، ٤٢.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٩.

نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، وأعز الله جنده، وهزم الأحزاب وحده.

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلكت عاد بالدَّبُور»(١).

وهدد سبحانه وتعالى العصاة فى كل زمان ومكان بعقوبة الريح:

فقال سبحانه مهددًا المشركين: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾(٢).

يخبر الله سبحانه أن الناس إذا نزلت بهم شدة توجهوا إلى الله سبحانه بالطاعة والدعاء، فإذا صرف عنهم الشدة تركوا الطاعة، ثم إنه سبحانه يحثهم على الثبات على الطاعة وأنهم حتى لو خرجوا من البحر إلى البر فهم فى حاجة إلى لطف الله، فقد ينخسف بهم البر، وقد يُرسل الله عليهم الحجارة. وأيضًا فإنهم قد يعودون إلى البحر مرة أخرى فيرسل الله عليهم الريح الشديدة تقصف الصوارى وتغرق المراكب، فاللائق بهم أن يستمروا على طاعة الله سبحانه وتعالى.

لما فتح الله مكة على رسوله والمسلمين خرج عكرمة بن أبى جهل فارًا من رسول الله ﷺ هاربًا، فركب البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله

(١) أخرجه البخارى رقم ١٠٣٥ ومسلم رقم ٩٠٠.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٦٧ ـ ٦٩.

وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره. اللهم لك علىّ عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فاضعن يدى فى يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه[1].

إن الريح من العقوبات، يجعلها الله عذابًا على العصاة، ولا زلنا نسمع عن رياح مدمرة تحدث هنا وهناك، تدمر وتهلك، وقد يصاحبها عقوبات أخرى كالفيضانات والزلازل والخسف.

وهكذا يتضح أن العقوبات متعددة منها ما هو خسف، ومنها ما هو رجم، ومنها ما هو مسخ، ومنها ما هو الريح العقيم.

ورضى الله عن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فقال: وإذا أحببت أن تحقر عملك فتفكر فيما أنعم الله عليك وقدّر ما عمل الصالحون قبلك، وقدّر عقوبته فى الذنوب؛ إنما فعل بآدم الذى فعل بأكلة أكلها فقال ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ وإنما لعن إبليس وجعله شيطانًا رجيمًا من أجل سجدة أَبَى أن يسجدها وجعل منهم قردة وخنازير من أجل حيتان أصابوها يوم السبت، وقد نهوا أن يعدوا فيه. فتفكر فى نعيم الجنة وملكها وكرامتها، فإذا فكّرتَ فى هذا كله عرفت نفسك، وحقرت عملك، وعلمت أن عملك لن يغنى عنك شيئًا إلا أن يتغمدك الله برحمته وبعفوه[2].

إنه لا يصح أن يستهين المسلم بأى ذنب مهما رآه حقيرًا، فالذنوب شؤم أيما شؤم.

---

(١) تفسير ابن كثير الآية ٦٧ من سورة الإسراء.

(٢) العظمة لأبى الشيخ ص٢٣، ٢٤ رقم ٢٧/٢٧.

أسباب العقوبات:

إن العقوبات التى سبق ذكرها من الخسف، والرجم، والمسخ، والريح العقيم. والتى يحذرها العاقل كل الحذر قد بيّن رسول الله ﷺ أسبابها، وهذه الأسباب تجمعها كلمة «الذنوب» فالذنوب سبب كل عقوبة.

وفى الحديث الذى معنا نصٌّ على ذنوب معينة، وهى:

١ـ ظهور المغنيات والاستماع لهن!!.

٢ـ ظهور آلات الموسيقى، واستعمالها، والاستماع إليها!!.

٣ـ شرب الخمر.

وأحاديث الباب والتى منها حديث أبى أمامة الذى سبق قريبًا تضيف إلى ذلك:

١ـ قطيعة الرحم، فلا يزور الإنسان أقاربه!!

٢ـ لبس الحرير للرجال.

٣ـ أكل الربا.

وسبق حديث عبد الله بن عمر وفيه تحديد خمسة ذنوب، كل ذنب له عقوبة[١].

وهناك أحاديث أخرى عممت، وحذرت من عموم الذنوب، منها:

* حديث أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» قالت: قلت يا رسول الله أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا ظهر الخَبَثُ»[٢]. وفى رواية «إذا كثر الخبث»

---

(١) فى باب الإخبار بظهور الأمراض الفتاكة وشدة الحياة.

(٢) أخرجه الترمذى فى الفتن باب ما جاء فى الخسف ٦/ ٤١٨ وأبو عمرو الدانى فى الفتن ٣/ ٧١٠ رقم ٣٤١ وصححه محققه بشواهده.

والخبث اسم يجمع أصناف الذنوب والمعاصى، فإذا كثرت المعاصى وظهرت فى الأمة، وسكت الصالحون عليها، ولم يمنعوها فحينئذ يمكن أن ينزل العقاب.

* وحديث أنس بن مالك قال: ذُكِرَ فى زمن رسول الله ﷺ خسف قِبَل المشرق فقال رجل: يا رسول الله يخسف بأرض فيها المسلمون فقال: «نعم إذا كان أكثر أهلها الخبث»[1].

* وحديث زينب بنت جحش رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحلَّق بأصبعه الإبهام والتى تليها ـ» فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[2].

يبين ﷺ أن الفتن قد اقترب ميعادها، وويل للناس منها، وخص العرب لأنهم كانوا أكثر من أسلم، والتحليق بالإبهام والتى تليها يفيد عند العرب رقمًا حسابيًا، هو مائة، والمقصود أنه قد اقترب فتح ثقب للشر، وتساءل بعض الحاضرين: أنهلك وفينا الصالحون؟ أى أيحدث الشر مع وجود الأخيار؟ وكأن السيدة زينب أم المؤمنين تذكرت قول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3]. ففهمت أن صلاح الصالحين يرفع الله به العذاب،

---

(١) ذكره فى مجمع الزوائد ٧/٢٦٩، وقال: رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ٦/٣٨١ رقم ٣٣٤٦ وفى غير هذا الموضع، وأخرجه أيضًا مسلم فى أول الفتن.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

فأجابها رسول الله ﷺ بأنه إذا كثر الذنب نزل العذاب، وأما صلاح الصالحين فهم مثابون به.

وحديث جرير بن عبد الله البجلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى يقدرون أن يُغيِّروا عليهم ولا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»[١].

وحديث أبى بكر الصديق عن النبى ﷺ قال: «أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير ما وضعها الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٢] إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[٣].

إن هذه الأحاديث تبين أن العقوبات أو المصائب أو البلاء إنما السبب فيها هو الذنوب!! نعم هناك ذنوب تتبعها عقوبات معينة كما فى الحديث الذى معنا ثلاثة ذنوب يسستتبعها ثلاث عقوبات!! فالسهرات على أنغام الموسيقى، وأصوات المغنيات، وشرب الخمر.

يستتبعها انخساف الأرض، ونزول الأحجار والأتربة، ومسخ الناس بمعنى تبدل خلقتهم شكلاً ومعنى.

وحديث أبى أمامة زاد فى الذنوب: أكل الربا، ولبس الحرير، وقطيعة الرحم، وواضح أن المعصية التى نسيها الراوى هى: المعارف.

وزاد فى العقوبات: إرسال الريح العقيم.

فهى أربع عقوبات تتبع سبعة ذنوب.

(١) أخرجه ابن حبان ١/٥٣٦ رقم ٣٠٠، ٣٠٢.
(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٥.
(٣) أخرجه ابن حبان ١/ ٥٤٠ رقم ٣٠٤، ٣٠٥.

والأحاديث الأخرى أجملت العقوبات والأسباب، فإذا كثر الذنب نزل العقاب.

وليس بلازم أن تجتمع الذنوب والعقوبات، وإنما كل ذنب له عقوبة بحسبه، على أن هذه الذنوب يخشى من كل منها أنها يستتبع بعضها بعضًا، وبالتالى تنزل العقوبات مجتمعة.

إنه ﷺ يحذر من:

١،٢. الغناء وآلات الملاهى:

إنه ﷺ وهو يشخص الداء قال: «إذا ظهرت القيان والمعازف» وفى لفظ آخر «إذا ظهرت المعازف وكثرت القيان» وهذا يفيد أن الغناء المقصود هنا هو ما ترفع به النساء أصواتها من الكلام الموزون مع تلحينه، وتقطيعه على النغمات الرقيقة، التى تحرك الشوق وتهيج النفوس.

والقيان والقينات: نساء اتخذن الغناء مهنة، يَتَفَنَّنَّ فيه، ويبذلن قصارى حيلتهن وطاقتهن فى إيقاعه على الوجه المحرك لساكن النفوس والمثير للعواطف.

ولقد ألف بعض العلماء مؤلفات فى الغناء، منها:

«تنزيه الأسماع» لابن رجب الحنبلى، المتوفى سنة ٧٩٥هـ.

و«كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع» لابن حجر الهيتمى المتوفى سنة ٩٧٣هـ.

و«تحريم النرد والشطرنج والملاهى» للآجرى المتوفى سنة ٣٦٠هـ، وهذا كتاب مُسْنَد، أى ذكر الآجرى الأحاديث والآثار بإسناده إلى رسول الله ﷺ أو إلى الصحابى أو التابعى.

و«ذم الملاهى» لابن أبى الدنيا المتوفى سنة ٢٨٠هـ. وهو مسند أيضًا.

وغير ذلك.

وأوجز أصول الموضوع:

ـ أدلة تحريم الغناء وآلات الملاهى:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ورد عن رسول الله ﷺ تفسير «لهو الحديث» بالغناء:

فعن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن. وثمنهن حرام، فى مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية»[2].

و«القينات» الجوارى المغنيات. حرم الإسلام بيعها وشراءها للغناء،

(١) سورة لقمان، آية: ٦، ٧.

(٢) أخرجه أحمد ٦١١/٣٦ رقم ٢٢٢٨٠، والحميدى ٤٠٥/٢ رقم ٩١٠، والبيهقى ١٤/٦، وأخرجه الترمذى فى البيوع باب ما جاء فى كراهية بيع المغنيات ٥٠٢/٤، وفى تفسير سورة لقمان ٥٤/٩، وقال ـ فى الموضع الأول ـ: قد تكلم بعض أهل العلم فى على بن يزيد وضعفه وهو شامى. قال ابن رجب: على بن يزيد لم يتفقوا على ضعفه، بل قال فيه أبو مسهر ـ وهو من بلده، وهو أعلم بأهل بلده من غيرهم ـ قال فيه: ما أعلم فيه إلا خيراً، وقال ابن عدى: هو فى نفسه صالح، إلا أن يروى عنه ضعيف، فيؤتى من قِبَل ذلك الضعيف، وهذا الحديث قد رواه عنه غير واحد من الثقات. مجموع رسائل ابن رجب ٤٤٦/٢، ٤٤٧. وقال ابن القيم: وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زَحْر عن على بن يزيد الألهانى عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة. والقاسم ثقة، وعلى ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى. ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، إغاثة اللهفان ٢٥٨/١.

وبيّن أن الغناء هو لهو الحديث. وفى العهد النبوى ما كانت الحرة تغنى بمسمع الرجال، إنما كان ذلك من صفات الأمة، فنهى ﷺ عن ذلك، لما فى الغناء من أثر سلبى.

وورد عن الصحابة تفسير «لهو الحديث» بالغناء:

فعن عبد الله بن مسعود قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو والله الغناء(١).

وعن عبد الله بن عباس ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: هو الغناء وأشباهه(٢).

وتفسير الصحابى أقوى وأوجب فهم أعلم الأمة بمراد الله من كتابه، شهدوا فترة نزول الوحى وعايشوه، وشاهدوا تفسير رسول الله ﷺ له قولاً وعملاً، وهم العرب الخُلَّص. فتفسيرهم يجب قبوله.

ووردت آيات أخرى فى تحريم الغناء والمعازف، منها:

قول الله تعالى فى وصف الصالحين من عباده: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(٣).

وقوله سبحانه فى وصف الصالحين أيضًا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشهادات باب الرجل يغنى... ١٠/٢٢٣ وصححه ابن القيم فى الموضع السابق.

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ٢/٦١٥، ٦١٦ فضل الله الصمد، وأخرجه البيهقى فى الموضع السابق. وصححه ابن القيم كما تقدم.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

(٤) سورة القصص، آية: ٥٥.

وأيضًا قوله فى وصف الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[١].

واللغو: الباطل فيشمل الشرك، والمعاصى، وما لا فائدة فيه من القول والعمل، ويدخل فيه الغناء والمعازف وكل لهو.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾[٢].

ينكر الله على المشركين أنهم يتعجبون أن يكون القرآن صحيحًا!! ويضحكون استهزاء.

ينكر سبحانه عليهم أنهم لا يبكون من عظمة القرآن، وإنما يتغنون، إن ذلك لا يكون إلا من قسوة القلب، والتعصب للباطل ضد الحق.

عن عبد الله بن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾. قال: هو الغناء بالحميرية - لغة بنى حمير - اسمدى لنا: تغنى لنا[٣].

وقال الله سبحانه فى وصف عباده الصالحين: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[٥].

وقال سبحانه مخاطبًا إبليس: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[٦].

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٣.

(٢) سورة النجم، آية: ٥٩ - ٦١.

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى ١٠/٢٢٣ وابن جرير ٢٢/٩٨.

(٤) سورة الزمر، آية: ١٨.

(٥) سورة النازعات، آية: ٤٠، ٤١.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٦٤.

قال مجاهد - فى تفسير صوت إبليس - هو الغناء والمزامير[١].

إن هذه الآيات مجتمعة تحذر من الغناء واللهو، وتبين أنه من المحرمات والموبقات، وأن اللائق بالمسلم أن يبتعد عنه، وأن يجعل وقته لا لحظوظ النفس والشهوات بالغناء والملاهى والمعاصى، وإنما لطاعة الله سبحانه وتعالى.

ووردت أيضًا أحاديث نبوية فى التحذير من الغناء وآلات اللهو، من ذلك:

* حديث أبى مالك الأشعرى أنه سمع النبى ﷺ يقول: «ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحِرَ، والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعنى الفقير - لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غدًا، فَيُبَيِّتُهم الله، ويضع القلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٢].

يخبر ﷺ أنه سيكون من الأمة من يستحلون الحِرَ - بكسر الحاء وفتح الراء - أى الفرج، يعنى يستحلون الزنا، ويستحلون لبس حرير الدودة، ويستحلون المخدرات ويستحلون الغناء وآلات اللهو. وينزل أقوام من هؤلاء بجانب جبل يسرح بأعمالهم خدمهم، يأتيهم الفقير فلا يعطونه، فينزل الله عليهم بأسه فيهلكهم ليلاً، ويدكدك الجبل عليهم، ويمسخ آخرين منهم قردة وخنازير.

وفى الحديث بيان أن هذه الذنوب من الموبقات، وقد تنزل العقوبات على فاعليها فى الدنيا خسفًا ومسخًا، يهلكهم ويقلب الأرض عليهم

(١) نزهة الأسماع.
(٢) أخرجه البخارى فى الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ١٠/٥١ رقم ٥٥٩٠.

فيطبق الجبال عليهم، ويَمْسَخُ آخرين قردة وخنازير.

* وحديث أبى مالك الأشعرى أيضًا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «ليشربنَّ ناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنِّيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»(١).

* وحديث أبى أُمامة عن النبى ﷺ قال: «إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين، وأمرنى أن أمحق المزامير والكنَّارات - يعنى البرابط - والمعازف، والأوثان التى كانت تُعْبَدُ فى الجاهلية. وأقسم ربى عز وجل بعزته لا يشرب عبد من عبيدى جُرْعة من خمر إلا سقيته مكانها من حميم جهنم معذبًا أو مغفورًا له، ولا يسقيها صبيًا صغيرًا إلا سقيته مكانها من حميم جهنم معذبًا أو مغفورًا له، ولا يَدَعُها عبد من عبيدى من مخافتى إلا سقيتها إياه من حظيرة القُدُس، ولا يحل بيعهن ولا شراؤهن ولا تعليمهن ولا تجارةٌ فيهن وأثمانهن حرام» للمغنيات(٢).

و«البرابط» جمع بربط. وهى آلة طرب، تشبه العود.

* وحديث عبد الله بن عباس أن النبى ﷺ قال لوفد عبد القيس «إن الله حَرَّم الخمر والميسر والكوبة، وكل مسكر حرام» قال سفيان: قلت لعلى بن بذيمة: ما الكوبة؟ قال: الطبل(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٣٣٣ رقم ٤٠٢٠، وتقدم فى المعانى وذكرت هناك لفظ ابن حبان.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥/ ٥٥١ رقم ٢٢٢١٨ وص٦٤٦ رقم ٢٢٣٠٧، وغالى محققه فى تضعيفه بعلى ابن يزيد الألهانى، وتقدم الجواب عن ذلك فى حديث أبى أمامة: «لا تبيعوا القينات...» ص٣٤٤، وراجع إعلاء ابن رجب من شأن الحديث ص٤٤٧.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٩ رقم ٢٤٧٦ وصححه محققه وابن حبان ١٢/ ١٨٧ رقم ٥٣٦٥. وفيهما تخريجه.

* وحديث عبد الله بن عمرو «نهى رسول الله ﷺ عن الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وقال: كل مسكر حرام»[١] والخمر كل ما غطى العقل. والميسر: كل لهو. والغبيراء: شراب من القمح أو الشعير[٢] أو الذرة يُسْكِر ويَحْرُم تَنَاوُلُه.

* وحديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن عبد الرحمن بن عوف «أن رسول الله ﷺ نهى عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان. وصوت عند مصيبة، لطم خدود، وشق جيوب»[٣] وفى رواية «ورنة شيطان»[٤].

* وعن نافع مولى ابن عمر قال «سمع ابن عمر صوت زَمَّارة راع، فوضع أصبعيه فى أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع. أتسمع؟ فأقول: نعم. قال: فيمضى حتى قلت: لا. قال: فوضع يديه، وأعاد الراحلة إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ وسمع صوت زَمَّارة راعٍ فصنع مثل هذا»[٥].

* وعن عبد الله بن دينار قال: مَرَّ ابنُ عُمَرَ بجارية صغيرة تغنى فقال: لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه[٦].

---

(١) أخرجه أحمد ١١/ ١٢ رقم ٦٤٧٨ وقال محققه: صحيح لغيره.

(٢) راجع ابن حبان ١٢/ ١٩٠ رقم ٥٣٦٧.

(٣) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار كتاب الكراهية باب البكاء على الميت ٤/ ٢٩٣ وأخرجه الترمذى فى الجنائز باب الرخصة فى البكاء على الميت ٤/ ٨٧، وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه البزار ١/ ٣٨٠ رقم ٨٠٥ من الزوائد.

(٥) أخرجه أحمد ٩/ ٢٤ رقم ٤٩٦٥، و٨/ ١٣٢ رقم ٤٥٣٥ وحسنه محققه وخرجه وأخرجه ابن حبان ٢/ ٤٦٨ رقم ٦٩٣ وأخرجه البيهقى ١٠/ ٢٢٢.

(٦) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ٢/ ٦١٠ فضل الله الصمد، وفيه أنه أخرجه البزار والطبرانى، وأخرجه فى السنن الكبرى للبيهقى ١٠/ ٢٢٣.

أقوال السلف فى الغناء وآلات اللهو:

عن عبد الله بن عباس قال: الدف حرام، والمعازف حرام، والكوبة حرام، والمزمار حرام[١].

ومراده أن الدف بإطلاق حرام، إلا ما استثنى فى العيد والعرس، ويكون الدف بلا أجراس.

وعن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة ورجل معه، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين، حدثينا عن الزلزلة. فقالت: إذا استباحوا الزنى، وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف، غار الله فى سمائه فقال: تزلزلى بهم، فإن تابوا وإلا هدمتها عليهم. قال: قلت يا أم المؤمنين، أعذاب لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين. قال أنس: ما سمعت حديثًا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحًا منى بهذا الحديث[٢].

وعن نافع أن ابن عمر مَرَّ عليه قوم محرمون، وفيهم رجل يتغنَّى. فقال ابن عمر: ألا لا سمع الله لكم، ألا لا سمع الله لكم[٣].

وعن أم علقمة أن بنات أخى عائشة رضى الله عنها خُفِضْن، فألمن ذلك فقيل لعائشة: يا أم المؤمنين ألا ندعو لهن من يلهيهن؟ قالت: بلى. فأرسلت إلى فلان المغنى فأتاهن. فمرت به عائشة رضى الله عنها فى البيت فرأته يتغنى ويحرك رأسه طربًا، وكان ذا شعر كثير. فقالت عائشة رضى الله عنها: أف، شيطان. أخرجوه، أخرجوه، فأخرجوه[٤].

---

(١) الكبرى للبيهقى ١٠/ ٢٢٢.

(٢) ذكره ابن القيم فى إغاثة اللهفان ١/ ٢٨٢ نقلاً عن ذم الملاهى لابن أبى الدنيا.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، وصحح الجديع إسناده كذا فى تخريج مجموع رسائل ابن رجب ٢/ ٤٥٥.

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد باب اللهو فى الختان (٣/ ٤٦٦) فضل الله الصمد. والبيهقى ١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤ واللفظ له.

وعن عبد الله بن مسعود قال: الغناء ينبت النفاق فى القلب. زاد فى رواية «كما ينبت الماء الزرع. والذكر ينبت الإيمان فى القلب كما ينبت الماء الزرع»[١].

وعن قتادة فى قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. قال: والله لعله أن لا ينفق فيه ماله، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع[٢].

وسأل إنسان القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ـ من أفضل التابعين علمًا وأدبًا وفقهًا ـ عن الغناء فقال: أنهاك عنه وأكرهه. قال: أحرام هو؟ قال: انظر يا ابن أخى إذا ميَّز الله الحق من الباطل فى أيهما يجعل الغناء[٣].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بُغْض الملاهى التى بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن جل جلاله، فإنه بلغنى عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف، واستماع الأغانى واللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت النبتَ الماءُ[٤].

وعن الفضيل بن عياض: الغناء رقية الزنى[٥]. أى يدعو إلى الزنا

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى ١٠/٢٢٣ موقوفًا من كلام ابن مسعود كما هنا، ومرفوعًا من كلام رسول الله ﷺ قال ابن القيم فى إغاثة اللهفان ١/٢٦٦، وفى رفعه نظر والموقوف أصح.

(٢) ذكره فى التفسير الصحيح ٤/٩١ وعزاه لعبد الرزاق بسنده الصحيح. قلت: هو فى تفسير عبد الرزاق ٢/٨٧ لكن ليس بنص ما هنا.

(٣) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/٢٢٤.

(٤) مجموع رسائل ابن رجب ص٤٥٨ عن ابن أبى الدنيا.

(٥) ابن أبى الدنيا.

ويتسبب فيه.

وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ من أهل الورع والصلاح، لم يكن فى بنى أمية مثله ومثل عمر بن عبد العزيز، توفى ١٢٦هـ ـ: يا بنى أمية، إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُّكْرُ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنى[١].

وقال ابن قيم الجوزية: كم من حرة صارت بالغناء من البغايا. وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا. وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا. وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا. وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا. وكم أهدى للمشغوف به من أشجان وأحزان، فلم يجد بُدًّا من قبول تلك الهدايا. وكم جرّع من غصة، وأزال من نعمة، وجلب من نقمة، وذلك منه من إحدى العطايا. وكم خبأ لأهله من آلام منتظرة، وغموم متوقعة، وهموم مستقبلة[٢].

وقال أيضًا: هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى له فى الشرع بضعة عشر اسمًا: اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء[٣]، والتصدية[٤]، ورقية الزنى، وقرآن الشيطان[٥]، ومنبت النفاق فى القلب، والصوت

---

(١) ابن أبى الدنيا.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٦٥.

(٣) الصفير.

(٤) التصفيق.

(٥) جاء فى حديث عن رسول الله ﷺ أن إبليس لما أهبطه الله إلى الأرض سأل الله عدة أشياء منها: اجعل لى قرآنًا، قال: الشعر.

الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود[١].

وبعد أن استدل على كل منها بآيات وأحاديث وآثار قال: فهذه أربعة عشر اسمًا سوى اسم الغناء[٢].

وواضح مما سبق أن:

الغناء الحرام:

هو الذى يكون بتمطيط وتكسر وتهيج، وهذا ذنب عظيم، وذنب آخر فيه وهو أن تقوم به امرأة أمام رجال، وذنب ثالث وهو أن يكون الكلام مثيرًا، وذنب رابع وذلك بأن تكون معه أجهزة الموسيقى، أما إذا رقصت المغنية فهذا ذنب أعظم.

وهذا النوع بإجماع العلماء حرام، بل إنه عدد من الكبائر، ويؤدى إلى النفاق والزنا والخمر. وفى الحديث الذى نحن بصدد شرحه أنه تنزل العقوبة على من فعله، يخسف الله بهم الأرض، ويجعلهم قردة وخنازير، ويعتلون فكريًا، ويضيع صفو الحياة، حتى يتكدر الهواء بالأتربة. وربما قذفوا بأحجار يحملها الهواء!!.

إن هذا النوع من الغناء يشغل أصحابه عن طاعة الله، ويوقعهم فى المعاصى، إنهم يختلفون تمامًا عمن انشغلوا بقراءة القرآن، وذكر الله سبحانه، والصلاة والخشوع فيها.

يقول الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣].

---

(١) السمود: الغناء كما تقدم.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٧٦.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٢١.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لست من دَدٍ ولا دَدٌ منى»[1] و«الدَّدُ» اللهو واللعب.

ولقد ذكر ابن خلدون فى مواطن كثيرة من مقدمته أن الترف والاشتغال بالغناء يعتبران من أسباب انهيار كيان الدولة[2].

إن ما سبق ذكره عن الغناء والملاهى، إنما هو عنها يوم أن كانت بقليل من التمطيط والآلات أما فى زماننا ـ القرن الخامس عشر الهجرى، الحادى والعشرين الميلادى ـ فقد زاد شر الغناء والمعازف:

* فغنت الحرة، واعتُبِر الغناء عملاً راقيًا!؟

* وبولغ فى زينة المغنية، ما بين ملابس قصيرة وشفافة وزاهية، وكشفت عن مفاتنها.

* واختلط النساء بالرجال، الكل يغنى.

* والكل يضرب الموسيقى، بكل آلاتها وأجهزتها.

* وغالت المرأة فى التمطيط والتكسر وبالغت فى الإثارة.

* ورقصت المرأة أمام الرجال.

* وتمايلت المرأة والرجل بكلمات الحب والعشق، والخلوة والهيام.

* وقلّد الكثيرات من النساء هذه الفئة من المغنيات، جعلوهن مثلهن الأعلى!!

وبهذا لا أستطيع أن أسمى هذا الذى يحدث «غناء» أو «فن» وإنما هو مجون وخلاعة، حتى إن بعض الفنانين أصبح ينتقد هذا، ويعتبره إباحية لا فنًّا.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى ١٠/٢١٧، وراجع كنز العمال ١٥/٢١٩.
(٢) راجع ص٤٠١، ٤٤١.

أما حكمه الشرعى فهو من أبشع المنكرات، وهو ذنوب قد رُكبت فى بعضها، وجاءت النصوص ببيان شؤمها، عمل الكفار والمنافقون على إشاعتها فى الأمة، وسكت الصالحون عن مقاومتها، فشاعت، وبدأت العقوبات تحل.

إن الدول اهتمت بالغناء والموسيقى وكأنهما عصب الحياة، وكأنهما أمر أساسى فأقامت لذلك أفخم المبانى، واستُوردت الأجهزة لنقل هذا اللهو عبر الإذاعات والتليفزيونات، وجاءت إذاعات وقنوات فضائية من الخارج وكأن هذا اللهو أمر ضرورى للحياة.

لقد أسرف الناس فى تعريف الفن وقدره، فراحوا يعتبرونه:

كل شىء فى الحياة!!

* ويرون الفنان إنما هو خالق ومبدع!!

* واعتقد بعضهم أن الفنان نصف إله!!

* ويرون الفنان يكمل ما نقص فى الطبيعة!!

* والفن يكشف مواطن الجمال فى الطبيعة التى عجزت اليد العليا أن تكشفها.

وواضح أن هذا ليس من الصواب فى شىء، بل إنه الكفر فى أخس صوره، والانحراف فى الرأى فى أسوئه، فالفن ليس كل شىء فى الحياة، حتى ولو عممناه، فلو جعلنا كل عمل فنًا، فالزراعة فن والخياطة فن... إلخ فعلى الرغم من أن الفن ليس بهذا العموم، إلا أنه حتى لو عمم فليس هو كل شىء فى الحياة، فالحياة مخلوقات إلهية أرض وسماء، ومياه وهواء.

والفنان ليس خالقًا، فلا خالق إلا الله.

والفنان ليس نصف إله، فالإله لا يتجزأ إلا إن كان كذبًا كالأصنام والأوثان.

والفنان لا يوجد شيئًا عجز الخالق عنه، فكل ما فى الكون خلق الله، والفنان مخلوق الله، والله هو القادر على كل شىء.

إن تعريف الفن بهذه الكلمات وإعطاء الفنان هذا القدر إنما هو الهذيان الفكرى والضلال البشرى.

وعشاق الفن يدَّعون أنهم يزرعون البسمة على شفاه الناس، متجاهلين أن ما قد يظهر فليس سعادة حقيقية، وأن الإنسان أعمق من أن تسعده حركة بهلوانية أو هستيرية، إن الضحك قد يكون من جنون المجانين أو من عبث العابثين، وهذا بعيد عن السعادة.

إن حقيقة الأمر أن مؤامرات الأمم الأخرى على أمة الإسلام قد دُسَّت فى ثوب ماكر أطلق عليه اسم الفن، حورب به الإسلام فى كثير من عقائده وأحكامه. ومن فضل الله على الأمة أن الإسلام حذرنا هذه الأشياء فليتنا نستفيد.

الغناء الحلال:

أما الغناء الحلال فهو الذى يؤدى أمرًا ساميًا، ومعنى مشروعًا، من ذلك:

- غناء النساء لأطفالهن، بكلمات طيبة منها ما هو دعاء، وما هو رجاء.
- غناء العمال بما يُرَفِّه عنهم، بكلمات طيبة، إما دعاء، وإما لحفز الهمم.
- غناء المسافرين بما ينشط إبلهم، أو يُسَرِّى عن أشخاصهم.

ـ غناء المناسبات السعيدة كالأعياد ـ الفطر والأضحى ـ والعرس وقدوم الغائب.

ـ الغناء الدينى كالأشعار المزهدة فى الدنيا، والمرغبة فى الآخرة.

هذه الأغانى ونحوها مما هو كلام موزون، يقوله الصبية أو الكبار دون تمطيط أو تكسر أو تهيج. وإن كان معه شىء من الآلات فإنما هو الدف أو الطبل، على أن يكون الكلام والآلة ليس من كلام محترفى الغناء ولا من آلاتهم.

وأذكر النصوص التى تحدد القدر المباح من الغناء:

إباحة الشعر:

* فعن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة»[1]. وهذا يفيد أن الكلام الموزون إذا صحت معانيه فهو حلال.

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه: قال النبى ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطلُ ....»[2]

* وعن المقدام بن شريح عن أبيه قلت لعائشة رضى الله عنها: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر؟ فقالت: كان يتمثل بشىء من شعر عبد الله بن رواحة:

* ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّد[3] *

---

(١) أخرجه البخارى ١٠/٥٣٧ رقم ٦١٤٥.

(٢) أخرجه البخارى فى الموضع السابق رقم ٦١٤٧.

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ٣/١٣ رقم ٨١٧ والترمذى وصححه وغيرهما.

والمعنى: أنه قد يأتيك الخبر بلا نفقة؛ إذ يشيع فيصل إليك.

وهكذا فإنشاد الشعر إن كان ترديدًا لحكمة فهو جائز، وقد يكون مستحبًا.

لكن على أن لا يكثر الشعر ولا يشغل الإنسان عن ذكر الله والعلم والقرآن، دل على ذلك:

* حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا»[1].

إباحة الحُدَاء:

* وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسمعنا من هُنَيْهاتك؟ قال: وكان عامر رجلاً شاعرًا، فنزل يحدو بالقول يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصـــدقنا ولا صلينا

فاغفر فـداءٌ لك ما اقتفينا ... وثبت الأقـــدام إن لاقينا

وألقيـن سكينـــة علينا ... إنـا إذا صيـح بنـــا أتينا

وبالصبـــاح عـولوا علينـا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. فقال: يرحمه الله. فقال رجل من القوم: وجبت يا نبى الله، لولا أمتعتنا به[2].

ولقد استنبط العلماء من هذه النصوص جواز الغناء بالكلام الموزون

(١) أخرجه البخارى ١٠/٥٤٨ رقم ٦١٥٤.
(٢) أخرجه البخارى رقم ٦١٤٨.

(الشعر) على أن لا يكون منه تمطيط أو تكسر، أو فى كلماته إثارة. سواء كان تسلية لمسافرين، أو للدواب، ويقاس على ذلك غناء النسوة للصغار، والعمال فى العمل.

غناء العرس:

* عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبى الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[1].

وفى رواية «فهل بعثتم معها بجارية تضرب بالدف وتغنى» قالت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتينـــاكم أتينـــاكـم فحيـــونا نحييكـم
لولا الذهـب الأحمر مـــا حلـت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء مـــا سمنت عذاريكم[2]

ومن هذا يتضح أنه يجوز الغناء فى الأفراح، تغنى الصبيات البريئات بدف لا جلاجل فيه، كما هو شأن دفوف العرب على عهد رسول الله ﷺ، وكلمات الأغنية موزونة عفيفة، والغناء للصغار والنساء، وإذا سمعه الرجال فلا بأس.

* ولقد كان خالد بن معدان ـ من أعيان التابعين ـ يأمر بناته ونساءه إذا ضربن بالدفوف أن يتغنين بذكر الله عز وجل[3].

---

(١) أخرجه البخارى ٩/ ٢٢٥ رقم ٥١٦٢.
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٩/ ٣١٥ رقم ٣٢٦٥ قال فى المجمع ٨/ ٢٨٩: وفيه رواد بن الجراح وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وفيه ضعف.
(٣) مجموع رسائل ابن رجب ج٢ ص٤٥٤.

غناء الأعياد:

والغناء المتقدم ـ الذى تتكلم به الفتيات اللاتى لم يتخذن الغناء مهنة لهن، ويتغنين بكلمات طيبة ـ هذا الغناء يجوز فى الأعياد، أى يوم عيد الفطر، ويوم عيد الأضحى:

* فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «دخل علىّ رسول الله ﷺ وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعَاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزمارة الشيطان عند النبى ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا»[1].

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث، قالت: وليستا بمغنيتين. فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك فى يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا»[2].

هذا الحديث يستدل به البعض من أهل زماننا على جواز الغناء مطلقًا، وليس كذلك، فالحديث فيه عدة شروط لجواز الغناء وهى:

١ـ الغناء صادر من جاريتين، أى فى سن الصبا، ودون البلوغ.

٢ـ كلمات الغناء ما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، وبعاث اسم لمعركة حدثت بين الأوس والخزرج قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأثناء المعركة قال كل فريق أشعاراً يمدح نفسه بها، فكانت الجاريتان ترددان هذا

---

(١) أخرجه البخارى فى العيدين باب الحِرَاب والدَّرَق يوم العيد ٢/ ٢٤٠ رقم ٩٤٩.

(٢) أخرجه البخارى فى العيدين باب سنة العيدين لأهل الإسلام ٢/ ٤٤٥ رقم ٩٥٢ وأخرجهما مسلم فى العيدين باب الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه فى أيام العيد ٢/ ٦٠٧ رقم ٨٩٢.

الشعر الذى فى الفخر بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكريمة.

٣ـ هاتان الجاريتان وصفتهما السيدة عائشة بقولها «وليستا بمغنيتين» أى أنهما كانتا ترفعان أصواتهما بالكلام الموزون، فهما بذلك تغنيان، لكنهما ليستا بمغنيتين أى ليستا ممن ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق بما فيه تصريح بالفواحش أو تعريض.

إن أم المؤمنين بقولها هذه الجملة «وليستا بمغنيتين» تحترز عن غناء المشتهرات بالغناء، فهذا لا يُختلف فى تحريمه.

٤ـ إن هذا الغناء كان يوم عيد، والأعياد فى الإسلام يوم الفطر ويوم الأضحى، ويجوز فيهما قدر من اللهو يقوم به الصبية، بخلاف غير أيام العيدين.

٥ـ وصف أبو بكر هذا الغناء بأنه «مزامير الشيطان» ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ ذلك، فدل على أن هذا العمل محرم، وأنه يلهى عن ذكر الله، وأنه من فعل الشيطان، وإنما تركهم رسول الله ﷺ لأنه كان يوم عيد.

٦ـ لما دخل رسول الله ﷺ على عائشة والجاريتين اضطجع على الفراش وحول وجهه، فدل ذلك على إعراضه ﷺ عن ذلك، وأنه خلاف الأولى، ولا يليق بمقامه ﷺ.

٧ـ علل ﷺ سكوته عن ذلك بأن هذا يوم عيد فيتوسع فيه بعض الشىء، وبالتالى فيجوز هذا القدر.

٨ـ أحست عائشة بثقل الحال على والدها وأن ذلك خلاف الأولى فغمزت الجاريتين فخرجتا من منزلها.

٩ـ لم يكن مع الجاريتين سوى الدف، كما فى رواية مسلم «تغنيان

بدف» وهو عند الغرب بدون جلاجل، أما الذى فيه جلاجل فيسمى «المزهر» وعليه فيجوز هذا فقط، أما أجهزة اللهو الأخرى فلا يفيد الحديث حلها.

بين الجدّ واللعب:

إن الإسلام يبيح قدراً محدوداً من الغناء، يحقق الغاية ولا يتحول إلى عمل ضار.

لقد استطاع الإسلام أن يجعل من الغناء عملاً نافعًا، ينشط العمال فى عملهم، ويسرى عن المسافرين، ويهدئ من روع الطفل الصغير.

كما أنه أباح قدراً من اللعب ينفع ولا يضر، فأباح للرجل أن يلعب مع أولاده ومع زوجته، وهذا يدخل السرور على الأسرة كثيراً، وأباح أن يلعب الرجل بما يصحح جسمه، ويؤهله لظروف الحياة.

فعن عطاء بن أبى رباح قال: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين يرميان، فقال أحدهما لصاحبه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل شيء ليس فيه ذكر الله فهو سهو ولعب إلا أربع: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشيه بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة»[1].

لقد استثنى ﷺ هذه الأشياء من السهو واللعب، فأباحها واستحبها، يُرفِّه بها المسلم عن نفسه وأهله مع عظيم فائدتها.

إن المسلم يلاعب زوجته فيزداد الحب بينهما، وتشيع السعادة فى

(١) أخرجه النسائى فى الكبرى ٨/١٧٦ رقم ٨٨٩٠ وذكره فى مجمع الزوائد ٥/٢٦٩ وعزاه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبزار ورجال الطبرانى رجال الصحيح خلا عبد الوهاب بن بُخت وهو ثقة. وخرجه فى نصب الراية ٤/٢٧٣.

الأسرة، وتهدأ النفوس وتسعد، وكذلك يلاعب أولاده ـ فقد جاء فى حديث عقبة بن عامر «ملاعبة الرجل أهله»[١] ـ فيبتعد بهم عن الشر والمساوئ. ويسعدهم، ويدرب فرسه فيسعد ويؤهل فرسه للجهاد، ويمشى بين الغرضين أى الهدف الذى يُنصب لتعلم الرمى «إصابة الهدف». وكذلك السباحة. إنها أمور ترفه لكنها فى غاية النفع.

وهذا من عظمة الإسلام، إذ أخذ من الترفيه بقدر، وحرص على الجِدّ والعمل الذى به يسعد الإنسان، وتتقدم الحياة.

إن الذين يُعلون من قدر اللهو واللعب، وأن ذلك يشفى من الأمراض هؤلاء مردود عليهم شرعًا وعقلاً:

أما شرعًا: فإخبار رسول الله ﷺ أن الله سبحانه لم يجعل فى مُحرم شفاء. فعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»[٢].

وأما عقلاً: فإن أصل الموسيقى ما نسمعه فى الكون من أصوات رقيقة تُسعد، كصوت العصفور، وخرير الماء. راح الإنسان يحكى ذلك بالأجهزة، وتعددت الأجهزة وكثرت، تحدث أصواتًا تدق أذن السامع، ثم تنتقل إلى مشاعره وعواطفه، فتشكل صراعًا مع تلك المشاعر، فإما أن تستجيب المشاعر فتنسجم، وإما أن تبقى فى صراعها فتتضجر من تلك الأصوات، ولذلك فقد يطرب سامع لصوت موسيقى معين، ويتضجر منه آخر ويقلق.

وأفلاطون كان يرى أن الموسيقى الرديئة يمكن أن تبعث فى النفس

(١) أخرجه الآجرى فى تحريم النرد ص٤٣ رقم ١.
(٢) أخرجه البيهقى ١٠/٥.

أحوالاً فاسدة تساعد على تكوين شخصية شريرة.

والفارابى - إمام الموسيقى - حضر مجلسًا حافلاً لبعض الملوك والرؤساء، فأخرج آلة صغيرة من داخل ثوبه وضرب عليها فضحكوا إلى أن خشى عليهم الهلاك، ثم غيّر الضرب فبكوا كذلك، ثم غيره فناموا عن آخرهم، فتركهم وذهب عنهم.

إن هذه الآلة الصغيرة مع خبرة الفارابى قد أحدثت كل هذه الآثار القوية، مما يخيف من الموسيقى.

ولقد قويت الأجهزة وتعددت مما يُرعب القائمين على الموسيقى لما تحدثه من آثار نفسية سلبية.

كنا نود أن يظل صوت العصفور وحده، برقته وندرته، لكن صنعت الموسيقى، فكثرت وزادت، وما زاد عن حده انقلب إلى ضده.

وهكذا فليست الموسيقى واللهو واللعب شفاء. وإنما الجد والسعى فى النافع هو الخير والهناء. ولنأخذ من الترفيه بقدر، كما تقدم فى الغناء الحلال، وكما فى السنة من المزاح الحلال[1].

٢- وشرب الخمر:

التى يُسكر كثيرها فقليلها حرام. الخمر التى تشمل كل أنواع المسكرات. الخمر التى قال فيها ربنا سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2].

(١) راجع قضايا اللهو والترفيه ص١٠٩.
(٢) سورة المائدة، آية: ٩٠، ٩١.

الخمر التى قال فيها رسول الله ﷺ: «اجتنبوا أم الخبائث»(١).

وقال فيها «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر»(٢).

الخمر التى هى أعظم الكبائر، بها يرتكب المرء أفظع المنكرات.

٤ـ وقطيعة الرحم:

والتى هى القرابة، فأرحام الإنسان أقاربه مهما بَعُدت القرابة، وعليه أن يصلهم بالزيارة والمودة ما استطاع، سواء وصلوه أم لم يصلوه.

إن الله سبحانه أمرنا بصلة الرحم، فقال سبحانه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٤).

وحذرنا سبحانه وتعالى قطيعة الرحم فقال ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٥).

وفيها قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك. ثم قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن

(١) أخرجه ابن حبان ٧/٣٦٧.

(٢) أخرجه الحاكم ٤/١٤٥ وصححه.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، آية: ١.

(٥) سورة محمد، آية: ٢٢ ـ ٢٤.

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»[1].

٥- ولبس الحرير للرجال:

والمراد بالحرير حرير الدودة، وهذا لا يحل للرجال، فإنه من النعومة بما لا يتفق مع الجدية المطلوبة فى الرجل. حرير الدودة هو الذى جاءت النصوص بتحريمه، أما ما حَسُنَ من الأقمشة الأخرى فإنه ليس بحرام، على أن يكون فى حدود الشرع، فما رقّ بحيث يصف لا يجوز وكذلك ما يشف، وأيضًا ثوب الشهرة، أو التشبه بالكفار. إن ملابس الحرير للرجال لا تحل إلا لضرورة، كمن به مرض جلدى. أما لغير ضرورة فإنها لا تحل.

فعن حذيفة رضى الله عنه قال: «نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه»[2].

وعن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»[3] قال ابن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة، وذلك لقوله تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[4].

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى، وأُحل لإناثهم»[5].

---

(١) أخرجه البخارى ١٣/ ٤٦٥ رقم ٧٥٠٢ ومسلم فى البر ٤/ ١٩٨٠ رقم ١٦/ ٢٥٥٤ كلاهما عن أبى هريرة واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخارى ١٠/ ٢٩١ رقم ٥٨٣٧.

(٣) أخرجه البخارى ١٠/ ٢٨٤ رقم ٥٨٣٣.

(٤) هذا الموقوف ذكره فى الفتح فى شرح الحديث السابق وعزاه للنسائى والإسماعيلى.

(٥) أخرجه النسائى والترمذى وقال: حسن صحيح. جامع الأصول ١٠/ ٦٧٨.

٦- وأكل الربا:

هذا الذى حرَّمه الله وحذَّر منه، ولقد ظهرت صور للتعاملات المالية ليست على النهج الإسلامى، مما أوقع الكثيرين فى الربا والكسب الحرام، والإسلام يحذر من ذلك كثيراً:

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾[2].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[3].

وعن جابر بن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء[4].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا فى

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩، ٣٠.

(٤) أخرجه مسلم فى المساقاة باب لعن آكل الربا وموكله ٣/١٢١٩.

قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[١].

وواضح من هذه النصوص تحريم الربا وكل الكسب الحرام، وأنهما من الكبائر بمكان، وأن فاعلهما يُعرض نفسه للعقوبة، حتى قال ابن عباس: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٢].

ويقول عمر بن الخطاب: لا يبع فى سوقنا إلا من تفقه فى الدين[٣].

• التوفيق بين الأحاديث:

أحاديث الباب ـ حديث عمران بن الحصين الذى صدرت به الباب[٤]. وحديث أبى أمامة الذى أوردته أثناء الشرح فى تعديد العقوبات وفيه عقوبة الريح العقيم[٥] وغيرها[٦]. هذه الأحاديث تفيد أن الخسف والرجم والمسخ والريح العقيم عقوبات يرسلها الله على العصاة، وقد سبق فى حديث خباب أن رسول الله ﷺ سأل الله أن لا يهلك هذه الأمة بما أهلك به الأمم قبلنا، وأخبرنا أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعوته[٧]، ومن العقوبات التى أهلكت الأمم السابقة هذه العقوبات المذكورة فى أحاديث الباب.

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٣٧، وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية ٢٧٩ من سورة البقرة، وهو عند ابن المنذر وابن أبى حاتم وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه الترمذى فى آخر الوتر ٢/ ٦١٢ تحفة الأحوذى. وراجع باب الإخبار عن شيوع الربا من هذا الكتاب ج١ ص٣٠٣.

(٤) ص٣٢٤.

(٥) ص٣٣٥.

(٦) ص٣٤٠، ٣٤١.

(٧) تقدم حديث خباب بن الأرتّ فى باب الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بما أهلكت به الأمم السابقة ج٢ ص٢٥٨.

فقارون خسف به، وأصحاب الفيل وقوم لوط أهلكوا بالرجم، ومن اليهود من مسخوا قردة وخنازير، وبالريح العقيم أهلكت عاد قوم هود.

ولا تعارض بين أحاديث الباب وأحاديث سؤال السلامة، ذلك أن أحاديث الباب قد تقع على العصاة، بل وعلى عصاة معينين ألا وهم شربة الخمر وعشاق الغناء والطرب، أما أحاديث سؤال السلامة فهذا بالنسبة للأمة كلها، فلا تباد بخسف كلها، ولا تُدَمَّر بالرجم أو الريح جميعها، ولا تشوه أو تبدل بالمسخ بأسرها، لا يحدث هذا من فضل الله وكرمه، دعا رسول الله للأمة بالسلامة من ذلك واستجاب الله الكريم دعاء نبيه ﷺ، وأخبرنا رسول الله ﷺ باستجابة الله سبحانه وتعالى دعاءه. وعند شرح أحاديث السلامة هذه بينت هناك أن هذه الدعوات للأمة كلها، ولا يمنع هذا أن يحدث البلاء لفرد أو مجموعة من الأمة.

● وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الأمة الإسلامية ملتزمة بكتاب ربها وسنة نبيها، فتشملها عناية الله ورعايته، كانت تبتعد عن المعاصى كل البعد، وتجتهد فى الطاعات كل الاجتهاد، يخافون الذنب كل الخوف، ويعظمون الطاعة كل الإعظام، فى هذا الوقت، وقت النبوة الطاهر، والصحبة الخيرة، فى هذا الوقت يخبر رسول الله ﷺ بأمرين غير متوقعين:

● يخبر أنه سترفع عناية الله عن بعض الأمة، وسيحل بهم عقابه سبحانه:

* فتنخسف منطقة من الأرض بمن عليها، مرة هنا ومرة هناك، وتتزلزل الأرض وتضطرب!!

وأحيانًا تُرْسَل الأتربة والأحجار على بعض البلدان تؤذيهم وتمرضهم.

* وبعض الناس يمسخون بتغير خلقتهم إلى الأسوأ، فتزول الملاحة والجمال، وتصبح الأشكال غريبة، وربما مسخ البعض قردة وخنازير، ويمسخ البعض معنويًا فتصبح العقول ضعيفة، والفطر معكوسة.

* وترسل الريح العقيم على البعض تدمر وتهلك.

● ويتساءل الناس معه ﷺ: متى ذلك يا رسول الله؟

أنهلك وفينا الصالحون؟

ورسول الله ﷺ يبين أن ذلك سيحدث حينما تشيع الذنوب وتكثر المعاصى!!

يبين ﷺ أن الأمة ستنحدر كثيراً، وتظهر فيها الموبقات:

*** فيظهر فيها المغنيات اللاتى اتخذن الغناء عملاً لهن، وتفنَّنَّ فى الإثارة وتهييج الغرائز، مغنيات عملهن الوقوف بين الرجال يرددن كلمات ماجنة بحركات خليعة.**

*** ويظهر فى الأمة أجهزة الطرب والموسيقى، يقوم عليها أناس تخصصوا فى استعمالها، وأتقنوا أصواتها وأنغامها، حتى جعلوها تتحكم فى حس المستمع، تتمايل المغنية معها وتطرب، تهتز مع النشوى، وهذا وسط الرجال، وأمام الناس!! أما المستمعون فجعلتهم هذه الموسيقى فى حال طرب وميوعة وخلاعة!!**

*** وتظهر فى الأمة المخدرات تلك التى هى مصدر كل انحلال، وسبب كل كارثة.**

إنه ﷺ يبين أن العقوبات من خسف وقذف... إنما ستحدث عند ضعف الدين فى نفوس الناس، فيبتعد الناس عن الطاعات!! الطاعات

التى هى سعادة نفسية واستقرار، يبتعد المرء عن بر الوالدين، وصلة الرحم، لا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم. وينطلقون فى المعاصى، يأكلون الربا وغيره من الحرام، ويلبس المرء الحرير يعصى بذلك الله سبحانه، ويحرص على الترف واللذة!!

إنه ﷺ يخبر عن العقوبة: خسف وقذف ورجم!! ويبين السبب: «مجالس» حول ميوعة النساء، ونغمات الموسيقى، وتعاطى المخدرات، معاصٍ تؤدى إلى الهلاك والدمار فى الدنيا، ونار جهنم فى الآخرة.

لقد أخبر ﷺ عن أمور ستحدث، كانت غير متوقعة، فلا العقوبات متوقعة، ولا الذنوب التى هى سبب فيها متوقعة، أخبر ﷺ عن حدوث الأمرين الذنوب والعقوبات فتحقق ما أخبر به ﷺ، فظهرت الذنوب فى الأمة وشاعت:

فظهرت «القينات» أى المغنيات، ومعهن المعازف «الموسيقى» واقترن بذلك المخدرات، ظهرت وشاعت وسكت الناس عنها العامة والخاصة، سكت الذى يستطيع أن يُقوم العامة من الوجهاء وأصحاب النفوذ، وسكت الذى يستطيع أن يُقوم أهله، وزاد الأمر فظهر من يدعو لهذه الفظائع، ظهر من يدعو لهذه الذنوب.

وبدأت العقوبات تظهر:

فزلزال فى دولة كذا[1]، وخسف فى دولة كذا[2].

(١) كثر فى زماننا فى أواخر القرن الربع عشر الهجرى وأوائل الخامس عشر، وأواخر القرن العشرين وأوائل الحادى العشرين وقوع الزلازل، ومنذ سنوات حدث زلزال فى القاهرة عاصمة مصر أخرج الناس من البيوت ولا مغيث لهم إلا الله، خرج النساء بملابس لا تليق بالخروج، وخرج المريض، وأبصر أعمى حينما ترك فى عمارة تضطرب به، ولا من يصحبه.

(٢) فى عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ حدث زلزال وخسف فى أندونيسيا لم يسبق له مثيل فى العالم، =

* ومسخٌ لخِلْقة الناس الحسية والمعنوية، فراح الجمال وشوهت الأشكال من كثيرين!! واضطربت الأعصاب واختل الفكر من كثيرين!! والأمر فى ازدياد!! فبشؤم المعاصى سُلط البعض على البعض، فالمزارعون يجتهدون فى إضافة الكيماويات والهرمونات مما يمسخ خلقة الناس، والبيطريون يغذون البهائم والدواجن أغذية غير سليمة،

= اختفت مناطق من الأرض، وقتل الآلاف، ودمرت أشياء كثيرة. وقبله خسف فى تركيا وزلزال فى إيران، نسأل الله العافية من العقوبات، ونتوب إليه من السيئات.

وهذه نماذج من الزلازل والخسف:

* فى نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٩٩: زلزال بتركيا يقتل أكثر من أربعمائة وخمسين (٤٥٠) شخصًا.
* فى أغسطس/ آب ١٩٩٩: زلزال بتركيا يتسبب فى عشرات الآلاف من القتلى والجرحى.
* فى مايو/ أيار ١٩٩٨: زلزال فى أفغانستان يقتل أربعة آلاف شخص.
* فى فبراير/ شباط ١٩٩٧: زلزال فى أكثر من منطقة فى إيران يقتل ألفين وخمسمائة شخص.
* فى سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣: زلزال يؤدى إلى مقتل نحو اثنين وعشرين ألفًا فى الهند.
* فى أكتوبر/ تشرين أول ١٩٩٢: زلزال يؤدى لمقتل ثلاثمائة وسبعين وإصابة أكثر من ثلاثة آلاف شخص فى مصر.
* فى عام ١٩٩٠ مقتل أكثر من أربعين ألف شخص فى منطقة غيلان شمال إيران.
* فى ديسمبر/ كانون أول ١٩٨٨: زلزال يقتل خمسة وعشرين ألف شخص فى أرمينيا.
* فى ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣ حدث زلزال فى الجزائر أودى بحياة أكثر من ألفى قتيل (٢٠٠٠ قتيل).
* فى ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٣ حدث زلزال، وخسف بمدينة [بام] التاريخية بإيران، ودمر المدينة، وراح فيه ٢٨ ألف قتيل و٣٠ ألف مصاب.
* فى ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٤ حدث زلزال وخسف وفيضانات فى ثمانى دول فى جنوب شرق آسيا هى: أندونيسيا، وتايلاند، وسريلانكا، والهند، وماليزيا، وبنجلاديش، وميانمار. بلغ إجمالى عدد القتلى أكثر من ٢١٢ ألفًا، وآلاف فى عداد المفقودين، وتدمير الكثير من المدن والقرى والمرافق، وبلغ عدد المشردين أكثر من مليون، أطلق على هذا الزلزال اسم «تسونامى».
* فى ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٥م حدث زلزال فى إيران راح ضحيته خمسمائة قتيل.
* فى ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٥م حدث زلزال فى المغرب راح ضحيته ستمائة قتيل.
* فى ١٩٦٠: أقوى زلزال، أزال عن وجه الأرض قرى بكاملها، وقتل الآلاف من البشر فى تشيلى.

والصيدليون يقدمون المنشطات، والأعداء يرسلون السموم فى ثوب مخدرات، وتبادلت الأمم المتالف بأساليب علمية، وكل ذلك مسخ جَرَّتْهُ الذنوب.

* ورَجْمٌ يرمى على الناس، يحمل الهواء الأتربة والأحجار، تُضايق الناس وتؤدى إلى الأمراض!! ولقد عشت يومًا من هذه، حينما أرسلت الأتربة على القاهرة وكان اليوم «جمعة» أظلمت الدنيا وملأها التراب حتى ظن الناس أنها يوم القيامة. وعشت من ذلك يومًا آخر فى الرياض ملأ التراب - والذى يسمونه «العجاج» - الأجواء، وخنق الناس، وفى اليومين هذين دخل التراب أحكم الأمكنة، كغرف عمليات المستشفيات، واستديوهات وسائل الإعلام!! وفى كثير من الأيام يحمل الهواء الأتربة، والكثبان الرملية، والعواصف الثلجية.

تحقق ما أخبر به ﷺ من الذنوب، ومن العقوبات التى أخبر ﷺ بترتبها عليها، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، ودليل صدقه وثبوت سنته ﷺ.

• الدروس المستفادة:

١- المعاصى شؤم أيما شؤم، بها ينزل البلاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

٢- هناك ذنوب لها عقوباتها المحددة فى الدنيا، فالغناء والموسيقى والمخدرات ذنوب يترتب عليها انخساف فى الأرض، ومسخ لخلقة البعض، ونزول الأحجار على الناس.

٣- من العقوبات التى تترتب على الذنوب مسخ خلقة بعض الناس، فيزول جمالهم، وتشوه أشكالهم، وتعتل أفكارهم، وقد يتحولون قردة أو خنازير. أما الطاعات فتورث جمال المظهر والمخبر.

٤ـ النعم تتحول بالمعاصى إلى نقم، فالأرض الذلول الممهدة المستقرة يحولها الله بشؤم المعاصى إلى مضطربة تنخسف فتبتلع العباد والبلاد، والهواء الذى هو عصب الحياة، الرقيق النسمات يحوله الله بشؤم الذنوب إلى قوة مدمرة، ترمى بالأحجار أو تدمر العمار.

٥ـ شفقته ﷺ على الأمة، يحذرها المخاطر ويبين لها سبيل السلامة والسعادة.

٦ـ هذا الحديث علم من أعلام نبوته ﷺ، ودليل على صدق رسالته إذ أخبر بالأمر فتحقق كما أخبر من ناحيتيه، فأخبر أن عقوبات ستحدث فحدثت، وبين أنها ستحدث بسبب كذا، فحدث السبب.

٧ـ هذا الحديث دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها، إذ جاء هذا الحديث فيها وأثبتت الأيام صدقه بكامله مما يدل على صحتها وثبوتها.

٨ـ فطانة الصحابة ودقة فهمهم الإسلام، يتضح ذلك من سؤالهم: إذ كيف ينزل البلاء وقد ضمن الله السلامة لأوليائه؟ فبين لهم ﷺ أن البلاء إنما سيقع عند شيوع الذنوب.

٩ـ على الأمة أن تستفيد بهذه الأحاديث فتحذر الذنوب، تتواصى بذلك وتجتهد فيه، على الصالحين أن يأخذوا بيد الآخرين إلى الاستقامة كى يرضى عنا ربنا ويسلمنا ويحفظنا.

١٠ـ كثر فى زماننا الغناء والملاهى، وزاد اللهو واللعب، وأعدت لذلك أجهزة فزاد وفاض، ونسى الناس أن هذا حرام شرعًا، ومرفوض عقلاً، ومطلوب أن نتتبه لنخرج من دائرة المعاصى هذه التى تجلب غضب الله وعقابه. نسأل الله العفو والعافية.

* * *

الإخبار عن وجود الأخيار فى كل زمان

عن أَبِى عِنَبَةَ الخَوْلَانِىِّ - وكان قد صلَّى القبلتين مع رسول الله ﷺ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزالُ اللهُ يغرِسُ فى هذا الدين غرْسًا يستعملهم فى طاعته»[1].

● **المعانى:**

«**وكان قد صلى القبلتين**» أى كان أبو عنبة راوى الحديث صلى إلى اتجاه بيت المقدس، وصلى إلى الكعبة المشرفة بعد تحويل القبلة.

«**لا يزال الله يغرس**» لا يزال: يظل ويستمر. زال أصلها ذهب. دخل عليها النفى فصار المعنى: لا يذهب أى يظل ويستمر. وأصل «غرس» وضع الشجر فى الأرض لينمو ويثمر. واستعمل هنا فى تهيئة الظروف للناس.

وعليه فالمعنى: إن الله سبحانه وتعالى دائم التوفيق للناس أن يتمسكوا بالإسلام، ورحمته سبحانه نازلة، فأهل الخير ينتفعون بهذا التوفيق فيطيعون الله ويبتعدون عن المعاصى، أما الأشرار فاندفاعهم الشديد فى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى أول المقدمة باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ١/ ٥ رقم ٨ وذكره البوصيرى فى أول كتابه مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ١/ ٤٥ وقال: هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات. وأخرجه ابن حبان فى كتاب البر والإحسان باب الإخبار عن استعمال الله جل وعلا أهل الطاعة بطاعته ٢/ ٣٢ رقم ٣٢٦. وأخرجه أحمد ٢٩/ ٣٢٥ رقم ١٧٧٨٧ وقال محققه: إسناده حسن. وأخرجه المزى فى ترجمة أبى عنبة ٣٤/ ١٥٢ بإسناده عاليًا من طريق الطبرانى. وأخرجه أيضًا فى ترجمة تلميذه بكر بن زرعة من طريق أحمد بن حنبل ٤/ ٢١٢. وأخرجه الدولابى فى الكنى فى ترجمة أبى عنبة الخولانى ص٤٦.

الشر يجعلهم لا يقبلون هذا التوفيق ولا ينتفعون به، وإنما ينساقون مع الأبالسة والنفس والهوى.

إن الله تبارك وتعالى يقوى هذا الدين فى كل زمان بتوفيق بعض أهله من محبى الخير، ومن طلاب الإسلام يوفقهم لنصرة هذا الدين.

«يستعملهم فى طاعته» يعرفون الإسلام معرفة صحيحة كاملة، وينصرونه بإشاعته والعمل به، ويعبدون الله وفق ما شرع لهم فى كتابه وسنة نبيه.

● **راوى الحديث:**

أبو عنبة الخولانى: صحابى مشهور بكنيته هذه «أبو عنبة»، واسمه عبد الله، وقيل: عمارة.

أسلم أبو عنبة على يد معاذ بن جبل فى زمن رسول الله ﷺ، وصلى إلى القبلتين. وسمع من رسول الله ﷺ عدداً من الأحاديث منها الحديث الذى نحن بصدد شرحه. وسمع من عدد من الصحابة، وشهد خطبة عمر بالجابية.

شهد اليرموك، وصاحب معاذ بن جبل، وسكن حمص، وكان أهل حمص يعدونه من كبار التابعين، وينكرون أن تكون له صحبة. قال الحافظ الذهبى: هذا يحمل على إنكارهم الصحبة التامة لا الصحبة العامة.

كان أبو عنبة أعمى.

وله أقوال تدل على قوة فى الدين، منها:

قوله: إن لله آنية فى أرضه. وآنيته فى أرضه قلوب عباده الصالحين،

فأحبها إليه أرحمها وألينها.

وأخرج ابن المبارك بإسناده عنه أنه كان فى مجلس خولان فى المسجد جالسًا فخرج عبد الله بن عبد الملك هاربًا من الطاعون فسأل عنه فقالوا: خرج يتزحزح هاربًا من الطاعون فقال ـ أبو عنبة ـ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كنت أرى أنى أبقى حتى أسمع بمثل هذا، أفلا أخبركم عن خلال كان عليها إخوانكم، أولها: لقاء الله، كان أحب إليهم من الشَّهْد[1]. والثانية: لم يكونوا يخافون عدوًا قلُّوا أو كثروا. والثالثة: لم يكونوا يخافون عَوَزًا من الدنيا، كانوا واثقين بالله أن يرزقهم. والرابعة: إن نزل بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضى الله فيهم ما قضى[2].

مات أبو عنبة سنة ثمانى عشرة ومائة[3].

• شرح الحديث:

الإسلام بين الكمال والنقصان:

الإسلام أكمله الله وأتمه، أوحى نصوصه من قرآن وسنة إلى رسوله ﷺ، وبلغه رسول الله الأمة. فعملت به الأمة تمامًا وكمالاً، إمامهم رسول الله قولاً وعملاً، ومنهجهم القرآن والسنة.

وأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله فى آخر حياته ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[4] إعلامًا للمسلمين

---

(١) عسل النحل.

(٢) الزهد لابن المبارك ص١٨٤، ١٨٥ رقم ٥٢٤.

(٣) مصادر ترجمته: الإصابة ٧/ ٢٩٢ رقم ١٠٣٠٤. تهذيب الكمال ٣٤/ ١٤٩ رقم ٧٥٥٠. سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٣٣ وفيه كثير من مصادر ترجمته. والكنى والأسماء للدولابى ص٤٦، وفيه اسم أبى عنبة عمارة.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣.

بكمال الإسلام وتمام النعمة. وسُرَّ المسلمون بذلك كثيراً، فالحمد لله قد كَمُل الدين، واستطاعوا امتثال أحكامه، فهم والحمد لله مسلمون، فهموا وامتثلوا. أكمل الله الإسلام فلا يحتاجون لغيره أبداً. وأتمه الله فلا يَنْقُصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يَسْخَطُه أبداً[١].

عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: لو علينا معشر يهود نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ نعلم اليوم الذى أنزلت فيه. لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: فقال عمر: فقد علمت اليوم الذى أنزلت فيه، والساعة، وأين رسول الله حين نزلت. نزلت ليلة جَمْع، ونحن مع رسول الله ﷺ بعرفات[٢].

يخبر عمر أن هذه الآية نزلت فى ليلة عيد الأضحى مساء يوم عرفات، ورسول الله يتحرك بالمسلمين من عرفات إلى جَمْع «مزدلفة» فقد نزلت فى عيد الأضحى، وعيد الأضحى عيد لتمام الإسلام وكمال الحج. وعيد الفطر عيد لنزول القرآن وكمال الصيام. وأعيادنا مرتبطة بالقرآن والإسلام.

وعلى الرغم من سعادة المسلمين بكمال الدين إلا أن البعض قد أبكاه ذلك:

* فعن أبى وكيع قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال: يوم الحج الأكبر، قال: فبكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: يا رسول الله، أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل قط شىء إلا نقص، قال: «صدقت»[٣].

(١) أخرجه الطبرى عن ابن عباس ٨/ ٨٠.
(٢) أخرجه مسلم فى أول التفسير ٤/ ٢٣١٢ رقم ٣٠١٧ ـ ٤.
(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه كتاب الزهد ١٣/ ٢٥٠، ٢٥١ رقم ١٦٢٥٥، وأخرجه الطبرى فى تفسير الآية ٨/ ٨١.

أقره رسول الله ﷺ ووافقه، وأن المسلمين سيتساهلون ببعض التكاليف مما به ينقص الإسلام.

* وعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتى تليها، فأولهن نقضا: الحكم، وآخرهن: الصلاة»[1].

وواضح من هذا أن النقص ليس فى أصول الإسلام من آيات وأحاديث، وإنما فى العمل بالإسلام، يزيد ذلك وضوحًا الأحاديث الآتية:

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء».

وفى حديث عبد الله بن عمرو زيادة: «فقيل: مَنِ الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل، من ناس سوء كثير، من يعصاهم أكثر ممن يطيعهم»[2].

وهذا يوضح أن الإسلام يبقى كما أوحاه الله إلى رسوله، يتمسك به البعض ويتفلت الكثيرون، فالقضية فى مخالفة الكثيرين.

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنت يا عبد الله ابن عمرو إذا بقيت فى حثالة من الناس؟» قال: وذاك ما هم يا رسول الله؟ قال: «ذاك إذا مرجت أماناتهم وعهودهم وصاروا هكذا - وشبّك بين أصابعه -» قال: فكيف ترى يا رسول الله؟ قال: «تعمل ما تعرف،

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٥/ ١١١ رقم ٦٧١٥، وأخرجه الحاكم ٤/ ٩٢، وأخرجه أحمد ٥/ ٢٥١ والطبرانى ٧٤٨٦ قال فى المجمع ٧/ ٢٨١: رجالهما رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص٢٦٧ رقم ٧٧٥ وأحمد ٢/ ١٧٧، ٢٢٢ وتقدم ج١ ص١٠٧.

وتدع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع عوام الناس»[١]. «شبك بين أصابعه» إشارة لاختلاف الناس، وعدم اجتماعهم على الحق.

يعلمنا ﷺ أنه إذا ضُيِّعت التكاليف الشرعية، وانحرفت أخلاق الناس، فواجب على أهل الخير أن يلتزموا بالكتاب والسنة كل الالتزام، عليهم أن يتمسكوا بشرع الله كل التمسك، ولا يحملهم ما ضَيَّع الناسُ على أن يُضيِّعوا هم أيضًا.

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم، وفسق فتيانكم؟» قالوا: يا رسول الله، إن هذا لكائن؟ قال: «نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟» قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: «نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا؟»[٢] زاد فى حديث آخر قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأشد منه سيكون. قال: كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «وأشد منه سيكون، يقول الله: بى حلفت لأُتيحنَّ لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران»[٣].

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٣/ ٢٧٩ رقم ٥٩٥٠ وص٢٨١ رقم ٥٩٥١ وج١٥، ص١٢٤ رقم ٦٧٣٠، وفيه تصحيحه وتخريجه.

(٢) أخرجه أبو يعلى ١١/ ٣٠٤ رقم ٦٤٢٠/ ٥٨٠ وأخرجه الطبرانى فى الأوسط ٩/ ١٢٩ رقم ٩٣٢٥ قال فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٠ فى إسناد أبى يعلى موسى بن عبيدة وهو متروك. وفى إسناد الطبرانى حريز بن المسلم ولم أعرفه، والراوى عنه شيخ الطبرانى همام بن يحيى لم أعرفه.

(٣) من حديث أبى أمامة فى كتاب الأمر بالمعروف لابن أبى الدنيا كما فى كنز العمال ٣/ ٦٨٨ رقم ٨٤٧٠ قال فى إتحاف السادة ٨/ ١٧: رواه ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف، وأخرجه ابن أبى حاتم فى العلل ٣/ ٢٧٢ رقم ٢٧٥٩ وقال: حديث منكر، وحماد ضعيف الحديث. وأخرجه ابن المبارك فى الزهد ص٤٨٤ رقم ١٣٧٦ لكن عن موسى بن أبى عيسى المدينى عن رسول الله ﷺ، وموسى يروى عن التابعين فالإسناد معضل.

واضح من هذه النصوص أن الإسلام الذى أتمه الله سبحانه وتعالى، سيعتريه النقص ليس النقص فى أصوله، وإنما فى العمل به، فالإسلام علم وعمل، والنقص سيكون فى العمل، فسيقل العاملون بالإسلام، سيقلُّ المبتعدون عن المعاصى، سيقلُّ القائمون بالطاعات، سيقل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر بل ستمسخ الفطر حتى يرى الكثيرون المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا!! وتزداد مسخًا فيأمر البعض بالمنكر وينهى عن المعروف!!

إن الالتزام بالإسلام سينقص!! إلا أن هذا النقص لن يأتى على الإسلام كله، ولن يجهل المسلمون جميعًا الإسلام، وإنما ستظل طائفة متمسكة بالإسلام، تَعْلَمه، وتعمل به، وتُعَلِّمُه، أحاطوا به علمًا، ودققوا فى فهمه، وبذلوا كل ما لديهم فى نصره. كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2]. يدفع سبحانه المفسدين بالصالحين، ويدفع البطالين بالمحقين، حتى يظل الحق موجودًا بين البشرية، يعمل به من أراده.

وفى ذلك أيضًا يقول رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم، ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[3].

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥١.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٠.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٧٤٦٠، وقد تقدم فى هذا الكتاب مشروحًا ٢/ ٩٢ عن معاوية بن أبى سفيان.

وهذا يبين أن الإسلام سيظل فى طائفة من أهله، كاملاً يعملون به، يظلون منصورين مؤيدين حتى تقوم القيامة، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

ولقد جاءت نصوص غير هذه تبين خلود الإسلام، وأنه باقٍ إلى قيام الساعة، أذكر منها:

خلود الإسلام[١]:

فعن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل أمتى مثل المطر، لا يُدرى أوله خير أو آخره»[٢] أمة الإسلام أمة تعرف عظمة الإسلام، ومن هنا تعتز به فى كل أجيالها، أولهم نصروه، وأوسطهم قعَّدوه، وآخرهم جدَّدُوه.

وعن عبد الرحمن بن سمرة عن رسول الله ﷺ قال: «مثل أمتى كحديقة قام عليها صاحبها فاجتذر رواكيها، وهيأ مساكنَها، وحلق سعفها، فأطعم عامًا فوجًا، وعامًا فوجًا، فلعل آخرهما طعمًا أن يكون أجودهما قِنْوانًا[٣]، وأطولهما شِمْرَاخًا[٤]. والذى بعثنى بالحق ليجدن عيسى ابنُ مريم فى أمتى خلفًا من حوارييه»[٥].

إن الأخيار فى الأمة دائمًا، فى كل جيل، يستمرون على ذلك، حتى نزول عيسى وظهور العلامات الكبرى للقيامة.

---

(١) راجع ج١ ص١٠٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٩/٤٤٥ رقم ١٢٤٦١ وهو مكرر ١٩/٣٣٤ رقم ١٢٣٢٧. وهو حديث حسن يرتقى بشواهده إلى الصحيح.

(٣) القنو: مجتمع الأغصان الذى فيه ثمار النخلة.

(٤) الشمراخ: الأعواد التى فيها بلح النخلة.

(٥) أخرجه أبو نعيم كذا فى كنز العمال ١٢/١٨١ رقم ٣٤٥٧٠ وأخرجه الحكيم وأوله لا تبكوا فإن مثل أمتى.

وعن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم قرأ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾»(١).

كرر ﷺ كلمة أصلاب للدلالة على الكثرة، وأن الأمة ستتوالى على الخيرية، جيلاً بعد جيل، كما قال الضحاك فى تفسير الآية: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. قال: يعنى من أسلم من الناس وعمل صالحًا، من عربى وعجمى إلى يوم القيامة(٢).

وهكذا تفيد النصوص خلود الإسلام، وأنه سيظل حيًا قويًا فى نفوس طائفة من الأمة إلى قيام الساعة. هذه الفئة المتمسكة بالإسلام هى التى عناها رسول الله ﷺ فى الحديث الذى نحن بصدد شرحه: «لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسًا يستعملهم فى طاعته». وأستنطق النصوص لأبين صفات هذه الطائفة:

صفات المتمسكين:

هذه الطائفة المتمسكة بدين الله، يوضح الحديث الذى معنا والأحاديث التى فى موضوعه، أنها تتوفر فيها الصفات الآتية:

١ـ جادّون مجتهدون فى طاعة الله سبحانه وتعالى «يستعملهم فى طاعته» عرفوا الحق، وأنهم إنما خُلِقوا لعبادة الله، فراموا ذلك، فأيدهم وهداهم صراطه المستقيم، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

(١) الآية رقم ٣ من سورة الجمعة، والحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير ٦/ ٢٠١ رقم ٦٠٠٥ وتابعه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ٢٢٠ رقم ٣١٨، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠٨: رواه الطبرانى وإسناده جيد. وذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤/ ٤٥٦ وعزاه للطبرانى وابن مردويه والضياء.

(٢) ذكره فى الدر فى الموضع السابق وعزاه لابن المنذر.

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

إن شأن هؤلاء أنهم يعملون بدين الله، لا يقصرون فى شىء منه. جمعوا بين العلم والعمل.

٢ـ محافظون على دين الله، يحفظون نصوصه، ويعملون على إظهارها وإذاعتها، ويعملون على تقريبها للعمل، يحمونها ويدافعون عنها.

* فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٢] يوفق الله عالمًا أو أكثر يأخذ بيد الأمة إلى العودة إلى الكتاب والسنة، يحيى به الله ما اندرس من العمل بمقتضاهما، ويميت الله به البدع وما أحدث فى الدين.

هذا المجدد من هذه الطائفة، يؤيدهم الله سبحانه وتعالى فى القيام بذلك، ويستعملهم سبحانه فى طاعته، والتى منها المحافظة على الدين وتجديده، بإحياء العمل به، وذب الشبه عنه.

٣ـ ينصرون دين الله يجاهدون فى سبيل الله، يعلون كلمة الحق ويعملون على إعزازها وإعزاز أهلها، أمر الله بالجهاد تحريرًا للناس فى دينهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[٣] فاجتهدت هذه الطائفة فى ذلك، يؤيدها ربنا ويقويها:

---

(١) آخر سورة العنكبوت.

(٢) أخرجه أبو داود فى أول كتاب الملاحم ١١/٣٨٥، وأخرجه الحاكم ٤/٥٢٢ وصححه الأئمة الأعلام كالعراقى وابن حجر والسيوطى.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٩.

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر قائمًا يقاتل عليه المسلمون حتى تقوم الساعة»[1] وفى لفظ آخر: «لا يزال هذا الدين ظاهرًا على كل من ناوأه لا يضره من خالفه أو فارقه»[2].

وعن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال: «لا يزال ناس من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله عز وجل»[3].

وقد تقدم حديث معاوية: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم، ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[4].

إن هذه النصوص تبين أن هذه الطائفة التى يوفقها الله لدينه ستظل ناصرة لدين الله إلى قيام القيامة، سيعاديهم الكفرة والمنافقون، وسيخذلهم المسلمون المفرِّطون فى دينهم، ولكن الله يؤيدهم وينصرهم. فيستمرون على طاعته، يعبدونه بكل استقامة، ويحافظون على دينه بكل صدق، وينصرون دينه بكل حزم.

• وجه إعجاز الحديث:

جاءت آيات قرآنية وأحاديث نبوية تبين أن المسلم مستهدف فى دينه، يعاديه المنافقون والكافرون وشياطين الإنس والجن والنفس والهوى والدنيا بمادياتها. كل هذه أمور تعترض طريق المسلم فى دينه!!

وتحقق قدر من ذلك فى حياة رسول الله ﷺ، فالكافرون كم حاولوا

---

(١) أخرجه أحمد ٣٤/٥١٤ رقم ٢١٠١١ ورقم ٢٠٨٥٩، وقال محققه: صحيح لغيره، ورقم ٢٠٩٣٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤/٤٧٦ رقم ٢٠٩٣٨، وقال محققه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف مجالد.

(٣) أخرجه أحمد ٣٠/١٠٣ رقم ١٨١٦٦، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) تقدم ص٣٨١ وهو حديث صحيح أخرجه البخارى رقم ٧٤٦٠.

صرف المسلمين عن دينهم وصل ذلك إلى القتل، والمنافقون وأهل الديانات الأخرى كم أثاروا من شبهات واستشكالات، أما الشياطين والنفس والهوى والدنيا فهذه ملازمة للإنسان.

ورسول الله ﷺ يبين أن الفتن ستقوى وتقوى حتى إن المرء يصبح مؤمنًا ويمسى كافرًا!!

وتحقق ما جاءت به الآيات والأحاديث فكثرت الفتن من:

* لهو ولعب ومزج هذا بالإغراءات التى تدمر الأخلاق والفكر، وفرض الكفر على المسلم المستضعف اختلاط النساء بالرجال، وظهور النساء عاريات يتمايلن ويرقصن، ومن رفض ذلك اضطهد، ومن أراد عطايا الكفر فليحرص على ذلك وليعاد القيم والدين!!

* وشاعت المسكرات أصنافًا وأنواعًا، تقضى على الصحة وتدمر الشخصية، وتستولى على متعاطيها، تنتزعه من الأخلاق والجدية والإنسانية، ووضع فيها من المواد الضارة ما أصبحت به من أقوى حرب السموم بين الأمم، وهى أخطر من حرب الجيوش، وفرض الكفر هذه المسكرات وأشاعها!! وساعده من يمشى فى ركابه من الأمة!!

* وانفتحت الدنيا على الناس. وأصبح هدفهم فى الحياة الشهوات فأبعدتهم عن الدين، وتعقدت الحياة.

* وغُزِيَتِ الأمة بفكر يصور لها الحق على أنه التزمت والتأخر، ويصور لها الباطل على أنه التفتح والتقدم، مما به انحرفت عن الصراط المستقيم،عن دينها الإسلام العظيم إلى المادية والإباحية!!

* وضيق على الدراسات الإسلامية، وخنقت مدارسها وجامعاتها بعلوم غير إسلامية، وأفسح المجال للدراسات المادية والدرامية والفنون

والباليه، حتى استولت على فكر الأمة وأمسكت بزمام فكرها.

* وتولى مقاليد الفكر أناس ثقافتهم مستوردة، يعظمون الأمم الأخرى ويحتقرون أمتهم، فساروا خلف الآخرين، ورأوا الدين الإسلامى أعدى أعدائهم، فاضطهدوا أهله، وعادوا كل ما كان منه.

هذا قليل من كثير من الفتن التى أخبرت النصوص بها، وحذرت منها.

وفى الحديث الذى معنا يخبر رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى دائمًا يوفق مجموعات من الأمة للتمسك بالإسلام والحفاظ عليه، وأنه على الرغم من الفتن والصوارف عن الإسلام، وعلى الرغم من مؤامرات أعداء الإسلام على المسلمين ستظل هذه السنة الكونية من سنة الله سبحانه وتعالى، وهى أنه سبحانه «يغرس فى هذا الدين غرسًا يستعملهم فى طاعته».

إنه ﷺ يخبر أن الفتن لن تضر الجميع، وإنما ستنجو منها طوائف تعتز بدين الله سبحانه وتعالى.

ويتحقق ما أخبر به ﷺ، فها هى مجموعات المعتزين بالإسلام فى كل بلاد الله، يوفقهم الله، يجتهدون فى عبادته سبحانه وتعالى كما شرع، وينصرون دينه سبحانه وتعالى كما أمر. إنهم على الرغم من الفتن والمؤامرات لا يزالون فى دائرة العبادة، يذكرون الله كثيرًا، ويقومون بأوامر الله، ويبتعدون عن نواهى الله، أوقاتهم الكثير منها فى الدعاء والذكر، والتضرع والفكر، يقرءون كلام الله، ويدرسون سنة رسول الله المبينة لكتاب الله، هدفهم إرضاء الله تعالى، وسبيلهم الاقتداء برسول الله ﷺ، حكَّمُوا الإسلام فى كل حياتهم، ونصروه بكل ما لديهم، قلوبهم به عامرة، وجوارحهم عليه منضبطة، يحبون الله ورسوله أكثر من كل

شىء. والإسلام عندهم أعظم شىء.

هؤلاء هم غرس الله لدينه الإسلام، يعتزون به، ويعملون به، وينصرونه، أخبر ﷺ بأن الله يؤيدهم ويوفقهم، فبهم تحقق ما أخبر به ﷺ.

وهذا من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا، إذ أخبر بالأمر فوقع كما أخبر، وهو أيضًا دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها، فالواقع يؤيد ذلك ويصدقه، وبالتالى فهو دليل على صحة السنة النبوية.

• الدروس المستفادة من هذا الحديث:

١ - عناية الله سبحانه بالإسلام، وأنه سبحانه يهيئ له من أسباب البقاء العلمى والعملى أناسًا يعتزون به وينصرونه.

٢ - خلود الإسلام، وأنه سيظل موجودًا، تتمسك به طائفة من الأمة وتنصره إلى ظهور العلامات الكبرى للقيامة.

٣ - وجود الصالحين فى كل جيل من أجيال هذه الأمة إلى قرب القيامة وظهور العلامات الكبرى.

٤ - إن أهل الكفر وأهل النفاق لن يبلغوا غايتهم فى القضاء على الإسلام، وإنما سيظل عزيزًا قويًا بعون الله وتوفيقه.

٥ - فيه معجزة لرسول الله ﷺ، إذ أخبر بوجود الصالحين فى كل زمان فتحقق ذلك كما أخبر ﷺ.

٦ - فيه دليل على صحة السنة النبوية، فالواقع يؤكد صحة هذه الأحاديث وبالتالى صحة السنة.

* * *

الإخبار بانتشار الإسلام فى كل العالم

عن تميم الدَّاريِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، ولا يتركُ اللهُ بيْتَ مَدَر ولاَ وبَر إلا أدخله الله هذا الدينَ، بعِزِّ عَزِيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ، عزًا يُعِزُّ اللهُ به الإسلام، وذُلاً يُذِلُّ اللهُ به الكُفْرَ»[1].

وعن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الأرضِ بَيْتُ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَه اللهُ كلمة الإسلام، بعِزِّ عَزِيز أَوْ ذُلِّ ذَليل، إمَّا يُعِزُّهُمْ اللهُ فَيَجْعَلُهُم من أَهْلِها، أو يُذِلُّهُم فيَدِينُونَ لها»[2].

• **المعانى:**

«ليبلغن هذا الأمر» بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاَغًا: وصل وانتهى[3].

و«الأمر» طلب فعل الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4] فالأمر هنا بمعناه الأصلى، يطلب ربنا منا أن نعدل ونحسن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ١٥٤) رقم ١٦٩٥٧، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وفيه تخريجه، وابن منده فى الإيمان (٢/ ٩٦١) رقم ١٠٨٥. والحاكم فى الفتن باب ستفترق أمتى (٤/ ٤٣٠)، وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩/ ٢٣٦) رقم ٢٣٨١٤، وقال محققه: إسناده صحيح. وأخرجه ابن حبان (١٥/ ٩١)، رقم ١٦٩٩ وص٩٣ رقم ٦٧٠١. والحاكم فى الموطن السابق.

(٣) لسان العرب مادة «بلغ» (١/ ٣٤٥).

(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.

ونؤتى أقرباءنا. ويقابل الأمرَ النهىُ، فينهى سبحانه عن الفحشاء والمنكر والبغى.

وللأمر معانٍ أخرى كثيرة[١]، منها:

الأمر بمعنى الدين: قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[٢] أى ظهر دينُ الله الإسلامُ.

وهذا المعنى هو المراد فى الحديث الذى معنا، وعليه فقوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» معناه أنه سيصل هذا الدين إلى ما يصله الليل والنهار، أى إن الإسلام سيشيع وينتشر فى كل الدنيا.

«بيت مدر ولا وبر» المدر: قطع الطين اليابس، تصنع على أشكال مستوية، ليسهل البناء بها. و«بيت المدر» هم أهل المدن والقرى الذين يعيشون فى الأبنية[٣].

«ولا وبر» الوبر: صوف الإبل والثعالب والأرانب[٤]. وبيت الوبر: الخباء الذى يصنعه البدو الرُّحَّل من شعور بهائمهم، ينصب فيسترهم، وعند الرحيل يسهل ضمه وحمله.

وقوله ﷺ: «ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين» أى لا يبقى بيتٌ فى أى ناحية إلا أدخله الله الإسلام.

«بعز عزيز» أى يَدْخُل الإسلامُ البيوت مقرونًا بعز بعض الناس من أهل العقل والاستقامة إذ يؤمنون به، ويسعدون بما فيه من خير وحكمة.

---

(١) راجع بصائر ذوى التمييز (٢/ ٣٩)، والوجوه والنظائر (١/ ٧) فقد ذكرا له ستة عشر وجهًا.
(٢) سورة التوبة، آية: ٤٨.
(٣) لسان العرب مادة «مدر» (٦/ ٤١٥٩).
(٤) لسان العرب مادة «وبر» (٦/ ٤٧٥٢).

«أو بذل ذليل» أو يدخل الإسلام البيوت مقرونًا بذل بعض الناس، وذلك بأن لا يسلم البعض، لكنهم يضطرون لامتثال الإسلام، لأنه المتعين لبقائهم واستقرارهم، وهو منهج الحياة المتَعيّن اتباعه لأنه المصلح النافع.

• ترجمة راويى الحديث:

١- تميم الدارى:

تميم بن أوس بن خارجة أبو رقية صاحب رسول الله ﷺ، روى عن النبى ﷺ وعن كثير من الصحابة، وروى عن أنس بن مالك، وروح بن زنباع الجذامى، وزرارة بن أوفى، وروى عنه النبى ﷺ حديث الجساسة فى أمر الدجال وهذه منقبة شريفة جدًا له ويدخل ذلك فى رواية الأكابر عن الأصاغر.

وعن محمد بن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ: (أُبىٌّ، وعثمان، وزيد، وتميم الدارى)، وكان تميم يختم القرآن فى سبع، وكان عابدًا تاليًا لكتاب الله تعالى ومناقبه كثيرة.

وقد وفد على رسول الله ﷺ ومعه أخوه نعيم بن أوس، فأسلما، وأقطعهما رسول الله ﷺ حبرى وبيت عينون بالشام، وليس لرسول الله ﷺ قطيعة بالشام غيرهما، وصحب تميم رسول الله ﷺ وغزا معه، وروى عنه.

وعن مسروق: قال لى رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الدارى، صلى ليلة حتى أصبح أو كاد يقرأ آية يرددها ويبكى ﴿أَمْ حَسِبَ

---

(١) طبقات ابن سعد ج٧ ص٤٠٨.

الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[١].

عن المنكدر بن محمد عن أبيه: أن تميمًا الدارى نام ليلة لم يقم يتهجد. فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع.

وعن معاوية بن حرمل، قال: قدمت المدينة، فلبثت فى المسجد ثلاثًا لا أطعم، فأتيت عمر فقلت: تائب من قبل أن تقدر عليه قال: من أنت؟ قلت: معاوية بن حرمل قال: اذهب إلى خير المؤمنين فانزل عليه. قال: وكان تميم الدارى إذا صلى ضرب بيده على يمينه وشماله، فذهب برجلين، فصليت إلى جنبه، فأخذنى، فأتينا بطعام فبينا نحن ذات ليلة، إذا خرجت نار بالحَرَّة، فجاء عمر إلى تميم، فقال: قم إلى هذه النار فقال: يا أمير المؤمنين ومن أنا! وما أنا! فلم يزل به حتى قام معه، وتبعتهما فانطلقا إلى النار فجعل تميم يحوشها بيده حتى دخلت الشعب ودخل تميم خلفها. فجعل عمر يقول: ليس من رأى كمن لم ير. قالها ثلاثًا.

عن حميد بن عبد الرحمن: إن تميمًا استأذن عمر فى القصص سنين، ويأبى عليه، فلما أكثر عليه قال: ما تقول؟ قال: أقرأ عليهم القرآن، وآمرهم بالخير، وأنهاهم عن الشر. قال عمر: ذاك الربح، ثم قال: عِظ قبل أن أخرج للجمعة[٢].

ولم يكن له ولد ذكر، وإنما كانت له ابنة تسمى رقية يكنى بها، وكان تميم بالمدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان ونزل بيت المقدس، ومات بالشام لا عقب له، وقيل: إنه وجد على قبره أنه مات سنة ٤٠هـ[٣].

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٤٢.

(٣) تهذيب الكمال للمزى ج٤ ص٣٢٦.

٢- المقداد بن الأسود:

المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك، صاحب رسول الله ﷺ.

شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وكان فارسًا يوم بدر. وهو أول من قاتل على فرس فى سبيل الله، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ.

وروى عن النبى ﷺ وعن عدد من الصحابة، وروى عنه أنس بن مالك وعبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب وآخرون.

وقال عبد الله بن مسعود: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد[١].

وقال عبد الله بن مسعود أيضًا: شهدت من المقداد مشهدًا لأن أكون صاحبه كان أحب إلىَّ مما عدل به؛ أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك. قال: فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسره[٢].

وعن بريدة عن النبى ﷺ: «أمرنى الله عز وجل بحب أربعة من أصحابى، وأخبرنى أنه يحبهم: على، وأبو ذر، وسلمان، والمقداد»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ج٣٨ ص٦٨، والإصابة ج٦ ص٢٠٣، وقيل: سنده حسن وفى الحلية ج١ ص١٧٢.

(٢) الآية من سورة المائدة رقم ٢٤، والحديث أخرجه فى الحلية ج١ ص١٧٣، والطبقات الكبرى ج٣، ص١٦٢.

(٣) أخرجه الرويانى فى مسنده ١/ ٧٢ رقم ٢٨، ٢٩. وأخرجه أحمد ٣٨/ ٦٧ رقم ٢٢٩٦٨ وفيهما تخريج أكثر. وابن ماجه ١/ ٥٣ رقم ١٤٩.

وعن كريمة أن المقداد أوصى للحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب لكل واحد منهما بثمانية عشر ألف درهم، وأوصى لأزواج النبى ﷺ لكل امرأة منهن سبعة آلاف درهم، فقبلوا وصيته[١].

كان المقداد حريصًا على الالتزام بأحكام الدين. وكان فى سرية فحصرهم العدو فعزم الأمير أن لا يجشر[٢] أحد دابته، فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة، فضربه فرجع الرجل وهو يقول: ما رأيت كما لقيت اليوم قط، فمر المقداد فقال: ما شأنك؟ فذكر له قصته، فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال: أقده من نفسك، فأقاده، فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول: لأموتن والإسلام عزيز[٣]. أى سأحرص على امتثال أحكام الإسلام والحث عليها ما حييت.

وقال عبد الله بن محمد: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص، قد أفضل عنها من عظمته يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[٤].

أى إن سورة التوبة لم تترك لى أن أظل فى بيتى لكبر سنى، وإنما فيها التكليف بالجهاد على كل حال.

ومات المقداد سنة ٣٣هـ، وهو ابن سبعين بالجرف، وحُمل إلى المدينة فدفن بها وصلى عليه عثمان.

---

(١) الطبقات ج٣ ص١٦٢.
(٢) يجشر: يرعى فى مكانه ولا يرجع إلى أهله.
(٣) الحلية ج١ ص١٧٦.
(٤) نفس المرجع السابق. والآية من سورة التوبة رقم ٤٠.

• **شرح الحديث:**

يخبرنا رسول الله ﷺ أن الإسلام سيشيع وينتشر فى كل الدنيا، وأنه سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، ولن يبقى بيت إلا وسيدخله الإسلام، سواء فى ذلك بيت الحضر والبادية، بيت العرب وبيت العجم، سيصل الإسلام كل أنحاء العالم، وسيعم كل المعمورة.

• **أسباب انتشار الإسلام:**

١ - **الإسلام دين البشرية كلها:** أرسل الله به رسوله محمدًا ﷺ لكل البشرية، مركوزًا فى فطر الجميع قبوله وحبه والحرص عليه، وهو مصلح لكل شئونهم ومن هنا يقبلونه ويدعون إليه.

* قال الله تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1].

يخاطب ربنا سبحانه نبيه محمدًا ﷺ: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وهذا خطاب يشمل كل البشرية فى كل زمان ومكان، قل لهم: ﴿**إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ أرسلنى الله بدينه إليكم، ثم أكد فقال: ﴿**جَمِيعًا**﴾ أى كلكم، وهذا دليل على عموم رسالته ﷺ، وأنها لكل البشر.

ثم أمر ربنا بالإيمان به وبرسوله فقال سبحانه: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ ثم بيّن سبحانه أن الهداية - والتى هى الإنسانية فى أسمى معانيها، والرقى فى أبهج صوره - إنما هى فى اتباعه ﷺ فقال سبحانه: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ**

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

إن الإسلام دين الله للبشرية كلها، أرسل به رسوله محمدًا لإسعاد البشرية كلها.

* وقال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

المعنى: وما أرسلناك إلا للناس كافة أى جميعًا. وقُدِّم لفظ ﴿كَافَّةً﴾ للاهتمام بعموم رسالته، وأنها لكل الناس.

* وقال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[2].

* وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[3].

* وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنّ أحد قبلى: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهر، وجُعِلَت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لى المغانم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة»[4].

* وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى، ولا أقولهن فخرًا: بعثت إلى الناس كافة، الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى،

(١) سورة سبأ، آية: ٢٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٧٩.

(٣) سورة النساء، آية: ١٧٠.

(٤) أخرجه البخارى فى التيمم الباب الأول (١/ ٤٣٥) رقم ٣٣٥، ومسلم (١/ ٣٧٠، ٣٧١)، رقم (٣/ ٥٢١).

وجعلت لى الأرض مسجدًا وطَهُورًا، وأعطيت الشفاعة، فأخرتها لأمتى فهى لمن لا يشرك بالله شيئًا»[١].

* وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زَوَى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها. وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زُوِى لى منها. وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض...»[٢] الحديث.

* وعن كُرْز بن عَلْقَمَة الخُزَاعى قال: «قال أعرابى: يا رسول الله، هل للإسلام من مُنْتَهى؟ قال: نعم، أيُّما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله عز وجل بهم خيرًا أدخل عليهم الإسلام. قال: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: ثم تقع فتن كأنها الظلل. فقال الأعرابى: كلا يا رسول الله. قال النبى ﷺ: بلى والذى نفسى بيده، لتَعُودُنَّ فيها أَسَاوِدَ صُبًّا[٣] يضرب بعضكم رقاب بعض»[٤].

زاد فى رواية: «وأفضل الناس يومئذ مؤمن معتزل فى شِعْبٍ من الشِّعاب، يتقى ربه تبارك وتعالى، ويدع الناس من شره»[٥].

بكل هذا الوضوح فى الآيات والأحاديث الإسلام منذ مجيئه دين البشرية كلها فى كل زمان ومكان، ومن هنا فسينتشر ويشيع، يقيم الله به الحجة على الخلق. وأنه بيّن لهم سبيل السعادة. إنه الدين الذى يجد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٧١، ٤٧٢) رقم ٢٧٤٢ وحسنه محققه، وحسنه أيضًا فى المجمع (٨/ ٢٥٨) وله شاهد عن عبد الله بن عمرو عند أحمد (١١/ ٦٣٩) رقم ٧٠٦٨ صححه محققه وجمع فيه شواهده.

(٢) أخرجه مسلم فى الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/ ٢٢١٥) رقم ٢٨٨٩.

(٣) أساود جمع أسود، وهو الثعبان الضخم، ويقال له أيضًا حية. و«صُبًّا» يعنى الثعبان إذا أراد أن ينهش ارتفع ثم نزل على الناس.

(٤) أخرجه أحمد (٢٥/ ٢٦١) رقم ١٥٩١٨، والذى قبله، وصححهما المحقق.

(٥) عند أحمد فى الموضع السابق رقم ١٥٩١٩ وصححه محققه وخرجه.

العقلاء فيه بغيتهم، ويجد الحلماء فيه غايتهم. سئل أحد المبتكرين لماذا أسلمت؟ فقال: لأنى وجدت الإسلام ما أمر بشىء فقال العقل: ليته ما أمر، ولا نهى عن شىء فقال: ليته ما نهى.

إن الإسلام بعقيدته وأحكامه وأخلاقه جذب حكماء العالم، وشاع فى كل الدنيا.

٢ - الإسلام دين عظيم يفرض نفسه: إنه نعمة الله على البشرية، يهديها به ويرشدها.

* قال سبحانه فى آخر آيات القرآن نزولاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(١) إنه دين الله الخالق العليم الخبير، خلق الإنسانية ويعلم ما يصلحها ويسعدها فأنزل لها هذا الدين، وعرّفهم بقدره، لم يترك شرًا إلا حذرنا منه، ولم يترك خيرًا إلا دلنا عليه.

* قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٣).

* وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩.

(٤) آخر سورة الشورى، آية: ٥٢، ٥٣.

إن الله سبحانه أوحى لرسوله محمد ﷺ كل ما يسعد البشرية، وأسند إليه أن يبين هذا الدين للإنسانية، فبيّن ﷺ كل أمور الدين.

* عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بقى شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيِّن لكم»[1].

لقد بين ﷺ كل خير ودلّ عليه، ونهى عن كل شر وحذّر منه، كل ذلك في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية.

* فأخرج عبد الرزاق عن معمر عن عمران صاحب له قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت شيئًا يقربكم من الجنة، ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم...»[2].

* وعن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3] قال: من آمن بالله ورسوله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما كان يصيب الأمم الماضية من العذاب العام في عاجل الدنيا. زاد في رواية: «من الخسف والمسخ والقذف»[4].

إن الإسلام هو المنهج القويم لإسعاد البشرية، تجد نفسها محتاجة إليه، إنه وحى يُمتع العقول، ويأخذ بأيديها إلى الرشاد.

---

(١) ذكره في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٣، ٢٦٤) وعزاه للطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى وهو ثقة.

(٢) المصنف (١١/ ١٢٥) رقم ٢٠١٠٠ وهو مرسل.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) أخرجهما الآجرى في الشريعة (٢/ ٢٧٩) رقم ١٠٥٥، ١٠٥٦ وفي إسنادهما ضعف، وراجع مجمع الزوائد (٧/ ٦٩)، والدر المنثور (١٠/ ٤٠٥)، وأخرجه الطبراني (١٢/ ٢٣) رقم (١٢٣٥٨).

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «ما من الأنبياء نبى إلا أُعْطِىَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1].

إن الأنبياء آتاهم الله من المعجزات الحسية ما يدعو إلى الإيمان، لكنها دعوة لمن شاهد، أما محمد ﷺ فكانت معجزته الكبرى القرآن الكريم، معجزة تشاهد بالبصيرة وتدرك بالعقل، ومن هنا فهى مستمرة لا تنتهى، إن القرآن قائم فى الحياة بإعجازه وعظمته يدعو كل إنسان إلى الإيمان بالله وبرسوله وبدينه، ومن شأن ذلك أن يكثر أهل الإسلام، ويشيع الإسلام وينتشر.

ومن هنا يرجو ﷺ أن يكون أكثر الأنبياء أتباعًا، وأن تكون أمته أكثر الأمم، ورجاؤه ﷺ محقق، كما أن دعاءه مستجاب، ومن هنا أخبر ﷺ بذلك:

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة».

وفى رواية: «لم يُصَدَّق نبى من الأنبياء ما صُدِّقت، وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد»[2].

إن الله آتى رسوله الكثير من المعجزات الحسية، لكن كانت معجزته الكبرى القرآن الكريم، معجزة خالدة، تدعو الناس إلى الإيمان بالله وبالإسلام، ومن هنا سيظل الناس يدخلون فى الإسلام، ينتشر ويشيع

(١) أخرجه البخارى فى أول فضائل القرآن (٩/ ٣) رقم (٤٩٨١).
(٢) أخرجهما مسلم فى الإيمان باب قول النبى ﷺ: «أنا أول الناس يشفع فى الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا» (١/ ١٨٨) رقم ٣٣٠ - ٣٣٢.

حتى يصل إلى ما أخبرنا ﷺ به فى حديث الباب: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام» وقد كان.

إن الله تبارك وتعالى أمر باتباع الإسلام، وبين أنه الدين الحق، والمنهج الصدق، ولا يستطيع أى منصف إلا أن يقتدى برسول الله ﷺ.

يقول سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

إن الله غرس فى قلوب البشرية الإسلام، فطرهم عليه وجعل طبيعتهم عليه، يقبلونه ويسعدون به، ويرونه أنه الدين المستقيم. ومن هنا سيشيع وينتشر فى كل أنحاء العالم. يقبل المنصفون عليه فيسلمون، ويتعين على الجاحدين قبول ما فيه يستفيدون.

٣ ـ الإسلام دين عزيز غالب:

أ ـ أهله منصورون. ب ـ أعداؤه مخذولون.

أ ـ نصرة أهله: فأهل الإسلام منصورون مؤيدون، صقلهم الإيمان فأصبحوا أقوياء شجعانًا، وأعانهم الله وقواهم وقد يرسل بعض الملائكة يتعاونون معهم، وهذا أعطى الإسلام القدرة على الشيوع والانتشار:

* قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢) هذا وعد من الله سبحانه، ووعد الله لا يتخلف، وعد سبحانه رسوله وأمة الإسلام أن يجعلهم خلفاء الأرض وأئمة البلاد، يعبدون الله فتصلح بهم البلاد ويخضع لهم

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٢) سورة النور، آية: ٥٥.

العباد ويتوفر الأمن ويعم الرخاء، وقد تحقق ذلك ففتحت البلاد وشاع الإسلام، واستمع الكثيرون لدعوة الإسلام بأذن الإنصاف فشاعت الدعوة وانتشر الدين فى مشارق الأرض ومغاربها.

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1].

إن الله سبحانه تكفل بنصرة أهل الإسلام المتمسكين به المدافعين عنه.

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[2] يؤكد ربنا سبحانه أنه ينصر رسله وأولياءه، ينصرهم على أعدائهم فى الدنيا، ويوم القيامة يكون نصرهم أجل وأعظم. وهذا الذى حدث مع رسول الله محمد ﷺ ومع أمته، أعزه الله وأعزهم، ونصره ونصرهم، وانسابت الدعوة فى الأرض انسياب أشعة الشمس على الفلاة.

* وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

هذا أمر وعد الله به المؤمنين، وسنة كونية دائمة، وحق أوجبه تكرمًا وتفضلاً، أن ينصر المؤمنين فى كل زمان ومكان على أعدائهم.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى

(١) سورة الحج، آية: ٣٨ ـ ٤١.
(٢) سورة غافر، آية: ٥١.
(٣) سورة الروم، آية: ٤٧.

لى وليًا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه. وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

هذا حديث قدسى صحيح، يفيد أن من عادى مؤمنًا فالله هو الذى سينتقم منه، وكذلك أيما مجموعة حاربت مسلمين فإن الله هو الذى سيأخذ الحق منها، إن المؤمنين الذين يعبدون الله ويتقربون إليه يتولى سبحانه أمورهم، ويدفع عنهم أعداءهم.

وهكذا تبين الآيات والأحاديث أن أهل الإسلام منصورون، يؤيدهم الله ويعزهم، إنهم تولوا الله بالطاعة فتولاهم بالعناية والرعاية، إنهم منصورون على أعدائهم لأنهم بذلوا كل الأسباب، وأقوى سبب هو طاعة الله تعالى، فبذلوا السبب المادى والسبب الدينى فرضى الله عنهم وأرضاهم.

ب ـ خذْلان أعدائه: وأعداء الإسلام مخذولون، لن يبلغهم الله غايتهم، ولَن تُنْتج أسبابهم، يكيدون ولا قيمة لكيدهم، وينفقون ويا ضياع أموالهم، إن الله هو الحق فينصر أهل الحق.

والمسلمون يبذلون الأسباب، وقد أهّلَهُم الإيمانُ للنصر.

والكافرون يبذلون الأسباب، ولكنهم غير مؤهلين للنصر، لكفرهم بالله، وجهرهم بالمعاصى.

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق باب التواضع (١١/ ٣٤٠) رقم ٦٥٠٢.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] إن الله بيّن عاقبة كيدهم، وأنهم مخذولون بسبب كفرهم وإضلالهم، وأنهم متحسرون مغلوبون فى الدنيا وفى الآخرة من أهل النار.

ويقول سبحانه عن الكفار عمومًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

إن الله متم نوره، وعد لا بد أن يتحقق، وبفضل الله تحقق وسيظل يتحقق، يكيد الكفار للقضاء على الإسلام، فيضيع كيدهم، ويظل الإسلام عزيزًا قويًا، كما قال ربنا فى آية أخرى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[3].

بهذا أخبرنا ربنا وأكد، وأخبرنا رسول الله ﷺ عن الله وطبّق، حوّل ذلك لواقع عملى، فغزا ونصره الله، ومكثت الأمة على هَدْيه، يهديها الله ويعزها.

نموذج لنصرة أهل الإسلام وخذلان أعدائه:

النماذج لذلك كثيرة، قديمًا وحديثًا، لكنى أذكر من القديم إيثارًا للسلامة.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٢، ٣٣.

(٣) سورة غافر، آية: ٢٥.

أخرج الدينورى بإسناده عن أبى إسحاق الفزارى قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواقًا[1] عند اللقاء، فقال هرقل[2] وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم؛ قال لهم: أخبرونى ويلكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم؛ أليسوا هم بشرًا مثلكم؟

قالوا: بلى.

قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا فى كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟

فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزنى، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بما يُسخط الله، وننهى عما يرضى الله عز وجل، ونفسد فى الأرض.

قال ـ هرقل ـ: أنت صدقتنى[3].

وأخرج ابن جرير أن يزدجرد كتب إلى ملك الصين يستمده[4] فقال للرسول: قد عرفت أن حقًا للملوك إنجاد[5] الملوك على من غلبهم، فصف لى صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإنى أراك

(١) أى فواق ناقة، وذلك أن الناقة تُحلَب نصف حلب ثم تترك تستريح نصف ساعة تقريبًا ثم تحلب تمامًا. والقدر الذى بين نصفى الحلبة يسمى «فُواق».

(٢) حاكم الروم.

(٣) المجالسة للدينورى (٤/ ٩٢، ٩٣) رقم ١٢٥٩.

(٤) يطلب منه مددًا يتقوى به على المسلمين.

(٥) إعانة.

تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرٌ فيكم.

فقلت: سلنى عما أحببت؟

فقال: أيوفون بالعهد؟

فقلت: نعم.

قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟

قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث، إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو فى الجزية والمنعة، أو المنابذة[1].

قال ـ ملك الصين ـ: فكيف طاعتهم أمراءهم؟

قلت: أطوع قوم لمرشدهم.

قال: فما يحلون وما يحرمون؟

فأخبرته.

فقال: أيُحَرِّمون ما حلل لهم، أو يُحِلون ما حُرِّم عليهم؟

قلت: لا.

قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبدًا، حتى يحلوا حرامهم، ويحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرنى عن لباسهم.

فأخبرته، وعن مطاياهم؟

فقلت: الخيل العراب، ووصفتها.

---

(١) يقول رسول حاكم الفرس: إنهم يخيروننا بين ثلاثة أشياء: إما أن نُسْلم فنصير إخوة وإما أن ندفع الجزية، وإما أن تشتعل الحرب.

فقال: نعمت الحصون هذه.

ووصفت له هذه الإبل، وبروكها وانبعاثها بحملها.

فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

وكتب إلى يزدجرد: إنه لم يمنعنى أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو، وآخره بالصين الجهالة بما يحق علىّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وَصَفَ لى رسولُك صِفَتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها[1]، ولو خُلِّى لهم سربهم[2] أزالونى، ما داموا على ما وصف. فسَالِمْهم، وارض منهم بالمساكنة، ولا تُهِجْهُم ما لم يهيجوك[3].

هكذا ينتصر أهل الإسلام، وهكذا يُخْذل أعداء الإسلام، وبذا ينتشر الإسلام ويشيع، إنه الحق الذى ينتصر من تمسك به، وينهزم من عاداه.

٤ ـ الإسلام دين خالد:

الناظر فى واقع الإسلام يجد أنه دين اجتمعت له كل أسباب البقاء والخلود:

فنصوصه والتى هى القرآن والسنة محفوظة بحفظ الله، وتوفيقه سبحانه الأمة للقيام بذلك.

ويوفق الله الأمة لحمل هذا الدين إلى كل الدنيا وحمايته، إن قصرت جماعة وفق الله أخرى.

والإسلام حق، فى عقيدته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، يعترف بذلك

(١) لو أرادوا تكسير الجبال ونقلها لفعلوا.

(٢) لو وصلت إلىّ جماعتهم.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (٣/٢٤٩).

كل من عرفه، ومن هنا يدوم، ويتسع ليعم الدنيا.

وأفصل هذا الإجمال نوع تفصيل:

* أصول الإسلام والتى هى القرآن والسنة خالدة، تكفَّل الله سبحانه وتعالى بحفظها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] أى إنه سبحانه وتعالى نزل الوحى على رسوله من قرآن وسنة، وهو سبحانه الحافظ لهذه النصوص، ولذا لا تجد أى تغيير فى كلمات القرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية، وإنما يهيئ الله من الأمة من يحافظ على هذه النصوص، ويقوم بخدمتها علميًا على كل وجه.

إن أعداء الإسلام يكيدون لنصوص الإسلام، والله سبحانه يوفق من رجالات الأمة من يرد كيد الأعداء إلى نحورهم، ويحفظ الله أصول دينه تحقيقًا للوعد الوارد فى هذه الآية الكريمة، وإقامة للحجة على الخلق بأن بينهم الدين الحق والمنهج القويم.

* وكلف الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام بحمل تعاليم هذا الدين إلى كل البشرية، ودعوة الخلق إليه، وتوضيح أحكامه وتعاليمه، قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] يأمرنا سبحانه أن نكون دعاة خير، ونأخذ بيد الآخرين إلى ذلك، كلٌّ بحسب طاقته، وهنا ينبرى الأطهار الأخيار للقيام بهذا الأمر الإلهى، جادين مجتهدين، بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم، بعلمهم وعملهم، بكل وسيلة ممكنة، وأفراد الأمة كفاءاتهم متنوعة، ومن هنا فستعم دعوتهم إلى الخير كل نواحى الحياة. إنهم حملة

(١) سورة الحجر، آية ٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

الدين إلى كل الدنيا.

* والإسلام حق فى كل تشريعاته، والحق دائم، يعترف الجميع بما فيه من خير، وما فى تشريعاته من عظمة، فليس هناك عاقل فى شرقى الدنيا أو غربها يعلم الإسلام إلا ويعترف بعظمته، وأنه الكفيل بإسعاد البشرية، ولقد اعترف بذلك كثيرون من أهله ومن غير أهله، يعترفون بعظمته، وأن المتمسكين به أعزة كرام. ولقد سبق فى موقف قائد الروم، وقائد الصين الاعتراف بعظمة الإسلام[1]، وأن الناس الذين يعملون بهذا الدين، هم الأقوى والأعى ومن هنا يدوم هذا الدين ويخلد، ويشيع فى البشرية وينتشر.

لهذه الأسباب انتشر الإسلام فى كل الدنيا، ولا زال يفتح بلادًا، ويصلح مجتمعات. وسيظل حيًا قويًا إلى نهاية الدنيا.

● صور انتشار الإسلام:

واضح من حديثى الباب أن الإسلام ينتشر بصورتين:

الأولى: صورته الكاملة، إذ يَقْبَل الناسُ الإسلام بعقيدته، وأساسها توحيد الله تعالى، والإيمان برسالة سيدنا محمد ﷺ، **وشريعته** فى العبادات والمعاملات والأخلاق.

أناس مقتنعون بالإسلام فيدخلون فيه، يمتثلون كل ما فيه، ويؤمنون بتكاليفه، يفضلون الإسلام على كل ما عداه، ويؤمنون بأنه الدين الذى اختاره الله للبشرية، وهو الكفيل بإسعاد الإنسان والإنسانية، وهو سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة.

---

(١) تقدم ص٤٠٥ ـ ٤٠٧.

وهذه الصورة هى المشار إليها فى الحديث بقوله ﷺ: «بعز عزيز... إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها...».

الثانية: استفادة الناس بالإسلام: فيَقْبل الإنسان بعض أحكام الإسلام لأهميتها له، أو تفرض جماعة أحكام الإسلام فى حياتها، أو يستفيد منه علماء طائفة فى تخصصهم، ويطبقونها فى مجتمعهم.

وهذه الصورة هى المشار إليها بقوله ﷺ: «... أو ذل ذليل... أو يذلهم فيدينون لها».

وهذا واقع البشرية، فكثير من الناس يعتنق الإسلام، يؤمنون بكل ما فيه، ويلتزمون بما جاء به رسول الله محمد ﷺ.

وكثير من الناس يقبل بعض الإسلام، يحرمون ما حرم، لما يعانون من شؤم هذه المحرمات، كالمخدرات وما أشأمها، والسرقة والرشوة، والشذوذ الجنسى.

وكثير من الناس استفاد بمنهج الإسلام الاقتصادى، فاعترفوا بخطورة الربا فابتعدوا. واعترفوا بخطورة حصول الولد الأكبر على التركة كلها، فتركوا ذلك وأخذوا بنظام الإسلام فى توزيع التركات.

واستفادت المجتمعات من الإسلام الكثير من القيم الاجتماعية، كالتعاون مع اليتيم، والفقير والمريض، وكبار السن.

واستفادت المجتمعات من الإسلام الحرص على العمل، والجدية فيه، وإتقانه، والحرص على الابتكار. حتى إن أحد المصلحين زار دولاً غير إسلامية فوجد فيها هذه الأمور التى اقتبسوها من الإسلام، فقال: وجدت هناك مسلمين بلا إسلام، وهنا إسلام بلا مسلمين.

لقد استفادت البشرية من الإسلام كثيراً من العلوم:

* ففى التربية أخذوا الكثير والكثير من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومؤلفات علماء الإسلام المقتبسة من هذين المصدرين، وذات مرة وأنا أقرأ كتابًا فى التربية ظننت أنى أقرأ كتابًا فى السنة النبوية، لكثرة ما اقتبسه المؤلف من الحديث النبوى الشريف.

* وفى الاجتماع استفاد أهله الكثير، وقرأت منذ فترة تقريراً يفيد أن أحد علماء الاجتماع المشهورين كان يأخذ الفوائد من الإسلام، ويضيفها لنفسه، مدعيًا أنه ابتكرها.

* واستفاد الطب كثيراً من الإسلام، ففى علوم الأجنة استفاد كثيراً، وفى علوم الصحة وأنه لا إسراف فى الطعام والشراب. وفى علوم الأغذية وأن اللبن والعسل لهما العظيم من الفائدة، وفى علوم العلاج الحث على اكتشاف أسباب الداء، واكتشاف الدواء، والدقة فى ذلك وغيره. وذكر الإسلام كثيراً من الأدوية لا زال الطب يعترف بعظيم قدرها، ويستفيد بها. وفى أمور الصحة النفسية أرسى الإسلام الكثير من القواعد التى تعالج بل وتُسْعد.

* وفى العسكرية أعطى الإسلام البشرية الكثير من أسباب تقدم العسكرية والسمو بها، حتى تكون مصدر قوة معمرة لا مدمرة.

وماذا بعد قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) سورة الأنفال، آية: ٦١.

﴿يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ لجيش المسلمين وهو يودعه: «انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا[٢]، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا[٣]، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»[٤].

وقال ﷺ: «لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»[٥].

إن الإسلام دين نظم حياة الناس خير تنظيم، ومن هنا قبله العقلاء المنصفون، واضطر للعمل بمبادئه العقلاء المتعصبون، مما جعله يشيع ويدخل حياة الأشخاص والبيوت والبلاد، عرفته الدنيا وستظل، وعَمّرها وسيظل.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

بعث الله رسوله محمدًا بالإسلام، فدعا الناس إليه، فاغتاظ الكفر وراح يبذل كل ما فى وسعه للقضاء على الإسلام:

تَجَمَّع مشركو الجزيرة العربية، وذهبوا بجيوشهم للقضاء على الإسلام.

وجمع الروم جيوشهم وجيوش من مالأهم من نصارى العرب

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٠.

(٢) طاعنًا فى السن.

(٣) لا تأخذوا شيئًا بدون وجه حق.

(٤) أخرجه أبو داود.

(٥) أخرجه أحمد.

المتاخمين لهم للقضاء على الإسلام.

وبذل الفرس كل حيلهم للقضاء على الإسلام، وأصدر الكسرى أمره بذلك إلى عامله على اليمن باذان، وأرسل الأخير قوة خاصة للقيام بالمهمة التى وكلت إليه، وهى عبارة عن رجال مدربين على الخطف والاغتيال وذلك لإحضار رسول الله إلى الكسرى[١].

وبذل اليهود كل ما عندهم للقضاء على الإسلام: فدبروا لإلقاء حجر على رسول الله ﷺ وهو قاعد بجوار جدار فى ديارهم.

ودسّوا له السم فى الشاة.

وألّبوا أهل الجزيرة جميعًا عليه للقضاء على الإسلام والمسلمين.

فى هذه الظروف يخبر رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى سيمكّن لدين الإسلام، وسيشيع وينتشر فى العالم كله، وأنه لن يبقى بيت إلا وسيدخله الإسلام؛ إما بأن يسلموا، وإما بأن يعترفوا بعظمة الإسلام فيستفيدوا من شرائعه وعلومه.

ويتحقق ما أخبر به ﷺ. فها هى دول العالم بأسره يشيع الإسلام فيها وينتشر، ويسلم الكثيرون عن رضا وطواعية، ويعتزون بإسلامهم كل الاعتزاز، ويحرصون على نصرة الإسلام كل الحرص، وآخرون يجدون فيه النفع والسعادة فيضطرون للاستفادة منه، فحقائقه تجذبهم إليه لعظمتها وجليل فائدتها.

وما أشبه اليوم بالبارحة، يطغى مشركو الجزيرة على المسلمين فيقوى الإسلام، حتى إن المشركين يضطرون للتنازل عن شروطهم التى أوغلوا

(١) راجع كتابى «الإرهاب العالمى من يصنعه ومن يمنعه؟» ص١٥.

فيها فى الظلم ويرجون المسلمين أن يتركوا هذه الشروط. وها هو كفر اليوم يتهم المسلمين زورًا بالإرهاب والتطرف فينتصر الإسلام وينتشر، ويقبل الناس عليه، ويعلو شأنه ويزداد علوًا.

وهذا من معجزاته ﷺ.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ عظمة الإسلام، وأنه سيقبله أكثر الناس كدين، ويقبله آخرون كحقائق علمية تفيدهم.

٢ ـ قدرة الإسلام على إصلاح كل نواحى الحياة فى كل زمان ومكان، وهذا سر عظمته وخلوده.

٣ ـ إكرام الله سبحانه وتعالى رسوله محمدًا ﷺ وأمة الإسلام، إذ أعلمنا سبحانه بمستقبل الإسلام وطمأننا.

٤ ـ حرص رسول الله ﷺ على الخير لكل الناس، إذ أخبر بما يطمئن المسلمين، ويحفزهم على نشر الإسلام، والعمل على نصرته.

٥ ـ فيه معجزة لرسول الله ﷺ، إذ أخبر بالأمر فتحقق وفق ما أخبر.

٦ ـ فيه دليل على صحة السنة النبوية وثبوتها.

* * *

• وختامًا:

فبعد هذه الرحلة المباركة مع أحاديث رسول الله ﷺ عن زماننا يتضح أنه:

أ ـ ستحدث فى الأمة انحرافات تتبعها عقوبات:

١ ـ فإذا قل العلم وكثر الجهل، وكثر الزنا والمخدرات ضعفت الأمة وهانت.

فعلى الأمة أن تجتهد فى إحياء العلم وإنعاش الدين لأهل البلد والوافدين.

٢ ـ وإذا ظهرت الفاحشة ظهرت الأمراض الفتاكة التى لم تكن فى الأجيال السابقة.

٣ ـ وإذا ظهر الظلم فى المعاملات ظهرت شدة الحياة من القحط وقلة الأقوات وقسوة الحكام.

٤ ـ وإذا مُنعت الزكاة قلت الزروع والثمار.

٥ ـ وإذا لم نلتزم بالقرآن والسنة غلبنا الأعداء، واستولوا على بعض ثرواتنا، وشاع بيننا الاختلاف والاقتتال.

٦ ـ وإذا أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله، وصُدِّق الكاذب، واؤتُمن الخائن، وقُدِّم الفاجر هلَكت الأمة.

٧ ـ إذا اهتممنا بالقشر وأهملنا اللب، كأن نحلى المصاحف ولا نعمل بها، ونُزَخْرِفُ المساجد ولا نعمرها ضاعت الأمة.

٨ ـ إذا كثر المنكر، فكثر اللهو والغناء والظلم، ظهرت الابتلاءات والكوارث، وكلما زاد الذنب زادت البلية.

ب - سيظل الإسلام قويًا له أهله الذين ينصرونه:

١ - يحبونه ويحبون الله ورسوله.

٢ - يتعلمونه ويعملون به ويُعَلِّمُونه.

٣ - يجتهدون فى إقامة الدين بكل تعاليمه.

٤ - يحرصون على نصرة الإسلام بكل ما أوتوا.

٥ - يهيئهم الله للإسلام، ويوفقهم لكل خير.

جـ - سيظل الإسلام ملء سمع الزمان:

١ - يحبه أهل الإنصاف والخير.

٢ - ويعمل بالكثير منه غيرهم.

٣ - لا تجد البشرية الخير إلا فيه.

د - علينا أن نلتزم بالإسلام تمامًا ففى ذلك خيرا الدنيا والآخرة، وذلك بأن:

١ - نجتهد فى البعد عن المعاصى، والأخذ بيد الآخرين للبعد عنها.

٢ - نجتهد فى فعل الطاعات، والتعاون والتناصح فى الازدياد منها.

٣ - ولْنَثْبُتْ على الإسلام الدين الحق، لا تؤثر فينا الفتن، وإنما نستفيد بالقرآن والسنة فى التمسك بالحق، والثبات على الإيمان، والأخذ بيد الآخرين إلى ذلك.

والله الموفق والهادى إلى الصراط المستقيم.

والحمد لله رب العالمين.

إلى هنا انتهى القسم الثالث

ويليه بمشيئة الله تعالى القسم الرابع، «التحذير من فتن أخرى»

أسأل الله الكريم التوفيق والعون

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع — الصفحة

***

كتب للمؤلف

- طرق تخريج حديث رسول الله ﷺ. طبع مكتبة الإيمان.
- طرق تخريج أقوال الصحابة والتابعين. طبع مكتبة الإيمان.
- المدخل إلى السنة النبوية «بحوث فى القضايا الأساسية عن السنة النبوية» طبع دار الاعتصام.
- مسند على بن الجعد «أحد شيوخ البخارى» تحقيق ودراسة. طبع مكتبة الفلاح بالكويت.
- السنة النبوية: مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها. طبع دار الاعتصام.
- علم الجرح والتعديل، قواعده وأئمته. طبع المؤلف، ويطلب من مكتبة الإيمان.
- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة. طبع المؤلف. ويطلب من مكتبة الإيمان.
- من هدى الرسول ﷺ، الأسرة وآدابها. مطبعة عبير.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووى. تحقيق ودراسة. طبع دار القرآن «نفد».
- كيف نصوم رمضان «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- رسالة إلى كل مريض «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- الرد على د/ مصطفى محمود فى إنكار الشفاعة، والرد على لواء متقاعد/ محمد شبل فى إنكار يوم عرفة «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- دفع أباطيل د/ مصطفى محمود فى إنكار السنة النبوية. طبع دار الاعتصام.
- د/ مصطفى محمود إلى أين؟ «رسالة صغيرة» طبع دار لاعتصام.
- دفع الشبهات عن السنة النبوية. الناشر مكتبة الإيمان.
- الإرهاب العالمى من يصنعه ومن يمنعه؟. الناشر مكتبة لإيمان.
- الرد على القس الأمريكى فى افتراءاته على رسول الإسلام ﷺ. الناشر مكتبة الإيمان.
- معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «القسم الأول: الإسلام». الناشر مكتبة الإيمان.
- معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «القسم الثانى: أمة الإسلام». الناشر مكتبة الإيمان.
- معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «القسم الثالث: التحذير من الفتَن». الناشر مكتبة الإيمان.

هذا الكتاب

فيه أحاديث قالها رسول الله ﷺ منذ أكثر من ١٤٠٠ عام تتحقق فى زماننا، كأنه ﷺ حَيٌّ بيننا، يوجهنا ويأخذ بأيدينا إلى الصراط السوى.

أحاديث قالها ﷺ عن زماننا يحذرنا المخاطر والانحرافات حتى لا يقع علينا عقوبات.

وتتحقق هذه الأحاديث فى حياتنا تمامًا، فظهرت الفاحشة وظهر معها الأمراض الفتاكة التى لم تكن فى السابقين.

وابتعدنا عن ديننا فضعفنا وغلبتنا الأمم الأخرى، واستولت على بعض ما فى أيدينا.

وكثر اللهو والغناء فظهرت الكوارث والخسف والزلازل.

إن الإسلام - الدين العظيم الحق - رسم طريق السلامة، وسيظل قائمًا فى حياة الناس، يمتثله الكثيرون، وعلينا أن نكون منهم، وندعو الآخرين إليه، حتى تسعد البشرية، ويعمها الخير والسلامة.

إن تحقق هذه الأحاديث فى زماننا لدليل قوى على عظمة الإسلام، وصدق رسالة سيدنا محمد ﷺ، وأيضًا دليل ساطع على صحة السنة النبوية وثبوتها.

والله ولى التوفيق والهدى،

المؤلف